

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء الأول

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

٣٩٢٢٨



هدية الشهيد السيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

هذا البيت

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ،
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ،
وَتُبَّ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

أيام خزاعة راحت مع التاريخ .. مات سيدهم حليل فانتهى بهذا شرفهم في العرب . وابتدأت دولة في الناس شمسها تبزغ ، وتملاً بنورها المستفيض رباع مكة .

واشرابت اعناق القبائل الى الملا تنظر وتدير الأعين بين قصى ومن ظاهره من بطون قريش ، وبين أولئك المغلوبين على أمرهم واحلافهم من بنى بكر .

ماذلت خزاعة حتى تدع البيت لهذا الصهر الذى عدا على حقها فاستلبه ، وان فيها من هو أولى بها منه ، وأوثق صلة بأجيال من آبائها توارثوا حجارة الكعبة والقيام على شأن حجيجها من رفادة وسقاية . وان دون فوز هذا الفتى من مضر لصبغ هذه البطاح باللون القانى !..

ذاك رأى خزاعة وقد تجنت !.. فما عدا الأمر - اذ أصبحت مفاتيح الكعبة في يد قصى - أن ارتد الحق الى أهله . وانما كانت ولاية البيت قبلها في مضر ، ثم بنيه من بعده ، فلما بغت قبيلة اياد في الحرم وأخرجها المضرىون منه ومن مكة ، عمد بعصها ذات ليلة الى الحجر الأسود فاقتلعه ثم دفنه في الأرض حتى يذهب باختفائه هذا الشرف الذى تستطيل به مضر في بلاد العرب .

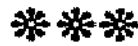
واصبح العوم والبيت غير البيت ، والكعبة غاب عنها الحجر مناط التقديس ومهوى الأرواح والنفوس .. وأرسلوا البصر ثم حملقوا ولم يصدقوا . واقبل كل على أخيه لا يقوى على كتمان ما بنفسه من هم غالب .

وفي مثل الملح طار النبا واستشرى كالنار . وغشيت الكأبة مكة ولدا وشيخا كيفما اختلفت فيها البطون والافخاذ .. ان الحجر الأسود كان رمز ايمانها جميعا ، وكان الشراء والنعمة لأهلها ، بما يجذب نحوها من حجيج يطوون النجاد والوهاد ، ويحملون اليها متجرا أو يبذلون مالا تنفق بهما السلع أو تروج الأسواق .

غشيت الكأبة مكة كلها الا نفسا ظلت وحدها هادئة بين هذه الآلاف لا يملأها القلق ولا يفعمها الحزن الذى عم الجميع . بل بقيت ، كلما لاقت من هم الناس ، تشيح عنهم حتى لا يروا في عينيها ومضة

الهدوء ، ولا على ثغرها بسمة السخر والرائاء .. تلك كانت امرأة شاء لها حظها أن تعلم وهم في بيداء حدسهم يضربون .
واقبلت على قومها في نجوة من غيرهم تهتف :
« يا بنى خزاعة ! .. » .

فالتفوا بها . وتسابقوا يسألون :
« نيم هذا الهتاف يا أمة الله ؟ » .
« في عز الدنيا وشرفكم بين العرب ، وإن كليهما لفي كفى هاتين ! » .

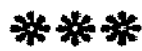


وكان حديثها نصيحة وقصة . أما القصة فقد أطرب جرسها الأسماع وأفاءت على النفوس السكون . وأما النصيحة فقد ادخرتها لسادة القبيل دون العامة . أفضت بها اليهم في حديث خافت كالمناجاة ثم راحت من بعد تحضهم وتقول :

« فاملكوا أمركم بينكم فلا تستطيل عليكم بعدها مضر أبدا .. » .
أجل وأنه لكما أوصت . وإن الحظ الذي ساقها تلك الليلة الى الخروج لبعض شأنها للذي واثى خزاعة فسودها بولاية البيت الحرام . كانت المرأة تدلج على مقربة من الحرم في ظلال كثيفة من الظلام ، فاذا أشباح رجال يدلفون من البيت في خطى المستريب ، في أيديهم قد احتملوا شيئا .. ووقفت الخزاعية في عجب تنظر ، وتصطنع الحذر قدر الجهد حتى لا يروها . ثم راحت تتأرهم البصر وقد حجبتها عنهم الظلال ، وراتهم يقربون بعيرا ، ثم ينيخونه ، ثم يحملونه .. فما أعجب أن رزح لتوه على الرمال لا ينهض كأنما قد حملوه جبلا أو شد الى أديم الأرض ! .. وحاول القوم أن يستنهضوا الدابة فذهبت محاولتهم مع الريح ، فالتمسوا عنها ثانية أقوى أودعوا ظهرها ما ناء به ظهر اختها من قليل ، ثم ضربوا آباطها الى غايتهم . ولكنها رزحت كسابقتها وشد بطنها الى صفحة الرمال ما شد الأولى من أصابع المجهول . وعجب القوم . وعالجوا البعير بالحيلة وبالغنف وبالجهد فأعياهم ما بدلوا من حيلة وعنف وجهد .. وكانت المرأة واقفة “ تبرح من حيرة ومن ذهول . وترسل نظراتها خلال الظلمة الى ثلاثة الدواب رازحة على الرمال كالآخرين تحت حملها الصغير فلم تملك الا الاقتراب مستخفية بستر الليل عساها تقف على ما ملأ قلبها توجسا وخوفا .

وكانما أيس أصحاب الليل أن يستعملوا ظهرا ، أو استبدت بهم فزعة ، أو خشوا أن يفجأهم في مكانهم نور الفجر . فسارعوا الى الوسق يدفنونه في طوايا الرمال .

في هذه اللحظة تبينت الخزاعية الأمر كله اذ التمعت امام عينيها صفحة الحجر الأسود تنم عنه ، وتكشف عما دعا بنى اباد الى اخفائه . لقد علمتهم قوما موتورين ، وجدوا على ولد مضر فأرادوا أن يحرموهم ما رفع هامهم على قبائل العرب اجمعين . . . وضمت المرأة على السر شفتيها كما انضمت على مكنونها هذه الرقعة من الأرض ، ثم ذهبت مع الصباح الى قومها تقص الخبر وتزجى النصح لاشياخهم أن يساموا مضر على رد الحجر لو نزلت لهم عن مفاتيح البيت الحرام يتولونه دونها . واخلق بخزاعة أن يطير بهذا شأنها في القبائل .



ما كان قصي لينسى هذه الأحدثنة التي سمعها صغيرا ، ثم وعها كبيرا ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما طاف بالبيت فرأى شيخ خزاعة يقوم به ويدفع بابه للحجيج من وفود الجزيرة لقضاء حق ربهم فيه . وكان قصي ذكيا أريبا ، نما في قلبه على الأيام حب هذا السؤدد الذي انساب من يدي قومه بمكيدة امرأة كما تنساب حفنة مياه من بين أصابع قابض عليها . وأخذ طوال ما فات من سنيه يدبر لاستعادة المجد الذاهب . فاذا بلغ مبالغ الرجال كانت حجابة البيت امنية حياته . ولمن كانت له مثل عزماته وقوة قلبه تتداعى الصعاب وتنهار حتى لتصبح رواسيها الشم في يديه رملا هشا ماله من قوام .

وأجال قصي فيما حوله بصره : هذا حليل بن حبشية سيد خزاعة يشرف به العمر على غايته أو يكاد ، ويلعب الوهن بجسمه حتى تهجره القوة فلا يستطيع دفع الباب كما اعتاد وهو شاب مفتول عامر بالحياة ، بل يرى في الحجابة جهدا فيسلم المفاتيح الى هذا يوما وإلى ذاك يوما يقومون بالعمل عنه . . . ثم يسلمها اياما وإياما الى أبى غبشان سليم ابن عمرو وارث الشرف من بعده في القبيل . ثم هذا أبو غبشان صاحب زق وخمر ، لا يكاد أن يرى الا مخمورا . وما على شاكلته يكون سادن بيت الله الحرام ، وما لمثله يستجيب الناس أن أراد القيام فيهم بأمر دينهم أو دنياهم .

دبر قصى الحساب فما فاتته الصواب ، واصبح عليه صباح مثنى فيه الى دار حليل ، يضرب بابيه ويستأذن .
وقال الفتى بعد أن استقر به المقام وخاض من الحديث فيما لم يبق بعده الا صفوة الكلام :

« ذكرت اليك حبي يا بن حبشية » .

فرمقه الشيخ برهة ثم سألته :

« لك أنت يا زيد ؟ » .

« نعم وعساك ترضى » .

« مرحبا وأهلا » .

وكان هذا الزواج صفقة رابحة في نظر الشيخ فتهللت أساريره وتاه زهوا بصهره الذى ينتهى اليه أمر قریش سيادة وأصلا ووفرة مال . وانتقلت حبي الى حياة جديدة ودار كسبت لها السمو على كل دار . ولكن أحدا من رجال خزاعة لم يجلب بذهنه وقتئذ أن ولاية البيت قد افلتت منهم الى سواهم . لقد اخذ تفكير حليل يسير في منحى سوى منحاه راحت به مفاتيح الكعبة في كف حبي ثم في كف زوجها يقوم عنها اكثر الأوقات بما هو أجمل بالرجل أن يقوم به . وكلما طالت الايام طال قيام قصى بحجابه البيت ، وكلما اضطلع بعمله هذا اطبقت أصابعه على المفاتيح شدا . وكلما مر الزمن نبه ذكره وعظم خطره وزاد ولده فزاد بهم قربا من قلب حليل .

ثم ما لبثت اللحظة التى انتظرها بيقين الرائق أن جاءت . فقد احتضر كبير خزاعة . وانه لعلى فراشه يجود بنفسه فيطلب ابنته . ويطلب ولدها وزوجها يملا من طلعاتهم عينيه ويلقى عليهم نظرات الوداع . ثم تأخذه صحوة فيهم ناهضا من فراشه ما وسعه ، وقد اتكأ على حشيته بذراع . ويخاطب سيد قریش في صوت خافت خفيض :

« يا بنى ... انك على أمرى من بعدى ... »

قال قصى يسأل وان لم يفت عن ذكائه الجواب المرجو :

« وسليم ؟ » .

« مالى ولسليم ؟ : هذا امر ليس يقيمه صاحب خمر » .

« فان أبت خزاعة ؟ »

فصاح به الشيخ كالاستنكر وهو يشير الى أحفاده :

« خزاعة !... وهل خزاعة الا هؤلاء ؟... انما ولدك بنو ابنتى

— ولدى — وانت أحق بأمرى حتى يخلفوك » .

وقد تم هذا حقا .. رسمته الوصية ثم أدعته من بعدها الدماء .
ابت خزاعة وظاهرتها بنو بكر ، وأبى قصى عليهم ذلك الآباء
وظاهره قوم أبيه قريش وكنانة وقوم أمه من ربيعة قضاة .
واقتل الفريقان قتالا مرا أهلك منهم الخيل والرجل ، وحصد
عديدهم حصدا .

واشفقت العرب من عقبى الحرب فمشت بينهما تحضهما على
الصلح وفض النزاع حتى قبلا أن يحكما في الأمر يعمر بن عوف .
وقال يعمر يقضى بعد سماع الحجة من كلا الخصمين :
« يا بني خزاعة أراكم جرتم فانه والله لبيت أبيه .. الا فما كان
من دماء رجاله ففيه الدية ، وما كان من دمائكم فاني اضعه !... »
وكذلك انتصر صاحب الحق القديم واستعاد نرائه . اما خزاعة
فقد نفاه عن البلدة وأخرجها منها ، وأما قريش فقد ألفها حوله ،
وجمعها وكانت قبله مزقا وحلولا متفرقة ، ثم أقطعها بلدة البيت .
وراحت أيام خزاعة من التاريخ ، وبدأت دولة في الناس شمسها
تبزغ وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة ...



شرف قصى حتى تسنم الذروة . وكان رجلا فيه هبة ، وفيه
حزم ، وفيه فيض ، فأنته الأقبام منقادة ، عن رهبة أو عن رغبة .
وأحسن امساك الزمام ، فما تفلتت منه توافه الأمور ، هو الذي تعلم
أن يصانع العظام حتى تستقيم له ...
وأصبحت له مكة ملكا وان قل له أن يصير ملكا . فكان للناس
أبا وسعهم حنانه قبل أن يضمهم سلطانه .
وفي الحق لم تر تلك الرقعة من الأرض رجلا مثله تداعت له
السيوف والقلوب ، لا يأتمر كلاهما بأمر سواه . وان القوم ليهمون
بالحرب فلا يعقد لواءها لهم الا قصى . وان الرجل ليتخذ شريكة حياته
بعد أن يرضى عن زواجهما قصى . وان الراحل لا يرحل والعائد
لا يعرف الطريق الى داره حتى يمرأ أولا بدار قصى ... قوة لا يحدها
سلطان ، وسلطان أشبه بإيمان لا يملك أن يعصيه انسان .
واقبلت عليه في ملكه الأيام ، ثم تداولته الأعوام حتى شعر أن قد
أمهل له في عمره ما لم يبق معه بقية أمهال ، فانطلق بفكره يتزود من

هذه البقاع الحبيبة الى النفس ، ويتدبر فيمن عسى أن يبقى لها مر بعده عزها وعز ولده . حمداً لله فليس ينقصه المال ولا كثرة الرجال! . وهؤلاء قومه قد جمعهم ولفهم حول آله لفا . وهؤلاء بنوه قد شرفوا امام عينيه واستطال مجدهم . وهم فتية . فايهم تولى امر هذه الاقوام ، قام به فأحسن القيام .

في دخيلة نفسه احب لو اوصى لولده عبد مناف اذ خبر فيه عزما وهيبة وفيضا كأنما نحله كل ما فيه دون بقية بنيه . ولكن قصيا على قوة قلبه كان امرا ذا طيرة - شأنه في هذا شأن الكافة من سكان الجزيرة الذين غلبت عليهم الأوهام واستعبدت عقولهم أيما استعباد في ذلك الزمن الغابر وهن جلده ولم تهن ذاكرته ، فاستطاع أن يرتد القهقري بخياله ليرى ما حدث ذات ليلة في دار ولده المفضل .

. كانت عاتكة الكبرى بنت مرة قد جاءها ما يجيء النساء عندما توشك أن تنسلخ عنهن حياة جديدة ، واقتعد نسوة البيت حولها ينتظرن . وراح عبد مناف بلا قرار يجوب الحجرات في انتظار ما تأت به زوجه من أخ لبكره المطلب يعز به في الناس نفرا .

واشتد بعاتكة الألم حتى إعتصرت عينها ، واشتد بالزوج القلق حتى ذهب ذهنه في اليأس كل مذهب لم تكن هكذا حالها حين وضعت وليدها الأول ، ولم تلق كهذا العسر . فلما طال اليوم عليها أمرها وحزب ، خشى زوجها المغبة وراح في حرارة يبتهل . ودخل اذ ذاك قصى ، مديدا فارعا موفور القوة كمن له نصف عمره ، فاتجهت نحوه الأبصار - وملاؤها - اذ بدت طلعتة - نظرات فيها هدوء وقرار ان اليمن لفي محياه ، وان البركة لبين يديه ، وان الخير لاينما حل ، فليس اذن ما يخشونه على الام .

وقد صدقت حقا فراستهم اذ كان ميمون الطلعة مباركا ، ما استوى مجلسه حتى تيسر لعاتكة أمرها وجاء البشير بأنها وضعت حملها واستراحت .

لم تعدل فرحة عبد مناف بنجاة زوجه الا الفرحة التي هزت قلبه وهو يرى وليديه قد خلاصا من أمهما وهمت أن تتلقفهما ايدي النسوة . ولدت له عاتكة توأمين . . ذكرين كانا! وان في هذا عزا له ما بعده عز في بلد استحيى ناسها الابن وكرهوا الابنة حتى ليودعنوها بطن الارض ولما يستقر على ظهرها هيكلها الغض . واسرع الرجل تحمله الفرحة ، وسبقه الشيخ الى الوليدين يريد أن يلا بهما عينيه كما امتلا - قبل

النظر اليهما - فؤاده . ولكنه مامد اليهما كفيه حتى تقبضتا دونهما رهبة، ثم استرسلتا الى جواره وعيناه تولىان الصغيرين دهشة وحيرة .
وحق لقصى ان يدهش ، وان تأخذ الحيرة وهو يلح في الوليدين شذوذا دفع اليهما الابصار تنتهبهما انتهابا . . . كانا متصلين على غير المألوف في التوائم ، لا من جنب ولا من بطن ولا من ظهر ، بل لصقت بجهة احدهما قدم الآخر كأنما هي منها قطعة .

واسرع القوم اليهما يعالجونهما حسبما اسعف كلا جناحه . وكثرت فيهما الآراء وتشعبت نواحيها . ولكن رأيا واحدا لم يلم على جانب من التوفيق . وما اجدت المحاولات شيئا .

وأقبل عجوز من خزاعة له كهانة وله علم ، كانوا قد استقدموه ليستخبروه ما جهلوا : قلب الوليدين في يده برهة يفحصهما ؛ ثم قال يهدوء :

« ما ارى الا ان ينفصلا عن دم » .

فسأله عبد مناف بلهفة :

« ولا خطر » .

فكان الى العمل منه الى الجواب أسرع ، فما لبث الطفلان ان انفصلا كلا الى ناحية ، جهة من اسموه عبد شمس تشخب دما ، وقدم توامه عمرو خضيبة بذلك الدم .

وقال الكاهن ، وهو يهم ان يبرح ، وعلى شفثيه بسمة خابية ، وفي عينيه سهوم كمن كان يستوحى المجهول :

«الا انها والله لآية لمن علم ، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم ! »
وكان من هذه الكلمات لقصى طيرة . . . وفي مجلسه بداره ذلك الصباح منطويا على نفسه ذكر نبوءة الكاهن وما كان من شأن الطفلين .
وقام الى الندى يمشى الهوينا ، خافض الرأس مشغول البال .
ما له في أمره اذن من خيار . وما عليه ليجنب قريشا مصارعها ، وليبعد الشر عن الوقوع في آله ، الا ان ينأى بعبد مناف عن تولى الأمر من بعده ، حتى لا تشب الفتنة بينه وبين توامه عبد شمس ان ورث الأول ونفس الثانى على أخيه الشرف الموروث .

وبقى الأمر محصورا في عبد الدار ، بكر قصى ، وان عرفه لا يقوم مثل مقام أخويه . ولكنه رأى ان يوليه شأن القوم حتى لا يستطير الشر ويستشرى في بنيهِ او يملأ بدمائهم ارجاء مكة .

وقام الرجل بوصى بما قرأه عليه وفي باله أن وصيته مجنية أهله
ويل المقدور ، ووقف ينادى ، على مشهد من بنيه ومن أشراف قومه :
« يا آل فهر .. يا آل غالب .. يا آل لؤى .. يا آل كعب ..
يا آل كلاب .. » .

فلما اجتمع له الناس من كل جانب يحيطون به ، التفت الى بنيه
يهتف :

« يا بنى قصي » .

فنادوا جميعهم :

« لبيك ! » .

قال الرجل وهو يشير الى بكره :

« فاني أشهدكم بأنى أوصى لابنى هذا ... »

وأدار عينه الفاحصة فما رأى الا الموافقة والاقرار . ما كان لهم
بمعصيانه طاقة ولا عن طاعته محيص .

وقال الشيخ لوصيه أمام بقية ولده بعد أن انفض الناس :

« انما شرف عبد مناف . وذهب في زمانى كل مذهب . وارتحل
عبد العزى وحل فأصاب من الدنيا وأصاب منى منه ، وتخلفت أنت
يا بنى ... اما والله لالحقنك بالقوم : لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون
أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حرب الا أنت بيدك . ولا
يشرب أحد بمكة الا من سقايتك . ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما
الا من طعامك . ولا تقطع قريش أمرا من أمورها الا في دارك ... »
ونهض فحف به بنوه يمشون بين يديه . ولم ينس وهو يغادرهم
أن يلقيا اليهم كلمة فيها جماع أمره :

« الا قد بلغت ! ... »

٣

حتى اكتهل عمرو ، واتبع خطوه في طريق العمر توأمه عبد شمس ،
وشب لهما من الولد ما لكليهما مناط فخره ، ظلت نبوءة كاهن خزاعة
جنينا في بطن الزمن لم يبرز عليه نهار .

وتداولت قريشا أحداث شتى فيها حلوفها مر ، وعبد الدار
ولى بيتها وندوتها . وما اتصل بهذه أو بتلك من شئون . لم تقرر
ضعفه قارعة تدموه الى استنباط قوة ليست فيه ، بل سارت له

الأمور مستأنية يحفها هدوء ولين ، يقوم بما وكل اليه فيسدن ، ويرفد ، ويسقى ، ويعقد ويشير ، وقومه جميعا من خلفه - كما أوصى قصي - لا ينفسون ولا ينقمون ، استجابة منهم لأمر سيدهم الذى طواه التراب ، ووقفت عاجزة دون طي ذكره الاحقاب .

وورث بنو عبد الدار فخر أبيهم فاستطالوا بما في أيديهم عزا . ولم يقصر عن مجد بنى عمهم عبد مناف بل لعله بلغ شأوهم ثم زاد رفعة . فقد ذهب عبد شمس يجوب الآفاق متجرا فيصيب خيرا ويسيب حنكة ودراية بالناس . وهو باتجاره هذا يشبع نفسه المطبوعة على المداورة وبعد الغور والدهاء . ونبه ذكر عمرو كما لم ينبه لأحد من بنى أبيه ذكر حتى سوده القوم عن غير وصية سابقة من صاحب سلطان ... كان الله قد جبله من خلق متين ثابت الأركان وأورثه من جده قصي صفته وان لم يورثه عرضه ، فراح اسمه في الآفاق قصيدة طيبة الروى . أبياتها ساحة وفيض وقوة جنان ، لا يمل ترديدها لسان ، ولا يدانى شأوها في اقوامه انسان .

هنا لعبت حنكة الأيام بالرجل الذى جبلته الدنيا على المداورة وبعد الغور والدهاء ... نظر عبد شمس الى الأمور نظرة تاجر لا يفوته في صفقاته التزام الحساب ، فوجد بنى عبد الدار أقل ولد جده خطرا . ولولا أن كانت لهم ولاية البيت وما تبعها مما أوصى به قصي ما بزوا امرءا من عامة قریش . افتراه يتركهم يفضلونه امام الخاصة والسوقة بهذا الفخر الذى لم يأتهم عن عزم أو قوة أو فضل بل اتاهم منة من كريم وهم بنو الضعيف الواهن المهيض ؟

اذن فقيم كان له الدهاء لو ترك لهم ولاية البيت وما يلحقها من الشرف الموروث ؟ وهل ترى يكبو ذكاؤه دون بلوغ مآرب نفسه ؟ . ان الرجل قد عنى ذهنه أن يكدح ليفوز بما يعلو به فوق بنى عمه شرفا . وكانت فيه نزع للسيطرة جامحة الى جوارها مداورة تفل من حد جموحها أن يبين ، فلم ينس أنه ليس بخير بنى عبد مناف في عيون قومه ما بقى فيهم توامه حيا يأسر الناس فيضه ، على أن الكرم ليس بما يعسر على عبد شمس أن يسطنع له من جنسه ما يذيع ذكره ويعطف النفوس اليه ، ولم يكن هو معدما ولا مقلدا وان لم يبلغ من الثراء مبلغ عمرو . لم يكن بالأضال حسبا اذ كلاهما من عبد مناف ، ثم ليس بعد هذا بالأقل أو الأذل ولدا . . وكفاه أن قد انجب أمية الذى لاح - مذ اكتملت فتوته - كبير المطمع نزاعا الى العلياء .

وكذلك بدا عبد شمس ينسج خيوطه فراح يتألف حوله ذويه . ثم راح يجتمع بأشياخ قومه يحدثهم في اخراج الأمر من بنى عبد الدار . فلا ينكرون عليه سعيه وهم يقرون بعلو عبد مناف على عبد الدار . ثم أتى أخيرا عمرا متألفا آونة مداورا أخرى حتى مال وسكنت اليه نفسه . فلما اكتمل له رضا الأكثرين انبث بين اسد وزهرة وتيم والحارث يبذر فكرته حتى اقبلوا معاقدن معاھدين ان يخرجوا الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة جميعا من بنى عمه الى الأعزین : بنى عبد مناف بن قصي سادة الناس وأولاهم بشئون حرمهم بيت الله . واجتمع له القوم الى جوار الكعبة بينهم جفنة ملئت طيبا غمسوا فيها الأكف ثم مسحوها بأستار الكعبة وهم يقسمون على النصر والوفاء بالعهد .

ورد بنو عبد الدار ومن والاهم على حلف المطيبين هؤلاء بحلف آخر فاجتمعوا الى جفنة دم يتعاقدون عليها . ومن خلف أولئك وهؤلاء وقفت العرب ترقب ما عسى أن تأتي به الاحداث بين بنى هذا البيت الذين فرقت بينهم عروض الحياة حتى صاروا اصحاب طيب أو لعقة دماء .

ثم سلت السيوف وأشرعت الأسنة وكادت الحرب أن تشب فتأكل نارها من القوم أو تذر ، فاذا بلغت الفتنة غايتها وأدرك التأهب مداه مشى من ذوى المروءة بين الفريقين من سمعوا له فتداعوا الى الصلح ابقاء على قريش .

وهكذا حكموا بينهم من ارتضوا فحكم بأن يترك لبنى عبد الدار من تراثهم حجابة البيت والندوة وعقد اللواء . ويعود بنو عمهم بالسقاية ورفادة الحاج .

واجتمع المطيبون في دار عبد شمس يتشاورون فيما اصابوه من ثمار فقام صاحب الدار فيهم يقول :

« يا بنى عبد مناف هذه غنيمتكم قد احتلبناها من بنى عبد الدار احتلابا وانى والله .. » .

فقطع عليه حديثه من قال :

« بل عاد الينا بعض ما ترك قصي ، ولنحن أهله ، ولم نبتز احدا حقه » قال عبد شمس :

« فهذا . وهلموا امركم بينكم فانظروا . » .

فعاد محاوره ثانية يقول :

« انه لأمر بين . قوموا فادفعوا بهما الى خير قصي » .
ثم التفت الى عمرو يهتف به :
« فما ترى يا أبا يزيد ؟ » .
« روا رأيكم .. » .

ولم يزد . وتلبث القوم يتفكرون برهة - اما عبد شمس فقد امتلأ
بالثقة قلبه ان لن يعدل المجتمعون به سواه . اليس هو مؤلب الناس
حولهم ، والمشير عليهم بالانتقاض على بني عمومته ، والداعى الى
ثورته حتى باعوا بعد بالذى غنموه ؟

لكنه حساب اخطأ وتقدير كبا دون الغاية . فما هو الا قليل حتى
تبدى على وجهه الذهول وقد نمت الى سمعه صوت يقول :
« يا بني عبد مناف . ألا تهتدون وفيكم عمرو ! »
فكانما هي الصخرة التى حولت التيار .. نادى رجل :
« يا عمرو الحيا أنت لهما ، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين
أبسط من كفيك ! .. »

قال عمرو تواضعا وكرما :
« بل هذا اخى أبو أمية ادفعوا اليه الأمر .. »
ولكن كبيرهما المطلب سارع يقول :
« وما لعبد شمس وهذا الأمر ؟ .. انه قام فينا فأحسن القيادة
واسلسنا المقادة . وانما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب ، وفيض بلا
حساب ، وانه والله لانت ! .. »

٤

ولاية صادفت أولى الناس بها في حساب الجميع ، وان كانت أخطأت
وليها ، مذكى فتنتها ، والساعى الى فخرها في حساب عبد شمس .
وكان لابد ان يتالم الرجل ، وان يبرم ، وان يضيق برأى قومه فيه
ضيقة برايمهم في أخيه . ولكنه صانع وداور ، وتحلب مر الهزيمة وهو
يكظم حنقه في قاع نفسه البعيدة المهوى ، وما له عن هذا معدى ولا
محيص .

وجلس يتربص بالأيام عساها أن تعود فتبهه النصف أو يقع فيها
على فرجة ينفذ منها بحنكته الى اقتناص ما فات .

حكمة داهية اريب . ذاق من الدنيا وذاقت منه ، لا يسعه الا ان يبطن حين لا يضره اسرار ولا يجديه اظهار .

ولكن الايام لم تقبل مطلقا عليه وفي وفاضها الفرصة التي منى النفس ان يجرب فيها ثانية دهاءه ، وان كانت قد اقبلت على توأمه توسع له وتوثق من نظرة قومه فيه . . .

كل ما اصابته مكة من خير كان عن عمرو ، وكل شر اصابته به لم ينفضه او يكفكف من حدته عنها سيد سواه .

كان هو الرجل الذي لم يخطيء فيه تقدير الناس ، لان الاقدار شاءت له ان يصيب . وكفاه جدارة بما اصاب ان قرشا كانت تسمع له وتلتف به ، وسلطانها ما زال في يد غيره من بنى عبد الدار .

ولم يكن هذا اكبرها سنا ، ولا اكثرها ولدا ، ولا اعزها اهل بيت بعد ان مالت عنه نفوس عبد شمس وبنيه ومن صانعهم وصانعوهم ، وانما كان اكبرها قلبا ، واسمحتها كفا ، واعزها خصالا وطيب خللا . وفي سنى الجاهلية كانت المكرمة الواحدة تشغل شاعرا او راوية ، فما بالك بهذا الذي لم يكن ليعز عليه اية مكرمة من المكرمات؟ . .

كان ملاك نفس عبد شمس بيده ، لانه مداور داهية استطاع ان يصطبر ولكن ملاك امية ابنه افلته لانه عجز امام سطوة الحسد ان يمسك بزمام نفسه .

وكان هذا أولى به لانه كان فتيا ، فيه خفة ، وفيه نزق وحدة واندفاع ، وفيه ولع بالمجد الذي اخطأ طريقه ابوه . ثم هو بعد هذا لم يخل قلبه من بغض لمن ظنه نافس اباه في ميدانه وحاز السبق من دونه . فقام يلعب الدور الذي جلس عبد شمس طويلا ينتظر عبثا ان تهيئه له الايام .

سقى عمرو فسقى امية ، واطعم فاطعم ، واعطى فاعطى ، لا يدع وسيلة الا تذرع بها كي يفعل كفعله عسى ان يطير في الملا ذكره كذكر عمه ار يزيد رفعة .

ولكنه كان دائما الصورة الخرساء للأصل الناطق . قلد وليس يوسعه الاحسان فاخطاه الاتقان ! .

ثم كبا به فجأة عندما ضاق بالجود ماله المحدود .

وكان هذا حينما أصابت مكة سنة شديدة ، اذابت الشحم وبرت العظم واكلت اللحم . لم ينج من شرها حضر ومس ضرها الوبر . فذاق ذو الترف الطوى ، واضنك كل ذى سعة حتى لم يسمعه الا أن يقبض كفه .

وجرى امية في السخاء شوطا ثم اقصر واقفز منه الميدان . ثم بقى عمرو وحده ملاذ البلدة الحرام ، لا يفلق باب داره دون الناس ولا يمسك راحته عنهم . . حتى اذا اشتد القحط بمكة أيما شدة ولم يعد في خيرها ذماء ، زم الرجل عليه دثاره ، وحمل ماله ، وشد رحاله وخرج بليل يضرب في الأرض الى مكان .

وأصبح الناس يسعون الى بيته فلا يجدونه فكأنما استلبتهم الدنيا ما بقى لهم من مأمل في الحياة . فلقد كانوا يدرأون الجوع بجفانه والرزء بحنانه والشدة بإيمانه . . أما وقد غاب عن عيونهم محياه فقد انطوا على انفسهم في ذلة ، طاوين . ينتظرون مصارعهم والاملاق يشد على الخناق ، والامحال ينذر بشر حال .

ثم فتحوا أعينهم ذات صباح ، وكلهم هزيل معروق ، لاصق البطن ، منهوك الدهن ، فاذا عير قيد الأبصار قد انتشرت على حد الأفق حتى لتوشك أن تملأ فراغه . واستبقوا اليها راجين ان يكون الله قد ساق لهم فيها خيرا . وراحت الابل في سيرها الوئيد ، تطوى ما بينها وبينهم مخلقة وراءها طريق الشام ، الكعبة مقصدها وغايتها ، وقد بدا ، يقود أولها بخطمه ، رجل ما وقعت عليه الأنظار حتى تصايح القوم من كل مكان فرحين :

« الفيض ! » .

« هذا أبو يزيد ! » .

« انه عمرو ورب الكعبة ! »

ثم التفوا به يتواثبون كالصبية حول أب بار عاد بعد طول غيبة ، ولم يتلبث هو بهم ليسألوه أو يستخبروه شأنه ، بل مضى سريعا الى السوق فأنزله . والى الفرائز التى احتملتها ابله يحلها ، والى الخبز الذى كان حثوها يهشمه ، ثم أمر بالجفان فملئت ، وبهذه الابل كلها فنحرت ، واشتغلت في طهيها الطابخات اياما لا تخبو لهن نار .

عرفت مكة الشيع بعد الطوى والجوع ، وانجابت عنها غمة الايام السالفة فتجاوبت نواحيها منة هذا الكريم الذى أحتمل امواله جميعا الى الشام فاشترى بها طعاما لناسه وما أبقي درهمها لنفسه . وسرى ذكره في الآفاق حتى خبت أمام جذوة اسمه الوهاج لمعة اسماء غيره من الأسخياء . قريش كلها تحدثت به بطاحها وظواهرها ، ثم الجيرة المتاخمة من القبائل ، ثم الأعراب في بواديهم والرعاة في مناخ دوابهم على الكلا في الوديان والشعوب ، ومن وراء كل هؤلاء الجزيرة من طرفيها ما سار فيها ظاعن يتنقل معه الذكر اينما حل من بلادها في مكان .

لم يحدث مطلقا أن تحدثت الناس بمثل ما قالوا عن عمرو : نحلوه أحسن النعوت والصفات التى تعنى بسطة الكف ما وسعتهم أعرب اللغات ، فلما قصرت عن مرادهم الألفاظ اتخذوا له من فعله علما جديدا كأنما قد أحبوا - اذ يدعونه به - أن يذكروا صنيع يديه حين هشمت لهم خبزه ليطعموا ، فكان « هاشما » مذا فعم لهم قدوره وجفانه حتى تلتئم في مستقبل الدنيا رقعة الأرض والسماوات .

رجل تجسد كرما . وكرم جرى كلاما . وكلام انتظم سطورا طارت في جوانب الآفاق قصيدة طيبة الروى على كل لسان ، ندية الوقع في السامع وفي الأذان .

ولكنه لم يسعد مطلقا بما أصاب من فخر وطيب ذكر ، وهو لا يفتأ يرى بعين خياله اشباح القحط تحوم دائما حول مكة ، وتهم أن تجتاحها مرة أو مرات . . انها بلد غير ذى زرع ، حبيس جبال وشعاب ، يستجدى الحيا أن يصيبه لمما حتى يبتل أوام أرضه فتنبت . فاذا أقلعت سماؤه انقطع مأؤه وراح نهبا للجذب وأن يسر على أهله الحال احتملوا من سلمهم القليلة الى الجيرة من البلدان فساوموا وباعوا ثم عادوا ببعض ما ينفعهم وهو الكفاف أو ما لا يدانى الكفاف .

كان هذا حال البلدة الحرام في تلك الايام ، بينما على تخوم الجزيرة امصار اوسع لها في الرزق وسهل عليها العيش . ولم يكن العسير على قوافل مكة أن تسير الى الشام أو اليمن أو سواهما فتبيع وتبتاع وتصيب من الخير ما يستطاع . ورأى هاشم بثاقب نظره أن وقوع بلدته على الطريق بين شمال الجزيرة وجنوبها ، يهيء لها مكانة مرموقة ، فلو جعل منها مجازا لتجارة الشام واليمن كلاهما الى الأخرى لأصبحت سوقا تجارية لا تدانيها بلدة عربية في الرواج .

ولهذا شد رحاله الى الشام فدخل على عاهلها يعرض ان يتبادل البلدان تجارتيهما ، وهو الضامن الا تعدو اعراب الطريق على قوافلهما المزجاة . وكان لهاشم عند قيصر الروم منزلة يسرت له امره عند الحاكم ، فأقر عرضه ، وعقد واياه حلفا تجاريا . وعاد سيد قريش راضيا من الشمال ليتبع رحلته هذه بأخرى الى الجنوب ، ويعاقد اقبال اليمن على مثل ما تم من معاقدته هرقل الشام .

فلما اينع له سعيه واثمر . رأى ان يزيد قومه خيرا ، فأركب البحر أخاه المطلب ، رسولا منه الى نجاشي الحبشة ، ليربط بين البلدين بحلف تجارى آخر .

وراح اهل مكة بعد هذه المعاهدات يختلفون بسلعهم وسلع تلك البلدان الى الشمال والجنوب في الصيف والشتاء . واصبحت مكة سوقا تجارية عامرة ، يزيد ناسها على الأيام غنى وثروة ، بما اضفت عليهم رحلتا الايلاف .

٥

في احدى رحلاته قافلا الى مكة ، نزل أمية بعيره على ماء في الطريق يستقى ويستريح . وكان متكرما لا يمسك كفه سعيًا من وراء نباهة الذكر وحسن الاحدوثة ، فما استقر به ركبته حتى نحر واطعم وتفضل على اهل الماء بما اطلق السنتهم بمستفيض الشاء .

وجلس الرجل يسمر بين صحبه ، وقد التف بهم أصحاب الدارة يذكرون صنيعه فيزهي بمدحهم ويود في خاطره لو حضره عمه فراى بعينيه ما لابن عبد شمس من مكانة في كلا الصحاب والأغراب ، رفعته الى شأوها كف ندية ، لعل بسطتها - فيما ذهبت اليه نفسه - لا تقل عن كف عمرو وان جرت بذكر هذه انهار السطور ووعت جودها البطون والصدور .

وأحب أعرابي من القوم ان يجزى أمية عن فضله حمدا ، فهداه خياله الى التزام أسلوب من الحديث فيه مسحة من وقار الكاهن وقراسة الملهم . قال الأعرابي وهو يتفرس في أمية هنية :

« فيك من أجواد العرب والله لسمات » .
فابتسم له هذا يسأل :
« فمن أجوادها ؟ » .
« قريش » .
« فمن خير قريش ؟ » .
« أصحاب البطاح ، جيرة الحرم ، منابع الكرم » .
فازدهى أمية الفخر وسره أن يطول بينه وبين الأعرابي الحديث ،
وقال مؤمنا :
« أصبت . أصبت » .
« فمن أيها ؟ » .
« من قصي » .
« صاحب البيت واللواء ؟ » .
« وثلاث آخر » .
« فمن أي ولده ؟ » .
« من عبد مناف » .
« أعفهم لسانا ، وأعلاهم بيانا ، وأقواهم جنانا » .
« وكان هذا وغيره للشيخ » .
« فأنت اذن أوسط قريش دارا ، وأعزها جارا ، وأذكاهم نارا :
هاشم وخلالك دم ! » .
فكأنما قد لسعت أمية نار !.. هب واقفا من مكانه يحاول جهده
أن يستر ما به ويدارى غيظه ، ثم سارع على عجل الى العير ، يلام
الركب للعودة ، وهو يهمس من بين أسنانه :
« تعس أمه !.. أخطأ الاحسان وأصاب الاساءة ! » .



ثم استحث عيره ، فلما أقبلت به على مكة كان قد عاوده ما ذهب
عنه الى حين من نفسه على هاشم وعظم حسنه اياه . فما تريت
الا بقدر أن حط على الأباغر حملها ثم راح يمنح يمين وشمال . وتلفت
الناس مأخوذين لهذا الكرم الذي جاوز المعهود في ابن عبد شمس

وعهدهم به العطاء بحساب . ولكنه بادرهم من لدنه بالجواب حتى انبرى يفخر أو يدس بين المجالس من ذويه من يترنم بسماحته التي يحسبها تجب ما قبلها من سماحة الأولين . ثم زاد انسياقه لهواه ، فمضى يفاخر عمه ولا يثنيه عن هذا حق قرابة ، ولا وقار سن ، كأنما الجواد من كرمته كفه ، وان خست نفسه . وما كان لعربي أن يقطع الا لولا أن تكون موجدته قد بلغت به ابعاد مدى واقصاه .

وراح هذا الفخر يفعل فعله في نفوس أهل البيت ومن انحاز اليهما من أحلاف واتباع . واستمرت ناره واحتدم أواره . أما الفتية من آل عبد شمس فقد أغرقوا فيه ، وانحرفت بهم الألسن حتى جاوزت المفروض من توقير أخى أبيهم وسيد آلهم والقوم اجمعين . وأما هاشم فظل كعهده الكريم نفسا . هان عنده ما صنعوا فلم يلق الى مهاتراتهم بالا . وأما الناس - وهم يعرفون من أمر الرجلين ما يعرفون - فقد عجبوا لقزم حاول أن يفرع ويستطيع على المارد الجبار طولاً فتناولوه بالدعابة والتندر حتى امتلأت بحديثه المسامر .

واغضبه هذا أشد الغضب ، وأعماه الحنق حتى مشى الى عمه يدعو ان يتنافرا ويقيما بينهما من يحكم لايهما انتهى اليه الجود . وأغضى الشيخ عن غضبة الفلام ، واتسع لسخفه حلمه فما زاد هذا أمية الا زهوا وتصعير خد . وأشفق آل هاشم ومن تابعهم أن يسرى في العرب اغضاء سيدهم فيفهمه البعض كأنه احجام ويظن الجاهلون الظنون به ، فألحوا وتمادوا في إلحاحهم على هاشم ليضع سفيهه عبد شمس عند حد محدود .

وما كان الناس اجمعين بحاجة الى من يرشدهم الى الأعلى بين الرجلين وان أصر أمية على أن يقف امام عمه في ميدان مفاضلة وترجيح . وبحسبهم ان خبروا الأول فراوا فيه خلقا هو صورة خلقه ، بما اجتمع له من صفات لا تتصل بالحسن والوسامة ، وعرفوا الثانى مثلاً لما يمكن أن تسمو اليه طبائع الانسان .

أصر أمية على منافرة عمه ، وبات لا يسكت له لسان ولا تنقطع مفاخرة ولا مباهاة . ولا يلقى رجلاً من قوم الا صور اغضاء هاشم وتعففه في صورة النكوص خوف الخذلان ، فلما لج وأبى الا ركوب شططه ، دعاه عمه ذات ليلة فقال له ناصحاً معاتباً :

« يا ابن أخى ، ان لى سسنا ، وان لى عليك حقا ، وقد بلغنى ما أحب أن أدفعه عنك ، فاتق الله في قالتك عنى .. » .

فلم تعطفه رقة الحديث بل قال ينطقه صلفه :
« ما تكلمت الا حقا ! » .

فابتسم الرجل الحليم وأجابه :

« انما شرفي شرفك ، وان تمسه لا تعز » .

« تعزنى كفى هذه ، وقد والله فعلت ! » .

ولوح بيده كأنما ينتهى اليها الجود ، فسارع هاشم يقول له :

« على قدرها يابنى ! » .

« وانها لخير الاكف » .

« في بنى ابيك ! » .

فما وسع ابن عبد شمس امام لسع السخرية الا ان يغضب
ويصيح :

« وفي عبدمناف ، فنافرنى » .

قال له الشيخ بهدوء :

« افعل » .

« فاختر حكما » .

« اختر لى ولك ، وانى لراض » .

وكذلك انتهى الأمر بين الرجلين الى الاحتكام ، وسارا ، القمىء

الضئيل ينفضه كبره ويكاد من زهوه الا تثبت تحت قدميه الأرض ،
والكريم المديد يملأه - الى جانب الثقة بنفسه - رثاء لهذا المكابر
العنيد .

وقال سيد قریش ناصحا لابن أخيه وقد أوفيا على الحكم :

« يا ابن أخى ، انك تابى الا المضى لما استبطنت ، وانى والله

ما دعوت وما رضيت ، ولكننى لا آخذك بما قلت ، فان شئت ان
ترجع .. » .

فقاطعه غير متريث :

« ما لهذا اتيت » .

« فشانك . وانى اذن انافرك على ثلاث » .

« فقل » .

« أنافرك على خمسين من الابل سود الحديق » .

« رضيت » .

« وأنافرك على الا يأخذها احدنا بل تذبح ببطن مكة ويخلى بينها

وبين الناس » .

« وهذه » .

« وأنافرك على ان تخرج عنا عشر سنين ، لا تراك البلدة الحرام

ولا تراها ان نصرت عليك » .

فلاح كأنما قد حال لون امية وغاض من وجهه معين الدم . هذا

ما لم يدر له مطلقا في بال وما لم يحسب التحدى يصل الى مداه ؛

ولكنه امعن في الاساءة فحق عليه ان يجرع كأسه .

وقال هاشم بصوت رتيب لم تخف من نبراته رنة تهكم :

« فان احببت فشأنك ، وان احببت ان ترجع عما دفعتنى اليه

فانى والله لا آخذك بما قلت .. » .

فيالها من دعوة كريمة الى الاقرار بالهزيمة !..

واجاب امية وقد سد امامه طريق النكوص :

« بل اقبل » .

وما اسرع ان خسر بهذا القبول ، فقد حكم عليه واصابه الخذلان .

وخسر في التوايله الخمسين ، سود الحديق ، ثم رآها تنحدر امام

عينيه ببطن مكة ويتغذاها الناس وهو يهيم نفسه للرحيل .

وخسر الفخر الذى طالما استطار به وامضى السنين الطويلات في

رفع ذراه .

ثم خرج بعد هذا خافض الراس ، مقهورا الى منفاه ، وفي قلبه

يعتمل الحقد على عمه ريفور ، وخلف مكة خلفه تتحدث بما كان من

خزيه ويسير منها نبؤه مع الركبان .

وحط رحاله بالشام ففيها من قبل كان اتجاره وفيها من بعد

قامت دولة عريضة الجاه والسلطان من بنيه . وكان مثابرا دعوبا ،

فلم ينس لحظة واحدة مطعمه السالف ، بل جعل شغله ان يصطنع

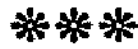
ما عسى ان يعود به فيفاخر هاشما ويبرز عليه ثم يحتلبه ذلك الشرف

المرموق . وفي حساب امية كان الماس سلمه الى الغاية فيه يتألف

اقلوب الناس ما عرفت كفه الانفاق . وان امامه ما هنا في هذا البلد

لعشر سنوات طويلات أحر به أن يجمع خلالها ثروة ترفعه فوق هام قريش والعرب أجمعين .

وهكذا سارت به الأيام في دار غربة ما لبثت أن غدت دار صحبة ، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذنه . وكلما تقلص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا وذلك زاد حفيظة ومر حقد على ذلك الوائر القريب البعيد ..



ثم حسم الموت ما أثارتته الحياة بين الرجلين من نزاع ، فقد مضى هاشم لسبيله ، على أعناق قومه ، الى منزل في الثرى نزله قبله أبوه ونزله جده ، وأصبح مثلهما على أفواه الناس حديثا .

وعض أمية غضبا على ناجذيه والبريد يحمل اليه مع خبر وفاة هذا العم الكريم المبعوض نبأ تولى عمه المطلب الأمر من بعده ، وعادت ذاكرته الى موقف هذا الوارث الجديد يوم احتلب بنو عبد مناف رفادة الحاج والسقاية من بنى عبد الدار ، وراحوا يتشاورون فيمن هو أولى بها فيهم . ذكر أمية هذا وذكر خذلان أبيه ذلك المساء لأن المطلب أشار بأن تكون لهاشم ، فما استطاع الا أن يمتلكه الحق ويقول: « المطلب ! رد عمرو عليه شطره ! » .

وقطع من بعد شوطه في الدنيا ثم طوته الأرض . ولكن الأيام لم تطو معه الحقد لأن جذوره كانت قد امتدت الى القاع وأثمر تراثا من الأضغان في قلوب بنى هذا الرجل على بنى خاذل أبيهم وجدهم أمر خذلان . فاذا دار الزمن وخلف شيبة بن هاشم عمه على أمر أبيه ، فلقد أوشك اذن أن تسطع من سلالته شمس تضيء العالم ، ويعم نورها القلوب قبل الأبصار ، وتأنف حولها الأرواح رويدا رويدا الا أرواح أولئك الحاسدين الذين أبى حقدهم الا التالب على نورها يريدون أن يطفئوه .

مكة أصبحت لا تستطيع صمتا .. في كل ناحية جمع لعبت في
 حلوقهم الألسن فساد الهمس ثم علا كلاما . كل كلمة تتحدث عن
 عبد المطلب أو تطوف حوله وحول نذره . وقد كان القوم بداوا
 أحاديثهم عابثين أو متندررين بشيخ قريش حتى راوا العزم في وجهه
 فانقلب تندرهم جدا يغلب عليه الخشية والاشفاق . وبحسبهم أن
 راوه يسوق أمامه أحب إليه إلى الحرم وقد أمسكه بيد وأمسك
 بالآخرى نصلا ، ولم يبق على إيفاء نذره وتحقيق ما وعد به ربه إلا أن
 تمر السكين على رقبة الغلام .

وتألب الناس من كل فج . وتهاتف الصبية ، واستنكر الرجال ،
 وصاحت النساء ، ولكن عبد المطلب أبى إلا المضي بشأنه ساكن
 القسمات طاويا في قلبه أساه . إلا لو أن عبد الله عصى أو عارض لوجد
 الشيخ « مشيئة » قد توقفه أمام نذره ! . ولكن الغلام كان راضيا ،
 طائعا ، شديد الرضوخ لينا في كف أبيه كالطين لو أحب أن يحيله
 كيفما شاء ما استعصى . وكان هذا الرضا اقرارا منه بحق عبد المطلب
 عليه ، ورغبة لا يشوبها طيف شك في أن يصل ما بين أبيه وبين ربه
 ولو كان هذا بوجأ عنقه .

ها هي ذى قصة تتكرر ، أعاد فيها التاريخ نفسه ، ونشر من
 صحائفه صحيفة مطوية سطرها الماضي ثم كررها الحاضر كأنما قد دبت
 الحياة ثانية في أبطال الغابر .

يتقدم عبد المطلب إلى أحب ولده وأقربهم إلى قلبه فيقول :

« يا عبد الله ، انى نذرت لو استحيى رب هذا البيت لى عشرة من
 ولدى لأذبحن أحدهم له في بيته .. وانتك انت يا بنى نذرى » .

فلا يزيد الفتى على أن يقول :

« يا أبت أفعل ما ترى ولن تجدنى إلا طائعا صابرا » .

فكانما هذه كلمات اسماعيل عادت تتردد في أجواء مكة لأبيه
 إبراهيم بعد هذه الحقب المتلاحقة من السنين .

وكانه تصنيف من القدر أن يعيد الصورة على هيئتها الأولى في

نفس البيت بين ولد وابيه كلاهما حفيد لبانى البيت وابنه الذى فداه الله .

ولكن الذى فدا اسماعيل وقد همت به السكين شاء ثانية أن ينقذ سليل بيته الطاهر الكريم على نحو آخر من الفداء . . .
مشى الى عبد المطلب أشراف قومه ، ومشى اليه آله ، ومشى اليه أخوال ابنه من بنى النجار يعرضون أن يدع الفتى حتى لا يكون ذبح الأبناء من بعده سنة في العرب ، ولآلهته بعد هذا ما ترضاه من فداء .
وتردد الشيخ حتى أفتاه كهان الدين بصحة ما يطلبون .
ورمى بالقداح على فتاه وعلى عشر من الإبل هى دية النفس كما تواضع عليه أهل تلك الأيام .

وخرج قدح عبد الله فضاعف الدية عسى أن يرضى ربه . . ثم ظل يضاعف الإبل مرة فمرات حتى بلغت المائة فبرز قدحها دون قدح الغلام .

ولكن الشيخ لم يقطع بصحة الفداء ولا برضاء ربه حتى رمى ثلاث مرات استوثق بعدها من نجاة عبد الله فنحر الإبل ببطن مكة وترك لحمها لقي للناس أو لوحش السماء .

وأكرم الله من بعد ذكرى عبد الله فسن الإسلام دية الإنسان مائة بعد أن كانت عشرة .

وعاد عبد الله بين أخوته الى بيته معافى . لأن الله أراد أن يستأخره لأمر عظيم .



أما الناس فقد أعظموا عبد المطلب غاية الأعظام اذ خبروا فيه تألها لا يخسر ميزاته ، وإن كان حبه الولد جاء في كفة أمام حبه دينه .
وقديما رأوا فيه من هذا التأله علامات سمت بها روحه على مشيلاتها وشفت كأنها ماء الصخور صفاء ورقة .

كان الرجل ذا ورع وتقية ، يابى الدنية ويعال الصغار ، حتى لقد كاد أن ينسلخ بعذب صفاته مما عرف من خلال قومه الموغلين في الأنام .
وكان يركب نفسه دائما بالزهد ، ويروضها على ما لا تحتمله الأنفس سواها ، استجابة منه لنزعة فيها ، لا تميل به وفرقة المال ولا صحبة

الضلال . ولقد طالما ضمته المسامر فأغرق السمار في عبثهم فما انحاز اليهم ، وفي خمرهم فما ذاقها شفتاه . وفشا الخنا فعزف عنه تعففا ، وذاع الفجور فتحصن . . وبقي القوى - وهو الأقوى - فأمسك كرما ، ثم ذهب يتلمس السبيل الى ضعيف يرعاه ويأخذ له ؛ أو جبار يقمعه ويأخذ منه ؛ وهو بعد هذا كله أحنى على الناس منهم على أنفسهم ، يسير فيهم سيرة هاشم أبيه حتى لم تجف على أرض مكة دماء الذبائح التي كان ينحرها طعاما للجائع الفقير ، ويحتمل منها الى الجبال ماكلا للوحش وجارح الطيور .

وأما عبد المطلب فان روعه سكن ثابت نفسه وهو يرى رب البيت قد أحله من نذره وأبقى عليه أحب بنيه .
وأسرع بعد قليل الى داره يستقبل فتاه ، فلما لقيه شامت في قلبه الفرحة حتى أضاء محياه ، وقال :
« يا بني تهياً فانا نرحل » .
« الليلة ؟ » .

« الليلة . وتخفف ، فلن يطول بقاء » .

وترك الفتى تهياً ، وراح وهو ينعم بحلم جميل طالما رقص في أخيلته .

ان كان ربه قد أبقى له عبد الله فلامر يضمه أبقاه ، ولخير . وان عبد المطلب مع صفاء روحه صفاء يشفى بها على مراتب الالهام لاتستطيع بصيرته ان تنفذ الى الغيب المكنون . ولكن نفسه ما فتئت تحدثه عن خير قريب مذ عاد من رحلة اليمن بعد سماعه نبوءة كاهن حمير . .

كان هذا ذات يوم غير بعيد وقد نزل عبد المطلب على صاحب له عظيم من عظماء حمير . وان مجلسه لما يستو به حتى اقتحم عليهما المكان غريب سدد خطاه الى سيد قریش كأنما كان مسوقا نحوه بقوة دافعة . وجلس عبد المطلب يرقب الرجل ساكنا ، فيراه يطيل التأمل فيه ، والتطلع الى وجهه ولس شعره وملامح محياه ، حتى فاض عجبه وضاق ذرعه ، فصاح برب البيت :

« ما للشيخ المفتون ولى ؟ » .

وأجاب المضيف في هدوء وعلى ثغره ابتسامة :
« هذا كاهن من اليمن قرأ كتب الأوائل وله علم ، وما احسب
الا له شأن واياك .. » .

فانفثا غضبه وقال ضاحكا :
« سأنظر .. » .

ثم التفت الى الكاهن يسأله :
« فما ترى يا أخا حمير مما حدثتك عنى كتبك ؟ » .

قال الرجل بصوت أجوف عميق ، ولا زالت عينه على جبين
عبد المطلب :

« أرى .. ملكا » .

فرد صاحب الدار :

« ما هذا علينا بجديد فانه سيد قومه » .

« .. وأرى نبوة » .

« نبوة ؟ » .

فهز رأسه مؤمنا وهو يتم لسيد قريش :

« نعم . وانها لفيك أو في أحد بنيك » .

« فأيهم يا رجل ؟ » .

« في صاحب الغرة ، أو في المصهر الى زهرة » .

وخلف لهما المكان .

وكانت لعبد المطلب في رأسه شبيبة ، دعى بها في طفولته وكانت
علما عليه ، بيضاء في منبت شعره من فرق الجبهة بين سواد شعره ،
لعل الكاهن عناها بقوله . فان كانت الاولى فما عدا شيخ حمير
ذو العلم ما تحدث به الناس لفرط ما عرفوا من تقوى سيد بنى
عبد مناف حتى كانوا دائما يقولون :

« لو كان نبي على عهد عبد المطلب لكان نبي العرب » .

وان كانت الأخرى فما أقرب اليه من يشرب ، بلدة أمه ، ولن تعجز
الابل أن تدركها فيصهر الى زهرة نفسه ، ولأحب ولده حتى لا يفوت
أحدهما هذا الخير .

ولهذا سرى بهما الركب على درب يشرب .

ولم يطل بهما هناك بقاء ، ثم عادا ولعبد الله آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، ولأبيه ابنة عمها هالة بنت وهيب .
ثم دار الزمن ينثر على الناس ما في وفاضه . وحملت هالة وحملت آمنة . ووضعت كلاهما غلاما ذكرا .

أما عبد المطلب فقد تلقفت كفاه وليده حمزة . وأما عبد الله فقد شاء له ربه أن يطويه مثواه وطفله الحبيب جنين في بطن أمه لما يكتمل نموه فلم تشهد طلعتة مطلقا عيناه .

ولو أنه امتد به أجله أو استأخر شهورا قليلة لقرت عينه بغلام لم تمتلئ أعين البشر من قبل ، ولن تنعم من بعد بمثله ملاحه وحسن سميت وطلاقة محيا .

ولو أنه استأخر أعواما لشهده فتى تلتئم قبائل العرب برأيه الرجيع وهي تمسك بأطراف برده بعد أن كادت تمزقها آراء شيوخها وساداتها .
ثم لو استأخر بعد هذا قليلا لعرف أى فتى في الرجال انجب ، ولطار به فخره كل ناحية وهو يرى ولده - بعد أن ضم العرب - يلم الدنيا حوله من أطرافها كثوب ، ويحتويها في كفه ، لا بحد السيف وشفرة السنان ، وإنما بقوة اليقين وسطوة الإيمان .

٧

ضجت العرب لو كان ينفع الضجيج أصحابه ، ثم جزعت ، ثم اجتمعت في نديها تتحدث وتقلب بينها الأمر . وما عسى يفيد الحديث في خطب واقع ما له من دافع ؟ . هذه الحبشة أقبلت من اليمن ، بعد إذ أذلت عزتها تنتشر جنودها كالجراد وهي تيمم بلدة البيت العتيق .
إلا لو أنها أقبلت غازية لهان على قریش الكرب ولشمرت للحرب سراعا . ولكن أبرهة إنما جاء قاصدا المسجد يريد أن يسوى بناءه بالأرض هدمًا ، بعد أن فشل عن تحويل وجوه العرب عنه إلى معبده الجديد : القليس .
وانتظر القوم على مثل الجمر عودة عبد المطلب وفي قلوبهم تتراوح الآمال . لقد ذهب إلى لقاء الغازي العاتى عسى يستطيع بحسن تدبيره أن يصلحه على ما يبقى لهم بيت إبراهيم ، وجلسوا يتهامون في صوت خفيض وهم يحدسون . وإذا سيد قریش قد طلع عليهم وعلى وجهه عبسة توشك أن تنطق بأن الشر لا معدى عنه ولا مناص . والقوا إليه

الاسماع والابصار وهو يشق طريقه في الجمع ، ساكتا لا ينبس حتى
اعداهم صمته ، فجمدت على أفواههم كلمات هموا أن يستنبثوه بها
ما تم في اللقاء . واتخذ بينهم مجلسه ، ووقفوا حوله متلهفين للانصات
أو الكلام بعد أن ران السكون على النفوس ، وثقل عليها كالصخر .
وقال هو بعد قليل ، بصوت فيه رهبة وحزن :

« يا قوم . ما أرى إلا أن تخرجوا عن مكة الى الشعاب » .

فأجفلوا وانطلقت عيونهم تدور بينهم ، ذهبت ريحهم أذن وقضى
الأمر وما هي إلا ساعات حتى يجدوا الحبشة في ديارهم مصبحهم .
ولكن الحمية ، أو أرادة الخلاف ، أخذت حرب بن أمية فصاح :
« فالحرب والله أجدى يا أبا الحارث » .

قال عبد المطلب بنبرات هادئة لم تغب عنها السخرية والتهكم :
« قول هين وهلك أهون ! » .

وقام عنهم . فاذا بهم يلاحقونه ويلتفون به كأنما كان لهم صخرة
النجاة وكان حريا بهم أن ينوبوا اليه بعد إذ خبروه زمانا فعرفوه صادق
النظرة نفاذها الى عقبى الأمور كمن يتحدث ويصدر في أعماله عن وحى .
أما وقد قال قوله فلم يبق لهم إلا احدى اثنتين : إما طاعة وإما فناء .
وقال لهم ورجله خارج الباب :

« ألا انى لكم نذير من كربة يوم عظيم ، فما لكم بصاحب الفيل
طاقة » .

فسأله رجل منهم :

« فما قلت له وما قال لك ؟ » .

« ما قلت ولا قال ؛ ولكنى طلبت ابلا لى أصابها في مرعاها ،
فأعطانيها » .

فكأنما لمس عصب الغضب في نفوسهم ، وتصايح الكثيرون ولغظوا ،
وانبرى له من بينهم حرب يسخر .

« تمنع الأبل وتدع الحرم ؟ .. يا أبا الحارث ما كنت رشيدا ! .. » .

« أما والله لم يفتنى الرشيد .. أبلى أنا ربها ، أمنعها ، وقد فعلت .

أما البيت فله ربه يمنعه ! » .

واستمع القوم له ، وعملوا بما أشار به فما لبثت جموعهم أن خرجت الى شعاب مكة تمتنع فيها من الغزاة ، واخرج عبد المطلب آله وماله وساروا جميعا الى الجبال .

وخوة البلدة ولكن شيخها لم يدعها حتى جاس خلالها يستحث المتخلفين على أن يبرحوها . فلما لم يبق بها ساكن اعتلى شعبا اشرف منه على نواحيها وراح يتطلع الى يمين ويسار ، ويمعن النظر فيما يبدو امامه وفي همه ان يعرف من أى فج سوف يدهمها عدوها . ولم تغض للرجل عين طوال ليلته ، ولم تسكن حركته لحظة . ثم بدا في أفقها الصباح ينشر بياضه ومعه انتشر على مدى البصر سواد يتحرك ويقترب ويبدأ حتى كاد أن يبلغ أطراف مكة . وسارع عبد المطلب فنزل يهرول ، وانحدر كالسيل منطلقا صوب البلدة الى البيت العتيق يمسك حلقة بابه فيقرعها بقوة وهو يرفع الى السماء عينين فيهما دموع يسيل صيبها على وجنتيه ويبل لحيته ، والرجل يردد على دوى الدقات .

لا هم ، ان العبد يمنع حله ، فامنع حلالك
لا يفلن صليبهم ومحالهم ، غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا .. فأمر ما بدالك !

ثم عاد مهرولا كما جاء الى مكانه من الشعب وقد كادت أن تطأ طليعة الجيش أطراف ثوبه .

ووقف الناس ، من عل ، ينظرون معقولى الالسن . لقد نصحهم حقا سيدهم فما لأحد من العرب بمثل هذا الجيش قبل ، وما منهم واحد رأى فيلا ، قبل يومه هذا ، يجيش ويتخذ عدة حرب . وهذه الحبشة قد جيشت فيلة ضخاما ، اقبلت تدب امام الرجال فتهتز لسيرها الأرض ، وعلى رأسها دابة منها هى اعظمها جثة وأنفسها ثوبا ، كانت مركبا لاميرهم أبرهة الأشرم .

ثم وقف الناس ، من عل ، ينظرون ثانية معقولى الالسن . ما للفيلة تحجم ولا تقدم ؟ وما للجند يتهافتون وتكل تحتهم الأرض فيسقطون على الأديم صرعى بغير سيف ولا مرماة ؟ وما للجيش كله

ينتفضض بعضه على بعض ويسوده هرج لا يعرف مأناه ؟ في مثل الملح امتلات الأجواء بصرخات الجرحى المفزوعين والأرض بأشلاء القتلى المجندلين من جيش الفزاة ، وفي مثل الملح التوى الأمر على أجناد الحبشة وقادتهم كما التوت اعنة افراسها وفيلتها حتى ارتدت مولية بينهم تطأهم سنايبها وتحصدهم حصدا .

وأمسك أهل مكة أنفاسهم تهيبا . وقفت شعورهم رهبة بادية الأمر ؛ ولكنهم لم يلبثوا حتى تصايحوا فرحين اذ منع الله بيته ، ومنع بلدته . وأرسل من لدنه جنودا لم يتبينوا منها الا كمثل الحصى يأتى على جناح الريح من ناحية البحر ، ولا تصيب حصاة منه رجلا الا كفاته هامدا أو نفذت من بعض بدنه ، ثم تركته يحشرج . وتسابق القوم من بعد الى عبد المطلب يلتفون به ويقبلونه . وقد تقدمهم اليه حرب بن أمية ينطق بما ينطقون ويقول :

« صدقت والله يا أبا الحارث فقد منع الله بيته .. »

وقد صدق أبو الحارث حقا وتحقق في هذه المرة أيضا حدسه الموفي على الإلهام ، فعاد الى مكة جأشها وبقي بيتها في الأوابد ، منعه ربه أن تمتد اليه يد بسوء ليكون في قابل الأيام مطاف خيرته من أهل الإيمان ، وان الذين أقاموا بالشعاب خلال ليلة الخطب تلك عساهم لم يلقوا الأبصار الى وليد في ثانی شهوره كان بين جموعهم المستعصمة بالجبال . ولو رأوه لحسبوه وليدا كأي وليد ، ولكنهم لو استطاعوا قراءة الغيب لعرفوا أن وجوده بينهم كان رحمة من عند الله . وان بقاءهم بعيدا عن متناول أكف الأعداء ذلك اليوم المصيب كان اثرا من آثار يمن الصغير . وان ربهم شاء لهم هذا لأنه أراد أن يستأخرهم ليوم معلوم يشب فيه الوليد وينطلق بهداية الله داعيا الى نهج جديد قويم لم يأت بمثله انسان سواه من قديم ، ولن يبعث بمثله أحد غيره ما بقيت الأرض والسموات . حتى اذا رئت اليه الأعين واصاغت الأسماع ، استطاع بقوة قلبه أن يؤلف حوله هؤلاء الأعراب الجفاة ، ويدفعهم في شعاب الأرض يحملون عنه مشاعل رسالة تضيء طرائق الحياة ...

ولئن بلغ ابن هاشم بعد هذا مبلغه من الهيبة في قومه ورفعة الشأن ، فإن نعمته كانت جديرة بحسد الحاسدين . ولن يعجز التاريخ أن يكشف عن حاسد عبد المطلب ما بلغه ، حاقداً على مكانته في الناس ما دامت نواة الحسد له ولآبائه قد نمت دوحة في بنى عمومته حتى فرعت . فكما وقعت البغضاء في الأصول دبت ديدانها في الفروع والأغصان . وللورثة دائماً في النفس . كمثلته في ملامح الأبدان . وما عبد المطلب إلا من هاشم ، وما حرب إلا من أمية وعبد شمس !..

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه . . ان أمية لم يبلغ وطره من عمه ، الذي أخرجه منفاً من مكة ، ولم يبلغ ثأره . ولكنه خلف لبنيه تراثاً من الأحقاد وفع حرباً الى التوسل بالتوافه لمخاصمة عبد المطلب . وكما ذهب أمية يستطيل على هاشم ويستعلى ثم يستنفره أن ينافره ، فكذلك ذهب أيضاً حرب يسير في سبيل أبيه . ولم يكن هذا عن إيمان بعلوه أو ثقة بفضلته ولكنه كان أرضاء لقلبه المفعم بالحقد الموروث . ولكنك لن تجد للمبطل منصفاً في ذى انصاف . ما مشى الرجلان الى نفيل بن عبد العزى يحكمانه بينهما حتى صاح بحرب صيحة المفيظ الغاضب :

« يا أبا عمرو ، أتناقر رجلاً هو أطول منك قامة . وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مذوداً ؟ أما والله أنك لمبطل كما كان أبوك » .

فما استطاع ذاك الحاسد المغلوب إلا أن يقول :

« فدع أبى عنك يا نفيل فإنه ليس بشر من أبيه . . » .

« هيهات أن يقرنا ، أو تقرنا . . »

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

فانتفض حرب مقهوراً، وهو يهمس من بين أسنانه اذ يغادر المكان:

« ان من انتكاث الزمان ان جعلناك حكماً ! » .

كأنما لم يكن من انتكاث الزمان أن يطاول عبد المطلب أو يحسبه ندا !

ومع ذلك فقد كان في هذا الفرع من عبد مناف اجترأ على الحق

حتى لا يدفعهم عن امعانهم في الإبطال دافع . وانهم ليرون دائماً في

باطلهم حقاً وفي حق غيرهم نهياً هم الاحقون باستلابه . ولسوف نراهم

يركبون كل مركب الى اهدافهم ولا يقعدهم عن التماس غاياتهم لوم الناس ، بل سيشهرون السيف ويعقلون الألسن ويمضون قدما الى زمان غاب منصفه وكثر مرجفه فنصبوا فيه حكما هم أعلم بحكمه لهم قبل نطقه به . ولن يكون هذا رجلا كنفيل وانما رجالا او صور رجال جبلوا هم طينتهم كما شاءت لهم أهواء النفوس وصاغوا منهم دولة عاتية بين قرنى الشمس . وحتى تؤذن تلك الفترة سنراهم دائما سباقين الى رى دوحه الحقد التى كانت نواة لتظل مورقة ابدا شائكة ابدا ولتصيب اشواكها حتى ذلك الوليد الذى سطع ضياؤه في الازل قبل خلق السموات ، ولتدمينه وان تقدم اليهم ببرهان الله لأنه لم يكن مثلهم من عبد شمس وانما من هاشم !.

٨

اكانت تلك مكربة أخرى من القدر أثر بها آل هاشم دون غيرهم من بيوتات العرب في الجزيرة فأضاف بها الى مفاخرهم ، أم هي الصدفة وحدها لعبت دورا ؟ . . . في كل ما فات بالدنيا من افرادهم نرى صفحات من الحياة ، تلتهم امام البصائر النعما : رجالهم في الرجال سادة تهوى اليهم الانفس وتستظل من محامدهم بأورف ظل . فيهم الشريف الماجد . والكريم الرائد ، والتقى العابد الى اشواط لا تبلغ غايتها افراس السجايا عند سواهم من خيار الناس . . . ونسائهم في النساء اعلام الصفاء وصحائف النقاء . لم يخض مطلقا في ذكرهن لسان الا بثناء في أيام كان جل نسوتها متهمات مشوبات السير والاعراض بغير تحيز ولا اغراق ، وان في هذا كله لسرا لن تلبث أن تكشف عنه حياة فرد منهم اصطفاه ربه لينحدر من أصلابهم ومنهن فاخترهم جميعا - من أجله - أعفاء مطهرين ، جديرين بانجاب سيد الخلق أجمعين .

ولكن المكربة الجديدة صافت رجلا من بنى هاشم ليس بالموسر فيعزه ماله ، ولا بالنجب فيحمله عياله ، بل كان الى الحاجة أميل منه الى الشراء . لا يملك الا نسبا وطيب خلة ، ولا يستطيع - لو اراد - أن يستطيل على قریش أو يسبقها وفي أيدي الكثيرين منها عدة من عرض

الدنيا ونشبهها ترجح عدته ، ليس يعوز قوما تيسر لديهم المال أن تنسى لهم خفضة النسب أمام الناس ، ما استطاعت أموالهم أن تعطف عليهم النفوس وتملك الحواس .

اجل لقد واجه أبو طالب دنياه فقيرا ، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد افاء عليه من الخير ما يستتعيه . ولم يورثه أيضا سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير . فلئن اقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هي آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذي رجاء .

كان اقدس الأرض عند العرب مكة . وكان اقدس مكة بيتها العتيق . وكان اقدس حرمها هذا الكعبة لا يطوف بها من القوم الا محلق مفتسل طاهر مع ما كانوا فيه من الامعان في الضلال والمباهاة بسوء الخلل . وقد مضت عليهم الأحقاب تتلاحق - مذ ابتناه ابراهيم - وهم لا يعدلون ببيتهم شيئا حتى لينحرزوا ان يذكروه بغير اعظام في ذات انفسهم سرا ومناجاة وهم يأمنون على اذهانهم السميع الرقيب . ولو احبوا لأمر من أمورهم نفاذا لأبرموه فيه أو بجوار استار كعبته ، كأنما يشهدونها على خلوص النية وصدق العزم على المضي في انفاذه لأنهم قد اكسبوه من قداسة ذلك المكان . فكل ما جاور الكعبة مقدس أو حرام أو هو موقف على غاية التقديس والاعظام .

كذلك كان الشأن لدى العرب لا فرق فيهم بين خاصة ودهماء . وانهم جميعا ليحملون الأمور على معانيها قبل مبانيتها ، وعلى جواهرها قبل مظاهرها ، فاذا تم لأبى طالب الفقير المعسر بعض أمره في جوار كعبة الحرم ، فان أمره هذا لجليل في عيون القوم لأنه اكتسب ابلغ شرف بأشرف جوار في اقدس دار ، فكيف لو تم له أمره ذاك بغير سابق ترتيب منه ، بل بصدقة هي عند أولئك الناس منة من الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل ؟

تلك ليلة فذة في الليالى ، أضاء نجمها على الدنيا مرة ثم لم يقدر بعدها لضوئه أن يبزغ نائية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود . ولكن ضياء أشد لمعاناً من نور النجم توهج ، ثم سطع ، ثم فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفافة الاشرار .. سيرة ان قاتها ان تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر ، بل اقل القليل ، بل الأندر منه . ولو انك استطعت ان تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك ، وسبحت عائدا الى الماضى لرأيت ابنة أسد - فاطمة - نجول بالبيت الحرام تلتمس البركة ، لأنها سيدة تجمعت فيها مزايا آلهة الكرام وامناً - كمنلهم - قلبها طهراً . ثم لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسحة بأستارها آونة مفيلتها اخرى . ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها اعياء تكاد أن تنوء به ، وتنكر هى - بادىء الامر - ما تحسه ، ثم تمضى متجلدة تستحث نفسها وتستنهضها . ولكنها رغم هذا لا تقوى ، ولا تستطيع أن تقوم عودها . واذا هى تتشبث اصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد اخذت تحس شيئاً غاب عن ذهنها ، وتقف مجهودة لا يستفر بها موطئ القدمين ، كمن على طرف كنيب رخو من الرمال . ونجيل فما حولها عينا حائرة لعلها تبصر زوجها ابا طالب يسمى هنا أو هناك فتجد لديه عوناً على ما تلقى ، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه ..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هى ان تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من اناس كان دأبهم الاجتماع في أروقة البيت وفي امنائه فاذا رأيتها قد انحازت ناحية ، ودلفت الى أستار الكعبة فنوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت . وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت ان تتخذ من الستر المقدس رداء . واسمع بعد هذا حسياساً خافتاً يأتيك من لدنها . وانينا يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال ، وصرخات مكتومة تكاد ان نضلها الاذن كأنها تأتى من مهبوى سحيق بعيد القرار . ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات ، لها غير جرسها وغير رنتها ، رقيقة ، رنانة في غير حدة ، كأنها شدة طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر اسفر أو أوشك على اسفار . وقد تأخذك العجب ، وتملكك الدهشة ، ولكنه عجب قصير أجله ، ودهشة

لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك ، واهنة ،
واشد ضعفا مما رأيتها من قبل ، كسا وجهها الشحوب ومشت في
اوصالها رجفة الاعياء ، وقد احتملت - مدثرا بستر الكعبة الشريف -
وليدها بين صدرها وكفيها .

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده
وليد اكرمه بها الله واكرم امه واباه ، فكان تكريما لفرعى هاشم الذى
انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت
الكريم .

واقبل القوم - حين انتبهوا - يستبقون الى السيدة ، يعاونونها :
وياخذون بيدها ، ويملاون الأبصار بطلمة ذاك الذى كان بيت الله
مولده ، وستر الكعبة نوبه ، كأنما أوسع له في الشرف باجتماعه في
كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت
انت لراوه أيضا يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت
فيلقاه في بيت الله يهم أن يقوم بالصلاة ...

أما فاطمة فقد أحبت أن تحي في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه
وان لم تدعه بلفظه ، وقالت لزوجها وهى تحاوره :
« هو حيدرة » .

وأما أبو طالب فقد كان أكثر توفيقا حين اختار . رأى وليده قد
علا شرفا بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :
« بل على » .

وبدأت عند هذا حياة الرجل الذى سائر اخطر الاحداث في هذه
الدنيا ، وعاشر اطهر الخلق وسيد النبيين ، واحتمل نصيبه من عبء
كبير القاه الله على مختاره الأمين ، الذى خصه بوحيه ورسالته
الالهية لهداية العالم .

وعاش على عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه
القريب المفتدى ، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبي الكريم ، وبين
هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم
قايات الكمال في الفعاليات والخلال ، فلما انطوى بعض أجله ، ومضى
من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب المعقب . وأجل من
أخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

شِرُوق

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ
يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَنُصِّرُوا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

١

الفتى حائر الفكر ، بين كفيه امسك رأسا يحسب فيه من
الخواطر ما يملأ كل هذه الفجاج لو تركها تنثال على رفعة الرمال
المبسوطة أمام ناظريه عن يمين وشمال .

ثم رفع الى السماء بصره . ليته بها يستهدي - هذه الأنجم
الزهر التي يتخذها راكب البید دليلا ... ولكنها بدت خابية .
وحالت الألوان فيها الى مثل الفضة كساها من الترب كساء . فلقد
بدا له نور المشرق كما انفتحت كوة في القبة فوقه واندفع منها
الضياء وئيدا وئيدا نحوه ، تلمع تحت سيله مكة ويفمرها منه غامر
الحياة .

وكان صاحي اللب ، ما انتبه حتى تحولت عينه الى هذا المبنى
المقدس الذي بان له من قريب ، شامخ العمدة ، فسيح الرحبة ، في
أوسطه الحجر الأسود الذي وضعه محمد حيثما وضعه من قبل
جده ابراهيم .

ها هنا كان قديما محراب الله ، فكيف أصبح ليراه محراب
العزى ، أو اللات ، أو ايما أسماء نحلها قومه حجارة لا تنفع ؟ ..
أو لم يصدقه محمد ؟ ألا ان محمدا عنده غير متهم ، شادت بصدقه
العرب جمعاء حتى أصبح « الأمين » عليه علما ، وسرت - كلما سار -
بين القوم همسات اكبار واعجاب ليحسبها الفتى تند عن تاج يزدان
بمفرق ذلك الصادق الحبيب لو جمع أناسه في الزمان ملك مدعم .
ولكن محمدا كان عزوفا ، قام ليله وعاف الرقاد زلفى الى رب جده
باني البيت . وعمل نهاره من أجل صفاره ومن أجل هذا الريب
الذي ضاق به طوق أبي طالب فاحتمله فضله . وانه ليخصف نعله
ويخيط ثوبه بيديه لا يغريه بالدنيا عرض أو مأرب . وانه ليكدح
كدح العامة ولو كان له مندوحة من مال خديجة ، وانه لتمر به
الأيام لا يتزود فيها بتوى تمرات جافة تقيمه وتعينه على القيام
بأمر ربه ... نأى بنفسه عن ترف القوم وخمرهم ولهوهم الى غار

في الجبل اعواما ، صادفا بها عن جهالات قریش وأربابها المقدودة من حجارة سماء الى رب واحد ما له من شريك .

ما كانت دعوة محمد بغريبة عن قلب الفتى ولا بالتى يعاف جرسها سمعه . فانه ، وان يك لم يتجاوز حلمه الا قليلا . قد كان يشمر في قراراته انه غريب في معبد الاصنام ! .. انه لم يول وجهه شطرها مرة ، ولم يتولها بالتقدس كما فعل دووه ، ولم يطف بساحتها ظوفة او الم بهيكلها من قريب او من بعيد . ولم يدرك ان هذا الهاما من الله ام هو جرى في اتباعه مجرى ابن عمه مريه . . . ولعل الثانية ارجح . لانه يذكر ما يأخذ به نفسه بين الفينة والفينة من تقليد محمد حتى لا يصبح من فرط تعلقه به واتخاذة قدوة يصوره اصدق التصوير في الكثير من الفعال والحركات . . يهش ويفرج عن ثناياه ولا يلقي الناس عبوس - تماما كما تضيء البسمات وجه ابن عمه - ويسير على نمط سيره فيتكفا في مشييته وهو يسرع كأنما لا يحده في انصبابه حد . . فلعله اذن ما نأى عن اصنام القوم الا اقتداء منه بهذا الكافل العظيم .

وعاودته في مكانه ذكرى الليلة التي اصبح عليها صباحها الان بما ملك الا ان يبسم متعجبا من شأن نفسه . كيف اباح لفكره ان يرجىء تلبيته دعوة الحق التي اليها دعاه النبي بحجة انه سيشار اباه ؟ .. الا لقد اخطأه التوفيق وضل نهاه وهو الحرى بان يسبق بالاستجابة تلك الدعوة الى عبادة رب ابراهيم .

... كان قد دخل الحجرة كما اعتاد ان يفعل ليانس بجلسة الى ابن عمه بين خديجة الرءوم وفاطمة الصغيرة ، فما راعه وهو يدفع الباب الا ان رآهما يركمان ويسجدان والطفلة تتابعهما بالمحاكاة . وتوسم فيما يأتیان خشوعا ، وتوسم عملا غير مألوف ، فوقف في مكانه لا يبرح . ومضت الى سمعه قراءة ساحرة ، يرتلها محمد بصوت عذب ، ما سمع مثل طلاوتها ، ولا رنتها ، ولا بلاغتها من قبل . واخذته من الكلمات نشوة لفت مشاعره فلم ينتبه الا وكف ابن عمه على كتفه تلمسه لمسا رقيقا وتعيده الى نفسه . وعاد هو من عجة الى الاستفسار يستوضح محمدا ويستزيده مما سمعه . وانست روحه للترتيل . وامتلا قلبه بما فاض به الاى الحكيم من روعة

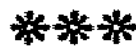
معنى وحسن بيان ، وهو بعد هذا ينتقل مع الآيات الى آفاق جديدة فيها هداية ونور . الا قد صدق محمد حقا . وما كانت هذه الآيات بالتى يستطيعها بشر بل هى من كلام اله .

وابتسم ثانية استحياء اذ تذكر هذا وتذكر ما قاله حين دعاه محمد الى متابعته ونبد عبادة الاحجار الصم الى عبادة واحد قهار ، يسمع ويبصر ولا تدركه الابصار . . . ابتسم استحياء لانه ذكر جوابه وما كان أعجبه من جواب .

قال كما اعتادت ان تقول السنة امثاله من الصغار :

« امهلنى أشاور ابا طالب » .

فابتسم له ابن عمه بسمة حانية كلها عطف ، وربت كتفه راضيا ، ثم تركه عساه ان ينطلق الى أبيه فيتزود منه بالراى قبل ان يفصل في مصير دينه بقرار .



ولكنه لم يغادر البيت وان ترك الحجرة ، ولم يشاور ابا طالب ، وانما قضى ليله كالمحموم ، تحت السماء يقلب الامر في عقله ، اما وقد استبان له الرشد الآن كما بان ضوء الفجر الوليد في أطراف الأفق الادكن ، فان به لشوقا ان يقتحم على محمد حجراته فيطلب منه ان يقبله في الدين الجديد عابدا جديدا .

ونهض على وسار يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى . وأشرف على الحجرة فمنعه حياؤه ان يدخل . ولم يجد بدا ان يصرف عن نفسه الحاح الشوق الى حين ؛ فبرح الدار وضرب هنيهة امامها ثم انثنى الى الدرب فاذا صحبة من فتية قريش تبرز في غبشة الصبح يرونه فيهتف احدهم به :

« حيدرة ! » .

« فلا يطيب له سماع الاسم الذى خلعه عن نفسه من قديم ، ولا يطيب له ايضا ان يعتكر خواطره الصافية حديث . ولكنه لا يستطيع ان يجد منفلتا من الصبية وقد قاربوه وسأله منهم سائل :

« بكرت يا ابن ابي طالب وانه للسعى الى البيت ؟ » .
فيوجز - متبرما - الجواب :
« ما اليه ! » .

« فهل معنا ، ما لم يحبسك حابس ، فانا سنطوف به » .
« لك شأنك دوني » .

وكان صاحبه يعلم انه لن يفور منه الا بهذا الخطاب . فضحك
معاتبا وقال :

« عجباً لك يا ابن ابي طالب ! تضعك أمك في حرم الاصنام » .
فأسرع يقطع حديثه ويقول :

« في حرم ابي ابراهيم ، أما صواحبكم تلك فأكرم عن مراها
وجهي ! » .

وود في تلك اللحظة لو استطاع ان يفتح عيون هؤلاء العمى لبروا
النور الذي أخذت تباشره تبرغ من أفق محمد ، ويحدثهم بهذا
الدين الجديد الذي علم به ليلة الأمس عسى ان يتبعوا الهدى
والصواب . ولكنه أمسك لانه ليس بعد في حل من ان يفشى على ابن
عمه أمره .

وانثنى عن الطريق مخلفا أصحابه لشأنهم ليعود الى الدار . فاذا
محمد بهم ان يبرح . واستقبله النبي الكريم هاشا ، يمد نحوه
ذراعيه ، وفي عينيه من ضياء حنانه فيض ، وتوقف الفتى امامه برهة
أخذه فيها الحسر حتى لا يعرف بأى الكلمات يبدأ الحديث . وترفق
به محمد لا يسأل ولا يتعجل : بل يدعه حتى يجمع شتات ذهنه .

ويقول الفتى وقد هدا جاشه :

« يا ابن عمي ، اني سمعت واجبت . واني اشهد بشهادة الاسلام
ان لا اله الا الله ، وانك لرسوله » .

فأنما كان بهذه الكلمات سحر . ما ان جاوزت شفتيه حتى احس
بذاته خفيفة رقيقة لها لطف النسمة . تكاد تعلو به الى الطباق
وتسرى محلقة في الافاق .

وابتسم له محمد ، ومسح بكفه على راسه وعلى صدره . وخشى
على في هذه الآونة ان يطوف بظن نبيه انما كان اسلامه بمشورة ابيه
فسارع يضيف :

« يا رسول الله ما كنت لأسمع لابي طالب او اشاوره في ديني ،

فقد خلقني الله ولم يشوره في خلقى ! .. اتى هديت يا رسول الله
بك الى ربى فلأعبدنه ابتغاء وجهه ... »

وانبسطت للفتى رقعة الدين الجديد وما كان ليقتصر عنها باعه
وهذا باسطها دائما امامه . ورويت بفضائل الاسلام روحه من نبع
محمد . فما تنفس صبح الا تلمس وجهة النبی ، وما جن ليل الا
دلج خلفه كظله ، وهو في هذا لا يملك الا أن يكون مستخفيا بدينه عن
قومه على سنن صاحبه . ما كره أن يعلم عنه انضواؤه تحت راية
الاسلام وانما خشي أن يذيع عنه ما لم يرد محمد له بعد أن يذيع ...
وكنتم في نفسه أمره وهى جياشة به ، حنانة الى اشهاره عسى أن
يهدى الله به من يعرفه الى مثل ما هداه . ولكنه كان دائما يمسك
عن الحديث كلما أراد اخوانه أن يستخبروه بعض ما شاع من الشائعات
حول محمد ودينه الجديد . واكتفى سنوات ثلاثا طويلات الأيام
والليالى بالألا يكشف عن سره الا لحراء حين يتبع اليه صاحبه في
الأمسيات مع من سار كنهجه من أوائل المسلمين حين يقضون حق
رهم بمنأى عن عيون المنربصين ... حتى أبو طالب نفسه كان بعيدا
ايضا عن ذات نفسه بعد قومه ، لا يعلم عنه الا ما تتلقفه الأسماع وتردده
الشفاه حدسا .

ولكن السر الذى حرص طويلا على كتمانہ آن له أخيرا أن يذيع .
ولم يتوجس على خيفة من هذا بل انشملته البفرحة وطابت به نفسه .
انه كان دائما فخورا بأمه التى تفتح قلبها للدين الجديد تفتح الزهرة
لندى الصباح . فخورا بسبقها بنات جنسها الا واحدة ، الى تلبية
نداء الله ، فضلا عن سبقها نساء بيتها ، حتى صارت الأولى اسلاما في
بيت هاشم . ولكم أحب الفنى هذه السيدة الفضلى ! ... احبها
حين : حب الابن للأم ، ثم حبا بحبها محمدا الذى لم يحجب هو مثله
في الوجود أحدا . ولقد انشرح صدره لاسلامها لانه أمل أن تصيب اباه
منها عدوى الايمان ، وتلبث تلك الفترة من الأعوام لا يفتر أمله ،
ويداعب خياله حلمه الجميل . فلما كر ذات ليلة قافلا من حراء
وصادف اباه على مقربة من الغار ، سره أن يقبل عليه الشيخ مستفسرا
عن سبب وجوده بهذه الناحية التى لا يطرقها الا القليل . . سره هذا

لأنه كان يوقن أن الحديث سيتمخض في النهاية عن تحقيق رجائه المنشود .

قال له أبو طالب :

« يا بني أين كنت وليس لك الشعب بملمب ؟ »
اجاب :

« به يا أبت . »

« وفيم ؟ » .

« أقضى به حق ربي . »

فهر الشيخ متمهلا رأسه وهو بقول :

« أصبت ، لو أصبت ! » .

فرد عليه بحماس :

« نبعته في صواب ، وما عرف الناس عنه إلا حقا » .

« أمحمدا عنيت ؟ » .

كان الرجل قد سرى اليه همس الناس .

وقال على :

« هو يا أبت ، وأنه لرسول الله » .

« فحدثني بما يمشى به عنه الناس . ما هذا الدين الذي اسمع أنه

يدين به ؟ »

« دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله . دين ابينا الخليل

ابراهيم » .

« وما لابن أخى به ؟ » .

« بعثه الله به رسولا الى الخلق كافة » .

فتفرس الشيخ برهة في عيني ولده ، ثم قال

« يا بني أراك اتبعته » .

« آمنت بالله ، وآمنت برسوله ، وصدقت بما جاء به » .

وطاطأ أبو طالب رأسه برهة يفكر وقد عجب لهذا الحماس الذى

يراه قد اشتعل فتاه . وبدأ حلم على يتجمع في خياله ، ثم يتحرك ،

ثم يكاد أن يبرز حقيقة سافرة وهو يلمح السطور التى خطها التفكير

على جبين أبيه . يا ترى هل آن للشيخ أن يصيب هداه ؟

وأسرع في لهفة يستحث الرجل ويدعوه :

« اى ايت !.. انه والله للحق وانت احق من استمع اليه واعان عليه . اى ايت فهل اليه ! » .

ولكن ابا طالب بدا كمن لم يستمع الى ندائه وان قال :
« اى بنى !.. اما انه لم يدعك الا لخير ، فالزمه .. » .
ومضى عنه .

٢

لم يطل بالفتى بعد هذا انتظار ، فقد أوسك ان يتسهر دين الله بين الناس فيعرف من حدس مدى الصدق في حدسه ثم يعلم القوم ان كان محمد قد صبا - كما ظنوا - عن دين آباءه عنتا واعراضا ، ام اتاهم حقا من لدن ربه بالهدى والنور .

وامتلأت الدار الصغيرة حركة . وامتلات نفوس اصحابها القلائل بشتى خلجات : فيها ثقة ، وفيها قلق ، وفيها اشفاق . لن يلبث الاقربون من الآل ان تضمهم وليمة محمد ثم يستمعوا الى حديثه عن رسالة الله . اما خديجة فقد ظلت هادئة النفس يملأ قلبها اليقين بان الله ناصر صاحبها . لم ترتب في هذا اقل ريب ولم بعثورها شك ، بل بقيت لها نفس الثقة التى شعرت بها ليلة عاد اليها زوجها من حراء خائفا فزعا اول ما تنزل عليه وحى السماء . واما محمد فلم يستطع ان ينزع عنه خشيته وهؤلاء أدنى العشيرة ، ان جاءوا فسمعوا ثم اعرضوا عنه لا يلبون ، فقد مالت اليهم دونه قلوب العرب فكذب واشتد عليه بعدها الامر .. واما على فقد لعب به القلق آونة ولعب به الرجاء آونات . وكان ذهنه لا يقع الا على ابيه ، ولا تلتئم خواطره الا عنده مذ رأى فيه ذلك التسامح الفذ يوم أقره على الدين الجديد ولم يلوه عنه . كان هذا التسامح من الشيخ معقد رجاء الفنى ومناط آماله . لان ابا طالب راس آله وصاحب الكلمة فيهم ، وحرى بالقوم ، ان راوه استمع الى محمد فأحسن الاستماع ثم جنح الى اتباعه ، ان يستجيبوا هم ايضا الى نداء الاسلام .

وامتلأت الدار ببنى عبد المطلب وبنى هاشم وغيرهم من رجالات

الأسرة وذوى الكلمة فيها . فلما اكتمل الجمع ، أشار النبی الى علی وقال :

« هلم طعامك ! » .

فسارع يصدع بالأمر ، وتقدم الى الضيوف بالطعام فوضعه امامهم : شريدة ان كان الرجل لياكل مثلها وحده فلا تكفيه : وتهامس الحاضرون ، وتبادلوا بينهم نظرات ساخرة وان لم يسمعهم الا ان يمدوا اصابعهم الى الشريدة فيصيبوا منها . واصابوا ، ثم اصابوا منها ، ولا تكاد ان تنقص في صفحتها . واخذهم العجب ، وخفت همسهم وان دارت عيونهم دهشة واحسوا بطونهم لا تطلب مزيدا فامتلاوا حيرة بعد ان امتلاوا شبعاً .

وسرى صوت محمد ثانية يقول للفتى :

« اسقهم » .

فطاف عليهم باناء هو رى أحدهم شربوا منه جميعاً ولم يوف على نقصان .

هنا كانت الحيرة قد سدت مسالك التفكير عند أبى لهب فتتمم من بين أسنانه موجدة وحقدا :
« سحرکم والله محمد » .

فلم يلق اليه النبی بالا . انه ليعلم مأتى حقه على كل حال ، لان النساء وحى الأزواج ، وما كان أبو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجه أموية هي أم جميل ابنة حرب بن أمية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليمة الاصفان في فراش !

اغضى محمد عن وخز عمه ، وقام عن مكانه ليحدث ضيوفه عن رسالة ربه . وود على في هذه اللحظة المخرجة لو كان له على لسان أبيه سلطان . ولكنه جلس صامتا - كالأخرين - يسمع ونفسه فريسة رجائه وقلقه . وتكلم النبی ، فلم تنفذ كلماته من اذن الصبي ، بل اتخلت طريقها الى قلبه . وانه ليحس بروحه قد فنيت في ابن عمه فناء . ويحس مشاعره قد خرجت عن نطاق عزمة وقدرته ولم يعد لها كيان خاص . ويحس ذاته جميعاً معلقة بما يقول الرسول او أسلس قياداً . كأنها بعض كلمه الذي تنطق به شفتاه . . كان سحراً ما قال محمد او هو اقوى اثراً في النفوس من السحر . وان أولئك الذين

ضمهم المجلس ذلك اليوم ليشعرون كمثل شعوره . ولعلمون رنة الصدق في الحديث وان ابت يد الضلالة الا أن تشتد على قلوبهم وتضرب اكنتها . وانهم ليرون انفسهم مسوقة وحديث النبی خلفها كالسيل . يجرفها تياره القهار . فينأى بها رويدا رويدا الى دنى جديدة فياضة بالسمو والطهر ، بعيدة كل البعد عما اعتادوا من افكار دينهم ودنياهم ، وان بقيت اغلال العادة تربطهم بماضيهم .

ولكن للشقاوة سطوتها أيضا ، ولها سلطانها ، ولها شيطانها الغلاب على مراض القلوب . ولقد شاء ابليس ان يتخذ له من بين أولئك الجلوس عونا ، فأثر أن يكون حليفه اموى القلب ! . . أجل الى الشيطان بنزغه عبد العزى بن عبد المطلب . ابا لهب . فاذا الرجل تركبه العزة بالاثم فينتفخ نحره ، ويتلون وجهه الأبيض الوانا رسمها غضب الحنق والحقد والضغينة . ويستبد به غضبه حتى يكاد ان ينبثق من وجهه الدم . ويلعب في عينيه انسان مجنون فلا يترث . ولا ينتظر ان يتم ابن أخيه حديثه الذى دعاهم له ، بل ينتفض واقفا والكلمات تندفع كالرغوة من فيه :

« أتأتينا يا بن عبد الله بقالة من لدنك — ان هى الا رثى — تزعم ان ربك ادلاها اليك من السماء ثم تحسب انا مصدقوك ! » .

فلا يغضب محمد ، ولا يصيبه من جراء هذا الهجوم حسر ، بل يقول بمألوف حلمه في صوت هادى رقيق :

« ما أعلم انسانا في العرب أتى قومه بأفضل مما جئتم به : . » .

فيصيح ثانية ذاك الصاحب الزارى :

« جئنا باله واحد ولنا دونه ما يكثرونه ، آلهة شتى خير منه ! » .

« قد جئتم بخير الدنيا والآخرة » .

« فهذا لك ندعه يا محمد » .

ويحسب أن سخريته تلك قد أغنت عنه فينطلق ضاحكا يقهقه . ولكنها كانت على أى حال علامة الفصل إذ أغرت الاكثرين بالابتسام وتركتمهم لا ينصتون . وسرت المهمة في الحضور ، وسرى الهمس فاذا بهم بين مكذب وهازى . . حتى أولئك الذين تابعوا محمدا على دينه فيما أقبل من الايام كالعباس وحمزة ، فاتهم ان يتبينوا — في تلك اللحظة — حد الرشد وحد الغى . ثم علا الهمس فاستطار كلاما ، سافرا ساخرا لاذع الوقع . وظل ابو طالب في مكانه صامتا لا ينبس .

وهو بقلب ناظريه كأنما لم يع بعد ما يدور . أو كأنما قد اشفق أن يرجح إحدى الكفتين على أختها برأى يسوقه خلال هذا النضال الروحي المرير . أو كان أجيالا من ضلال الغابرين وقفت دونه ودون آية الحق كالسد الحائل ..

وتململ على في مكانه . واخذ الغضب يملأ قلبه وهو يرى أباه في موقفه هذا ، وكاد - أن استطاع - أن يمقت الشيخ ويملاً نفسه بالحق عليه . ان أبا طالب وحده كان في مقدوره أن ينصر الرسول أو يشد أزره أو يثبت قدميه في أو منحة بكلمة تصديق واحدة يلقياها أمام القوم . ولم يكن هذا بالعسير على الرجل . ولا بالذى يُبَاه ضميره إذ كان أعلم الناس بمحمد صبيًا ورجلا . لم يعرف عنه الكذب مرة وعرف له الصدق خلة هي إحدى كرائم الخصال فيه ، ومن لا يكذب على الناس لا يكذب على الله . وكانت لهذا اليتيم سمات في حدائته من النبل والقدااسة عرفها أبو طالب وجعلته والكثيرين من ذوى العلم في الناس يتوقعون لابن عبد الله بين العرب مكانة لن يبلغ شأوها في أقوامهم بالغ ، ولكن الشيخ ، مع هذا ، تجلج بالصمت وجلس ينظر . وان هي الا شقاوة شاءها له طالع سوء . به على الشر كبا ، وعن الخير نبا .

وصاح زوج ام جميل ابنة حرب ثانية ، يقطع ما يلقيه محمد على عشيرته صدوعا بأمر ربه :

« يا محمد ان لحدثك هذا لسحرا ، وان له لموقعا في الافهام وانرا على الأحلام . ولكنه - والله - ما يغلبنا على ديننا سحر »
ونرك بمقعده وهو يلتفت الى الجمع ويقول :

« قد سمعتم ايها الناس فقوموا لا يفتنكم الغلام ! » .

فلما رأى النبي أنهم كادوا يبارحونه ولما تصب رسالته من نفوسهم مكانا ، قام فأقبل عليهم ، باسسطا نحوهم ذراعيه ، هيب بهم ، ويستحثهم ويتوسل اليهم ان ينصروه فينصروا الله بنصره ، وان يثبتوا أقدامه بين الناس ، وان يظاهروا دعوته حتى يذيع في الآفاق دين الهدى والنور :

« قد امرنى ربى أن ادعوكم اليه .. فايكم يؤازرنى على هذا

الامر ، وان يكون اخى ووصيى ، وخليفتى فيكم ؟ » .

فلم يلب الدعوة منهم أحد ، وانتقل عنه أبو لهب جانبا وهو يسخر :

« تزعم ان قد بعثك الله وتطلب منا النصر ؟ . ألا كف عنا دينك وربك فانا لا نجيبك ! » .

هنا لم يعد في طاقة على حبس لسانه وراء شفتيه وان كان احدث الحاضرين سنا وأحمشهم ساقا ، فقام مسرعا صوب الرسول يعد اليه يديه ويهتف به .

« لا يحزنك والله اعانت القوم فعليهم ضلالتهم . واني انا يا رسول الله عونك .. انا حرب على من حاربت ا » .

والتفت في هذه الآنة الى ابي طالب من قال :

« يا ابا طالب الا ترى ابنك ؟ » .

فأجابه الرجل :

« دعوه . فقد عرفت انه لن يآلو اين عمه خيرا » .

ولكنهم رغم هذا راوا في حماس الفتى مادة جديدة للتندر

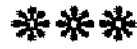
والاستهزاء فقال احدهم ورجله على الباب :

« كفاك الغلام ، فطب به يا محمد ! » .

٣

في الأعوام القلائل التالية بمكة ، لم يجد في حياة على الا ما جد في حياة الدعوة الاسلامية حتى ليتمكن أن يؤرخ لاحداهما بتاريخ الأخرى فلا تكاد أن تختلف فيهما الأحداث . شهدا صبيبا بهم أن يخلع عذار صباه فكان أول معتنقيها من الناس بعد خديجة . لم يتأخر عن سبقها الا بقدر ما ينتقل سر الرجل بعد امراته الى اقرب اهله ومحبيه . وصحبها فتى بادی العنفوان وقد أوشك أن يصير لها كيان معلوم بين الناس لما اذاع صاحبها امره . ثم سايرها شابا حديد البأس فذاق من عائبها كأس عنت دارت على أوائل المسلمين فجرعوها وان اختلفت انصبتهم من صابها المرير . ولقد كان له في أبيه رداء يحد ايداء قريش ويمسك اكفهم عنه وعن محمد وان لم يقف بهم دون صحبه وازع من اناس ولا من ضمير .. فما أسرع ما تبدلت مكة وانقلبت اتونا قاسي الالهيـب على أولئك الذين كرسوا حياتهم لنشر الدين وحمل مشاعل

الهدى يستثير بها في احشاء الجهالة كل عاقل بصير . وتوالت الايام عليهم
تباعا لا ينقضى منها شديد حتى يخلفه أشد بالغ البأس عصيب . ولكن
الشدة لم تكن شرا بقدر ما كانت اختبارا للنفوس يمتحن الصبر وقوة
العزم واليقين . وانها لقياس الاحتمال وبوتقة الرجال انصهر فيها
اصحاب النبی ، وكانوا من قبل كقطع الحديد المتناثرة ، فاذا بهم
يصيرون ذوبا ائتلفت فيهم وتماسكت حتى أصبح لها كيان واحد .



وقدمت قريش رءوسها وأعيان بيوتها حشدا مجيشة تناجز رسالة
السماء لم يتقدم منهم واحد بحجة بالغة ولا واهية تؤيد بقاءه على
جاهليته وان تقدموا جميعا بسلاح العاجز المغلوب في صراع العقول
والقلوب ... تقدموا بالبذاءة والأكف والسيوف . يصارعون رجالا
لا سلاح لهم سوى كلمة الله ويركبونهم بكل ايداء وتكال ، وغدت مكة
مسرحة للتعذيب . ضحاياها تلك الحفنة التي تألفت منها أولى كتائب
الايمان . ولقد شهد على من هذا التعذيب مشاهد قف لها شعره
واختلج جلده وسالت عيناه شئونا . وانه ليرى ببطحاء مكة حبشيا القى
على رمضائها ساعة الظهيرة ويدعوه سيده امية بن خلف الى الشرك
وقد ركز على صدره صخرة عظيمة يكاد ثقلها أن يذهب بالعبد في
الأرض ..

يقول السيد المغرور العاتى :

« لا والله يا بلال ... لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ،
وتعبد اللات والعزى كما نعبد » .

فيجاهد المعذب المكدود ليحبيب على هذه الدعوة الخاسرة بكلمة
واحدة هي رمز التوحيد :

« أحد .. أحد ! » .

فيطير هذا الاصرار صواب سيده ، ويدفعه الى الافتنان في التنكيل
بعبده . ويشهد ذات يوم هذا الثبات ورقة بن نوفل ، فتأخذه روعة
الايمان وقوته في قلب بلال فيقبل على ابن خلف يقول :

« احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا » .

يمر على ذات يوم الى جوار رسول الله فاذا عمار بن ياسر بين

أبويه قد اتقد عليهم لفتح الهاجرة واجتمع بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ولا يكفون عنهم أو يفتنوا عن دين الله . ويلمح عمار النبي فتضيء عيناه ويرفع بصره الى محمد ويقول :
« يا رسول الله ! » .

فيسارع النبي اليه يشدد عزمه وهو لا يملك له غير الرثاء والحنان :
« صبرا أبا اليقظان » .

ولكن الرجل المتوسل يملأ بالحسرة قلبه الا يجد مخلصا لأمه سمية من جلاديه ، وقد نسي أمام محنتها ما يصيبه من عذاب ، فيعود الى المناجاة :

« يا رسول الله بلغ العذاب من أمي كل مبلغ . . . » .

وقد بلغ بها العذاب حقا أوجه وهي مستمسكة بدينها مستهينة بما تلقى في سبيل الله ، وليس لمحمد في حالها تلك سبيل سوى أن يرفع يديه الى السماء ويجأر الى ربه بالدعاء :

« اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار . . . » .

فتطيب نفوسهم برثاء الرسول لهم وبدعائه ، وينسون النكال المصوب على أجسادهم ما داموا قد افادوا طهر الأرواح ؛ وأن العذاب لشهي ، والأيذاء ليلقى منهم الترحيب ولا تنفرج الشفاه عن كلمة شرك وان أمعن في التنكيل بهم هؤلاء الطفافة ، وان هدد أبو جهل أن يخترم المرأة برمحه أمام الولد وأبيه ، وان أردف التهديد بالتنفيذ فألقاها على الرمال جثة شوهاء فارقتها الحياة . . .

يمر على هؤلاء وبغيرهم كثيرين البسوا أدراع الحديد وحميت تحتهم النيران ، كصهيب وخباب وسواهما من المستضعفين من العبدان والاماء الذين لا ذوا بمحمد ودين الحق الذي جاء به رحمة للناس من لدن ربه . يمر هؤلاء جميعا ويشهد ما يلقون من ضيق على أيدي رجال من قريش لم يرعوا فيهم ضعفا ولم يعرفوا رحمة ، فيعصر عينيه أسي ، وتفيض نفسه هما ، ويمتلئ قلبه كمدًا لأن محمدا يدع قريشا سادرة في بغيتها ولا يوفيها عنها صاعا بصاع ؛ ويراود الفتى نفسه على الصبر ، ويملكها أن يخرج بها الغضب عما رسم النبي لدعوته من انتهاج انسلم دون العدوان ، ثم يسير كاظما غيظه وهو يعلم أن الزمان لا بد سيأتيه بفرجة ينفذ بها الى الاقتصاص .

ثم لم يعد ثمة رداء لمحمد يقية هو الآخر مما لقي على يدي قريش صحبه ...

يموت أبو طالب الرجل الذي وقف دائما في صف ابن أخيه يحميه من بقى قومه ويدفع عاديهم عنه .

ويقبل على يحمل النبأ . انه لم ينس مطلقا موقف أبيه ذلك اليوم حين كان يوسعه أن ينصر محمدا بلسانه فمنعه اخلاصه العميق لجاهليته العمياء أن يلفظ كلمة واحدة قد كانت كفيلة بتمهيد الطريق الشائكة تحت أقدام الرسول . لم ينس على أن أباه يخلف عن الايمان بمحمد وهو أولى الناس بالمسارعة الى هذا الايمان . ولئن كان ابوطالب قد زاد الناس عن ابن أخيه . فلغير وجه الله ولغير دينه ، وانما لوشائج القربى وصلة الدم .

يقبل على وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويقضى بالنبأ اليه بكلمات قصار ، صريحة ، لا مواربة فيها ولا مداجاة وان آذى بها أباه : « يا رسول الله ، ان عمك الشيخ الضال قدم مات » .

وكذلك وسع قريشا أن تسفر عن احقادها وضغائنها بعد أن خلا طريق الايذاء من الصخرة الكأداء ، وأبيح لهم بعد موت الشيخ ما لم يكن يباح ، فانطلقوا يصوبون من أعناتهم وطفيانهم على محمد جامات وجامات .

ولم يكن هذا لأنهم أسوا من دينه زيفا عن الحق أو ميلا مع الهوى ، ولم يكن لأنهم لمسوا في خلق النبي مغمزا يغريهم به ، ولكن لأن الأهواء لعبت بنفوسهم الضعيفة فمالت بها الى عصبية الجاهلية قبل الغضب لدن الآباء .

كانوا يرون في محمد رجلا يهم أن يحمل اللواء بين قبائل العرب ، زعيما ، نافذ الكلمة مستطير السلطان حري أن تذهب بظهوره ريحهم وتخبو عظمتهم فقاموا يناجزونه قبل أن يستفحل أمره ، ليحفظوا على أنفسهم ما لها من مكانة في الناس ، وليحولوا بين أحد بنى هاشم وبين الاستعلاء عليهم كما استعلى قبله ذووه ...

ذات يوم ذهب الأخنس بن شريق الى أبي سفيان بن حرب يقول :

« يا أبا حنظلة اسمعنى رايك ... » .

« فيم ؟ » .

« في الذي سمعت بالأمس من محمد » .

وكان الرجلان بالأمس قد جلسا مجلسا أنصتا منه لرسول الله وهو يتلو بعض آي الكتاب .

وأجاب أبو سفيان وهو لا يستطيع أن يخفى إعجابه .

« يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد

بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . . . »

« وأنا والذي حلفت به كذلك . . . »

ثم يدعه إلى زميل ثالث في الانصات هو الحكم بن هشام ، يسأله :

« وأنت فقل يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ » .

فيلوى الرجل شفتيه استياء وموجدة ، ويأبى عليه حقه إلا

أن يقول :

« ماذا سمعت ! . . . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :

أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا

على الركب وكنا كفرسى زهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من

السماء . . . فمتى ندرك مثل هذه . . . ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا

نصدقه » .

وهكذا كانت نظرة القوم إلى الإسلام كفخرتهم أن تستعلى به

أسرة على الجميع فحق أن يلقي الداعي إليه كل خذلان ! . . . فإذا

قيل شنان قريش بما فيها من بطون وأفخاذ ، وقيل شنان بنى مخزوم

كما بدا من كلمات سيدها أبي جهل الحكم بن هشام ، فكيف استطاع

هذا الشنان لأحد بنى عبد مناف من أحد بنى عبد مناف ؟ . . . ولكن

أبا سفيان استطاعه على أي حال . ودعا إليه الناس وحضهم عليه

ثم البهم عادة مناوئين مع المؤلبين الكثيرين من قريش . . . ذلك لأنه

كان من عبد شمس قبل عبد مناف فغفر لأبي جهل حسده إذ

استجاب له ما في قلبه هو وقلوب آل . وبحسبه أن رأى في سيد

بنى مخزوم ظهيرا يعينه على إرواء حقه القديم بمناجزة سليل هاشم

الكريم .

٤

... ماذا بقى بمكة بعد هذا لعلى ؟.. أولئك الذين احبهم ملء
فؤاده مضوا عنها . طوى القبر اباه فخلف دنياه ونأى بخيره وشره ،
ولئن اخذ الفتى عليه استمساكه بضلالة الأوثان حتى توسد في لحده
فانه لم ينس له مطلقا حق الوالد على ولده . ثم ان الاحداث ليست
ببعيدة عنه وقد طالما رأى في الشيخ درعا واقيا لمحمد يرد عوادي
الناس والزمان عنه ... ومضت خديجة ايضا - تلك السيدة التي
عرفها دائما اما وقد تربى في حجرها قبل أن تحتضن وليدا من
أولادها ؛ ولقد كانت تكتبه بها نكبتان : رزء الربيب ، واسى الحبيب
لأجل الحبيب ... أجل فلم يفته أن يلحظ كيف خط الألم في جبين
محمد سطوراه بعد اذ سطا الموت على الزوج الفضلى وغيبها عن
ناظريه . لكنما كانت لرسول الله كل عالمه وما ضمت بين رحابها آفاق
دنياه ، حتى اذا ذهبت فرغ عليه الكون لولا مسكة من الصبر اودعها
الله قلبه الكبير . وكان في هذا افدح الألم لعلى كلمالقى بصره على
حبيبه المختار فطالعتة في وجهه أطياف حزن عميق ، ليس يقوى على
اخفائها تجلد واصطبار .

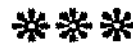
ثم ذهب ايضا جعفر وقد كان له أخا دم وأخا دين ... خرجا
سويا من صلب أبى طالب ، ولكن الاسلام سبق النسب بالحب الى
القلب . وان أولئك الذين اشربت أرواحهم شرع محمد لجديرون
بأن تمتلىء قلوبهم بهذا الاعزاز الذى يحسونه لآخوانهم في الاسلام ولا
تكاد أن تبلغ مبلغه العواطف الناشئة عن صلات الأرحام ... كان
ايمان فاطمة أمه - في البدء - خير عزاء لعلى عن ضلال أبيه ، فلما
ذهب جعفر ، ذات يوم ، الى رسول الله يبأيعه على الاسلام ، وصل
الفرح بعلى حد الفخر ، ولولا أن تلكا بعدهما أخوهما عقيل ولم يسارع
الى الهداية مثلهما لكان سرور ابن أبى طالب قد بلغ الشاؤ . ولكنه
اليوم بمكة يقلب بصره فلا يقع على أبى طالب بعد أن اكتنفه التراب ،
ولا يقع على خديجة وقد تقطعت بها من الحياة الأسباب ، ولا يقع على

جعفر وقد لاذ بالحبيشة فرارا الى جوار الغريب من جور القريب . .
اما عمه العباس ، واما عمه عبد العزى أبو لهب . واما أبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب فكل أولئك وسواهم من آل بيته لم تكن صلته
بهم الآن لتعدل لحظة واحدة يقيمها بمكة بينهم بعد أن وصل العنت
من بعضهم والتخاذل من البعض الآخر ، الى الحد الذي لم يترك لمحمد
معدى عن الخروج بليل ، مخلفا وراءه بلدته ، هاجرا داره فرارا مما
كاد ان يلحق به من ائتمار اصحاب الضلالة ، ليضرب في قفار الجزيرة
نحو يشرب كى يلوذ فيها بمن صدقوا وآلوا امام ربهم على أن ينصروه .
أجل ، لم يبق لعلى بمكة مقام وقد نزع عنها رسول الله ، وتسلسل
اصحابه واحدا اثر واحد : منهم من سبقه ومنهم من تبعه . وراجع
الفتى نفسه قبل أن يخرج هو الآخر ضاربا في الصحراء ، فلما أيقن أن
قد نفذ ما أوصاه به محمد ، ورد للناس ودائع كانوا قد ائتمنوا عليها
النبي ، قام يسعى على درب يشرب يسبقه اليها شوقه .

ولم يكن له مركب ولا ظهر أبل ، وانما سخر قدميه وأمعن بهما
في الرمال مستخفيا عن الأعين ، ولم يكن له في رحلته صاحب ، ولكنه
تألف خواطره حتى لزمته ، أن أشرق الصبح توارى يتعبد أو جن الليل
تفكر وتدبر فيما يقع تحت ناظريه من جلال خلق الله . ولقد ظل في
رحلته تلك ليالى أربع عشرة وحيدا يسبح في بحر لجى من الرمال
تحتنه ومن الأنجم والكواكب فوقه . ولعل هذه الآونة كانت أكثر
الآونات في حياته اثرا وابعدها غورا حتى طبعت نفسه بطابعها مدى
ما عاشه بعدها من سنيه . وان الامام الذى صار هذا الفتى فيما
اقبل من الايام لهر حقا وليد تلك الليالى التى اكتنفتها الوحدة بدءا
ونهاية : منبسط النفس كرقعة السماء ، جلد القلب والجنان ، حديد
العزم كالسنان ، يعزف عن اللهو الى التأمل ، ويصدف عن اللغو
الى التصوف والتبتل . وهل كان لن أخذ نفسه بهذه الرحلة ليشق
مجاهل الصحراء وحده ويعانى من أخطارها كل شدة الا ان يصحب
فكره فيجلو بالتأمل بصيرته ، ويروض صبره فيرهف بالصبر عزيمته ؟

كذلك مضى على يركب البید ، وتنثال خواطره امامه ، تسبقه
وتؤلف له من نفسها قافلة شوقه حاديها . . تماما . ولو استطاع

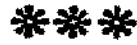
ان يتخذ حنينه الى محمد ظهرا لقطع به وحدات الزمن جميعها في
طرفة عين . ولكنه ، مع ذلك ، نعم بتذكر ما فات من لياليه مذ شرب
على يدى النبی حتى بدأ عنفوانه . . . افكانت آصرة الدين وحدها مثير
هذا الحنين ؟ . . ما كان على ليستطيع ان يدلى في هذا برأى قاطع لان
مدى ما يذكره من هذا الأمر انه لم يشعر مطلقا - مذ ولدته أمه -
انه كان على غير دين محمد يوما واحدا من أيام عمره ؛ ولعل هذا لأنه
عاش الرجل من الطفولة فجذبه الى شخصيته الغالبة القاهرة جاذب
سرى من الجنان الى الجنان قبل ان تسرى الى سمعه ترتيلة الايمان .
وكذلك نسى في رحلته لفح الهجير ولسع الزمهرير ، ومضى قدما
صوب يشرب . . وطبيعى ان متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم
تكن لتستطيع ان تلقى من نفسه حرفا من انتباهة وهو الذى لم يلق -
قبل رحيله بثلاث ليال - بالا الى عصابة التفوا بداره ، في ايديهم
الاسياف القواطع ، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا
يعصمه من بطشهم عاصم الا ايمانه .



الا ما اعزلها ليلة بين لياليه ، ما اعزلها ليلة تفضل كل لياليه !
ها هو ذا على فراش الرسول ، مسجى بيرده الاخضر حتى لا يستطيع
ان يرى اتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن أسلحتهم بمنجاة .
ولكن اصواتهم كانت تسرى دائما الى سمعه ، هامة كأنها طنين نحل ،
تطوف به هممتها مخافتة . وكان صافي الذهن حاضره ، صاحى العين
لم يطف بعينه نوم . . . اترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على
السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار
محمد ؟ . . . كان هذا بعض ما جال بذهنه ، واما بقيته فارتقاب طعنة
الموت يتلقاها من سنان حائق . لن يسر القوم أن يلعب الفتى لعبته
فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر ، وليس بمستبعد اذن ان
ياخذوا الفادى الحاضر بالمفتدى المهاجر .

ولعب على شفتيه طيف بسمة ، نصفها رضا ونصفها سخرية .
ان الموت كان غاية المأمول من حياته لأنه الوسيلة الى حياة عقيدته ،
وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة اى قارعة ، لأن دمائه لن

تذهب لقي ، بل سوف تدعو من بين قومه اناسا للشار له انتصارا
لحرمة الدم . ولئن كانت قريش قد اجمعت امرها على قتل محمد ،
فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته
الجديدة في صفوفها الفرقة . اما ابن ابي طالب فلن تنهض لقريش
حجة امام ذويه على قتلها اياه .



ولكن عنقه لم يمسه السيف المأمول !...
كان القوم ، خارج الدار ، قد اخلدوا الى السكينة مطمئنين الى
نجاح المؤامرة التي دبوها لاغتيال محمد . في اكفهم التمتع شفرات
السيوف تحت اشراقة انجم الصحراء ، وانعكس بريقها على وجوه لم
تخف البسمات الساخرة ما انطوى في قلوب أصحابها من احقاد .
وكانوا جميعا كرجل واحد ارهاف حس وحضور ذهن ونفاذ عين .
سبق الغل ابصارهم الى الباب حتى لا تفوتها النملة ان دبت آتية
منه . هذه ليلتهم حقا ، ساعتهم المرتجاة .. اللحظة الحاسمة في
تاريخ الجزيرة التي عبئت بها مدى اجيال عبادة الأصنام : وكانوا هم
مختارى قريش وممثلى أسرها جميعا لاداء رسالة هذه الأصنام !...

اجل قد اجتمعت فيهم كلمة قريش ، ولم تجتمع لها قبل اليوم
كلمة منذ اجيال . هذه الأسرة الوثيقة القربى كانت محلولة العرى
مفككة الأوصال حتى لطالما وقف منها البيت أمام البيت يحتكمون
جميعا الى لسان السيف .. ولكنها الآن التأم منها ما تفرق ، واتحد
فيها الأشراف والأشباب ، واجتمعت على القدر قلوبها وايديها ،
لتمزق محمدا قطعا بقدر ما يمسك اولئك المتربصون به من قطع
السلاح ، فاذا انت لحظتهم ، ضربوا ، وادوا عن آلهم حق الأصنام ،
وزهد دم الرجل في القبائل كلها فلا يطيق ذووه أن يعادوا من أجله
قريشا كافة .

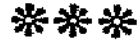
ذلك كان اجماعهم وما حسبه ومن وراءهم احكام تدبير . ولكنه
اجماع مفضوض وتدبير خاسر ... ولن يلبث أن يتبين لهم بعد أعوام
كم كانوا في ليلتهم تلك عمى القلوب والبصائر وان حدث منهم العيون
والنواظر . فلم يكن محمد ليبغى ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا . ولم يأتهم

ليسلبهم ما بأيديهم من تراث وانما ليمنحهم من لدن ربه تراثا تلتئم به اقطار الأرض كلها كعقد حول اجيادهم ، ثم يجتمع بهم مالم يحلموا به من ملك وجاه ومال . ولكن الضغن آفة الحكم . ولو كانوا قد استطاعوا أن يتجردوا من اضعفانهم لحظة طوقوا داره لما اشرعوا في ايديهم رمحا الا من اجله وفي سبيل دعوته ، ولاجتمعا حوله ولم يجتمعوا عليه . ولذكر الكثيرون منهم أن هذا الرجل ، الذي لموا شعئهم لناهضته والقضاء عليه ، هو الشاب الذي جعلهم ذات يوم سالف يغمدون اسياهم ويبقون - بفضل رأيه - على جمعهم أن يتمزق ويذهب بددا . ولعل فيهم الآن من يعرف لمحمد هذا الفضل الماثور ويعرف قصته . ورواها لغيره من الناس بعد أن رواها له غيره أو شهد فصولها بنفسه . . . هذا حدث ليس تنساه الأذهان وما كان اختلاف الزمان بالذي ينسيه . وما من واحد في العرب الا يذكر كيف اختلفت قبائل مكة ، حين أعادت بناء الكعبة ، على أيها يحوز شرف وضع الحجر الأسود في مكانه حيث وضعه من قبل ابراهيم الخليل . ولقد بلغ اذ ذاك الخلاف اشده حتى أدنى القبائل من مهوى الحرب ، ولكن شابا واحدا حسم الأمر ، طلع عليهم في هذه الآونة العصبية محياه الاصبح فطرد امامه شيطان الشر واستطاع بكلمة واحدة نطقها وهو بعد في أولى مراحل الشباب أن يطفىء ما كادت أن تسعره حماقة الشيوخ . نشر امامهم ثوبه ووضع الحجر عليه ودعا برؤوس العشائر المختلفين أن يأخذ كل من الثوب بطرف ويرفعوه الى مستوى الكعبة ، فلما فعلوا وسد الحجر بيده موضعه فولى الخلاف وأغمدوا السيوف .

ولكنهم اليوم عمى القلوب والبصائر وان حدثت منهم العيون والنواظر ، بل انهم ما لبثوا أن فقدوا أيضا حدة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذي ضربوه حول الدار . وكان على في مرقدده ، واجف القلب اشفاقا على الرسول ، يرى بلحظ الخيال دون رأى اللحظة ، اليه يسرى ترتيل محمد ، اذ يسير خلفا المكان ، خافت الرنين رافع اليقين : « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وحقت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خطوه سميع . واطمان قلب على وسكنت نفسه حين تلاشى رويدا رويدا جرس الآيات وراح في السكون . ثم أغرقت البسمة شفقيه ، ناطقة بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النسمة ، ترعاه عين الله وتظله رعايته ،

وتحولة يد عنايته الالهية وهى توجه خطوه خارج مكة ، صوب الشمال ، الى يثرب . . ارض النصر !



تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود ، شعر سعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقا قلب انسان . ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب ، لأنها كانت في قلب على راسخة رسوخ اليقين وان شق عليه ان يرد المامة من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبى اذ يسير مجتازا باب الدار وحلقة الثوار . ولم يكن من أجل انتفال الدعوة الاسلامية من بلدة شائثة جاحدة الى ارض طيبة صالحة للحياة والنماء فهو وطيد الايمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء . . . لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما ملأ أجواء دنياه . ولكن لأنه رقد يرتقب ان يمس عنقه سيف تحركه يد حائق من القوم ويجهز عليه به ، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه . لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكر وقدر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه ، بل سيجتمعون على الثأر له : قاصيهم ودانيهم ، حاضريهم وغائبهم ؛ ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عباد اصنام واتباع اسلام .

كذلك فكر على وقدر فأصاب . ولم يكن مبالغا ، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من أحداث . فلقد تطلع بذاكرته الى يوم من الماضى قريب ، وقع فيه مثل ما رجا ان يقع له وان كانت المشابهة بين الواقعتين في أضيق نطاق . . . كان ذلك حين أدلهم الخطب على النبى وصحبه واخذت قريش لا ترعى حرمة فتركب محمدا بالعنت آونة وبالايداء آونات . في ذات امسية من ذلك العهد وقد مضى النهار الا اقله ، ومالت الشمس الى مرقدها في المغرب ، وجلس العلية كدأهم يسمرون عند الكعبة ، بدا للقوم حمزة بن عبد المطلب ، فارعا مهيبا ، في خطوه اعتداد يكاد ان يجنح به الى حد الفخر ، قد زين قلنسوته بريشات تماوجت مع انسام الغروب ، وتمنطق بقوسه ، وتدلّت من كتفه جعبة السهام لم يتكلم ، ولم يلق الى الجالسين بسلام . ولم يطف بالكعبة كما اعتاد كلما عاد من رحلة صيد ، بل أرسلها نظرة عجلى

خلال القوم ، ثم ارتد . وأوجسوا اذ رأوه ، فلأمر ما مشيت غصبة
الليث في عينيه وفارقه المعهود من بشره اما هو فقد تركهم
يوجسون ويحدسون ما شاءوا ، واندفع كاندفاع السيل الى دار
أبى جهل بعد أن افتقده في السامر فلم يقع عليه .

وضرب الباب فبرز اليه الرجل يتلقاه بالترحاب .

« أبو عمارة ؟ مرحبا وادخل . . . »

فلم يهش ، ولم يدخل ، بل بادره يقول :

« تعدو على ابن أخى فتلطمه وانا بين الناس حى ! »

فأجفل العادى أمام غصبة خصمه وقال يتلمس المذرة بأسلوب

لين ناعم :

« ما كنت لأفعل يا أبا عمارة ، ولكنه عاب آلهتنا ، وسبها . . . »

« وأنا أعيبها ، وأسبك ، وأرد عليك لطمتك ! » .

وسبقت يده الكلمات فاذا حديدة قوسه ترتطم بجبهة أبى جهل في
ضربة قاسية شجتها شجرة منكرة يتفجر منها الدم . ووقف حمزة هنيهة
يرقب فريسته ويتهيا لها ، ولكنها كانت أذل من أن ترد عليه ضربته
أو تنضح عن نفسها بمعاية لسان أو بلفظ استهجان .

وشهد الجالسون الى جوار الكعبة تلك الأمسية حمزة يعود ثانية ،
يسبقه اليهم غضبه ، ثم يقترب منهم حتى يصبح مشرفا على النطاق
وعلى بقية الملائ القريبين ، فيرفع فيهم صوته ويقول :

« أيها الناس ! . . . انى اخلع الآن رداء كبرى ، وانى على دين ابن

أخى وانى لناصره بلسانى وسيفى الا فليتقين سفيهم غضبتى ! . . . »

أى ربح هذا الذى ربحه دين الله من وراء لطمة ، وأى ربح ذاك

الذى كان لا بد أن يربحه من وراء دم ! .

ولكن اولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء
فلم يروا محمدا تحته ، عرفوا كيف يملكون سورتهم عند حد ، فلم يفز
الفتى بأمنيته - لم يقتل ! . . . لم ترفرف روحه في الفضاء تدعو آل
عبد المطلب وآل هاشم ومن تابع هؤلاء واولئك الى الثار له والانضواء

تحت لواء واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم . . . ولئن أفلتت من على هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكا بغيرها من فرص سانحات . ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرخوا الفراش بدمه أن يندموا لانهم تلك الليلة ، ابقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذى ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام . . . !

٥

كان على منجل الموت الذى أخذ يلاحق رعوس قريش من اعداء دين الله فيقطعها قطفا ويخطفها خطفا . . تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر . وذلك الفتى الذى كان في صباه سباقا الى الدين أصبح اليوم - في فجر شبابه - سباقا الى ضرب الهام وشق الأجسام . وفي كلا ناحيتي شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيد دائما برسول الله ، المقرب اليه ، المرموق منه بعين الحب والرعاية . لم تفت به فرصة واحدة مد دخوله المدينة الا اجتباه الرسول دون سواء من قادة الاسلام فأثره بفخر يرفع من قدره فوق ارتفاع ، ويشرف به على جلة الصحابة والاتباع . لئن كان أبو بكر من نبي الله وزيره الصادق فان عليا كان منه الظل اللاصق ، لم ينا عنه ، ولم يبعد الا كلما أرسله محمد ليكون له على أعدائه عينا او لرجاله طليعة . حتى في بدء ذلك الوقت ، الذى اخذ رسول الله يكون فيه ملكه الصغير ويربط بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، لم يفته أن يؤثر باخائه عليا دون الباقيين . . أخى بين صحبه الخارجين من ديارهم معه وبين أصحاب البلدة الذين آووا ، فتخير أن يكون على أخاه في الدين . لم يؤاخ ابا بكر ، ولم يؤاخ عمر ، ولم يؤاخ حمزة أسد وأسد الله ، ولكنه اصطفى لهذه الاخوة المعنوية بعد اخوة الدم فتاه الربيب فأثره على كل حبيب بعيد وقريب . ولا شك انها كانت من النبي لفتة كريمة لها في النفوس ما قد تشيره من احياء يكاد أن يفصح عن التقريب والاجتباء ، وكانت حياة على بعد هذا مناط الكثير من كريم اللغات . حتى في ساعة الحرب ، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعا بلحظة

الطعان المنتظرة ، كان النبي حين سعى الى بدر بجيوش المسلمين ، يسير آونات الى جوار بعيره ويدعه مطية لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق ..

ولم يكن هذا وحده دليل التقدير الفرد الذي توج به محمد هامة صفيه ومجتباه ، بل كانت صفحات حياة الرسول كلها آيات متلاحقة من التقدير والتفضيل . طبيعى أن تعطفه صلات القربى اليه . ولكن ادنى الأقربين من آله لم يلقوا منه مثل ما لقي ابن أبى طالب ، صغيرا وكبيرا ، من صادق اعزاز ، كان في السلم يختصه بالرفقة حتى أصاب الفتى من ينبوع النبوة والحكمة ما شاء ، وكان في الحرب يقدمه لأنه خبر فيه صلابة العزم وصدق البلاء .. حتى اذا داخل نفسه الكريمة على رجاله خالج اشفاق ، سبق خوفه على فتاه خوفه على الجمع من الصحب والأعوان فود أو جعله عن رماح الأعداء في حرز حصين ، ثم كان الحرص ، كلما تقدمت بالنبي السن ، يزيد على على أن بلغ أقصاه بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب بمؤتة ، حتى لم يعد محمد بعدها يرسل صفيه في وجهة من وجوه القتال الا رفع يديه الى السماء يستهل الى ربه أن يبقى له عليه ويقول :

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

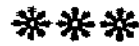
وكذلك عند صمت الموت ، واستواء الكافة من الناس على حافة اللحد لم يعد محمد فضلا آخر في جعبة الايثار يختص به ربيبه المحبوب ويزيده به قربا الى النفوس والقلوب . وكان ذلك عند وفاة فاطمة ابنة أسد ، زوج أبى طالب وام على ، واسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة الطاهرة .. فاطمة الفضلى التي لم يسبقها في الدنيا الى اعتناق دين الله الا غلام ، وامرأة ، وثمانية رجال . تقدم الرسول فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة ، واضطجع الى جوارها فيه .. وعجب الناس لهذا الصنيع الذى لم يروا محمدا من قبل يوليه احدا من أقرب خاصته ومريديه فراحوا يسألونه :

« ما رايناك صنعت ، يا رسول الله ، بأحد ما صنعت بهذه ؟ » .

فكان جوابه أن قال :

« انه لم يكن احد بعد ابي طالب ابر بى منها .. وانما البستها القميص لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر » .

وكم من اموات المسلمين قبلها ضمتهم اللحد ووارى التراب اجسادهم فلم يفوزوا من نبيهم من هذا الصنيع بقليل ولا كثير . ولكنه اسدى لها في موتها ابلغ تعظيم ، واسدى بهذا لابنها في حياته اجل تكريم .



... وكانت بدر كلها نصرا هو فاتحة النصر المبين لراية الدين ، بل كانت المنفذ الذى اجتازه هواء الحياة الى رئة الاسلام . جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة باذن الله . ولئن كان النصر سبقت انباؤه الى لوح القضاء طعان الابطال ، فان عليا كان الأسبق يدا وسيفا الى أعناق الأعداء . لم يكن في المسلمين أسنهم ، ولا أشدهم ساعدا ولا أبعدهم صيتا في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الانسان . ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارسه الكثرة من صحابة المسلمين ، اذ كان بعد بالدنيا حديث عهد ، لم يجاوز العشرين الا بقليل . ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثبت وقلب جلد لا يستطيع ان يطرقة خوف أو تطوف بساحته رهبة . ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم ، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها ، وانما كان مرهف الحواس متمالك الجأش ، يقظا غاية اليقظة امام كل صغيرة وكبيرة تبدو اثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيونا تنظر . وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسى رهان .. وكانا دائما سباقين الى رعوس الكفر وأشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيرا ذلك اليوم أن يحفرا قبور الأصنام . اما حمزة فكانت له في المعركة غضبة الليث ودفعة السيل ، الرهبة دائما تسبق سيفه يتلوها الموت وان كان حماس الصراع يستغرق حواسه ويملك منه الزمام فيندفع كلسان النار بين الأعداء وهو لا يكاد أن يرى سوى فريسته التى الى اصطيادها والاجهاز عليها . ولقد علم أعداء الاسلام في أسد الله هذه

الدفعة فاستفلوها في الكيد له ، ولم يكد يتكامل الحول حتى عرفوا كيف يثأرون لأنفسهم منه ويكفون رقابهم حد سيفه بأن دفعوا اليه يوم احد عبدا حبشيا من عبيدهم تربص له حتى اذا رآه قد ران على عينيه غضبه ، وعبست أساريره ، وفنيت ذاته في حماس الصراع قفز اليه العبد بحربته فأراد . .

وأما على فقد تهيّب الناس فيه صدق حمله وحد نصله ، فكانوا ان آثروا التبات لا يملكون الا الوقوع صرعى تحت قدميه ، او فضلوا السلامة ادبروا يفرون او ارتدوا ينكصون بعدا منه ، ثم كان يبعثهم كربهم أحيانا على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في اقفيتهم سلاحه فيكشفوا عن عوراتهم اذ علموه يربا بناظريه ان يريا سواة . وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب ، بل يظل أبدا متمالك الأعصاب يتحرك كمن في نزهة فلا تفوته من صفوف مناجزيه اجمعين لفظة او حركة وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذي حال طوال حروبه بينه وبين اعدائه المتوالين ان ينالوا منه وان رصدوا له العيون والأرصاد وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد .

* * *

كانت بدر نصرا كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عاليا على ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان . وهكذا ثبت الله قدم نبيه وأعز أمره ، وصدقت رؤيا عاتكة ! . . أجل صدقت رؤيا عاتكة ابنة عبد المطلب وتحققت واقعا ملموسا تراه العيون . وان أولئك الذين سخرُوا منها أمس بدر لهم أشد الناس ايمانا بصدقها غيب الواقعة . فلقد أصبحت مكة على غير ما تعودت ان تصبح . . فارقتها كبرها ، وأشرها ، وفخرها ، وهى تنظر الى فلول جيشها المهيض الجناح عائدة تجر الخزى في أعقاب هزيمة مرة . وتلفتت عيون السادة الذين تخلفوا بالبلدة عن المعركة الى الآيبين منها . . أين سيدهم الحكم بن هشام أبو جهل ؟ . . أين أمية بن خلف ؟ أين عتبة بن ربيعة رأس بنى عبد الدار وصاحب اللواء ؟ . . أين أخوه الوليد وأين ابنه شيبة ؟ . . أين كل أولئك وغيرهم ممن غادروا مكة بالأمس دارعين مزهوين ، اقلهم املا كان لا يستطيع ان يكبح نفسه عن العودة من المعركة الا ورأس محمد في كفه ؟ . . كلهم راح لقى هناك على ثرى بدر ومن عليهم محمد بالمضجع وبئس المضجع ! . . كلهم طواه

القلب تستوى فيه الأشراف والأوشاب ورنث في آذانهم - موتى -
صرخة محمد وهو يناديهم من مثاويهم ويقول :
« يا أهل القلب ، بئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم ! كذبتموني
وصدقني الناس ، واخرجتموني وآواني الناس . وقاتلتموني ونصرني
الناس !.. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فاني وجدت ما وعدني
ربي حقا ؟.. » .

ولكنهم سمعوا وما استطاعوا أن يقلبوا في التراب جنوبا . وخلفوا
الدنيا التي غرهم فيها الجاه وغرتهم الكثرة وكانوا يستعلون فيها
ويستطيون كبرا . وعاد الحثالة من اقوامهم الى دورهم وبقوا هم
حبسى الأرض .. عادت الحثالة من اقوامهم الى مكة نوارى أساها
وقد فرت دون مواراة قتلاها . وان في قلب كل رجل من قریش كلما
حرام على عينيه بعده ان تنام ان لم تشهد نأرها في محمد وصحبه .
وان في كل بيت لنائحة بين اليتامى وبين الأيامى .. في كل بيت فلقة
من الصخرة التي راتها عاتكة في رؤياها فلم يبق لهم بد من أن يصبحوا
مصدقين وكانوا منها أمس ساخرين .

كانت عاتكة قد فرغت ليلة بدر الى أخيها العباس تقول :
« يا أخى .. » .

فسارع نحوها وقد لمح على محياها الخوف :
« لييك !.. ما أفزعك ؟ » .
« انى رأيت الليلة رؤيا افظعتنى .. » .
« وما رأيت ؟ » .

« وانى اتخوف ان يدخل منها على قومك شر ، فاکتم عنى
أحدثك » .
« أفعل » .

« رأيت راكبا اقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ
بأعلى صوته : الا انفروا يا آل غدر لمصارعكم !.. فأرى الناس اجتمعوا
اليه .. ثم أخذ صخرة فارسلها فأقبلت تهوى ، حتى اذا كانت بأسفل
الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها
فلقة » .

وسمع اخوها فتجهم ولكنه لم يکتم !.. وسار نبا الرؤيا من لسان
الى آذان حتى وصل أبا جهل فانطلق الى العباس ساخرا يقول :

« يا بنى عبد المطلب . أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ
نساؤكم » .

ومع هذا فقد صدقت رؤيا عاتكة يوم بدر . ويا ليت أبا جهل
يستطيع الآن أن ينطق ليحدثنا بأثر صدقها فيه ، وفي ناصريه ! .

ولكن ذهب إلى الأرض كما ذهب الآخرون . وخلفه الأحياء من
قومه لمصرعه ، كما خلفوا معه سادة سواه كانت دنيا قريش بأمرهم
تدين ، وفروا ناجين من أسياف حداد أعمت آونة في هام الكثيرين
وآونة في أافية الباقيين حتى خلصوا بجلودهم مدحورين .

وكذلك كانت بدر نصرا كلها وإن أفلتت الدائرة أبا سفيان بن
حرب وغيره الذين من أجلهم نزلت حشود المسلمين إلى ساحة
القتال ولكن أبا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن خيرا من
أولئك الذين حصدتهم رحي السيوف أو لم يكن شرا منهم ! . بل
لقد خسر في المعركة زيادا ابنه أسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه
بسيف على كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بنى عبد شمس
وأصهارهم من عبد الدار . وإن الذي يأخذ نفسه بإحصاء من جندلهم
ابن أبي طالب في بدر ، ثم فيما تلاها من وقائع ، ليعجب أشد العجب
ويتساءل أكانت المصادفة وحدها هي السبب في أن تكون كثرتهم من
ذلك البيت الذي اشتهر بامتلاء قلوب آل بهلقد على هاشم وسلالته
أم ترى كان ينتقى عامدا غرماءه من بينهم ثم يعمل في رقابهم نصاله ! .
كان عجيبا حقا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن أبي
سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، والوليد بن عتبة
صهرهم أخا هند زوج أبي سفيان . ثم عقبة بن أبي معيط والد الوليد
أخي عثمان لأمه والذي بفرع عبد شمس تربى . . . ثم بعدهم غيرهم
من أحلافهم ومن لاذ بهم بنسب أو بسبب .

وكانما كان هذا الفتى منجل الموت المسنون الذي أرففه على
رقاب أولاء ولعلمهم ندموا لأنهم ليلة الهجرة خلوا بين على وبين الحياة
ولم يقتلوه في فراش الرسول ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتिला ولا
بدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم وإسلامهم لأنهم رضعوا من ثدى
أمهاتهم مقتنه ومقت آل صفارا فاصطفوا يناجزونه كبارا ، ولم
يتحروا — إذا فعلوا — أن يكونوا له المناجزين الأكفاء .

٦

انجلى النقع ، وانجابت الغبرة ، وعادت قريش وفي عيونها دموع
وفي قلوبها صدوع . وعاد على في صحبة النبي يتوثب فرحا ، لا يبالي
ان انضمت جوانح بنى امية على ضغن جديد يجتمع الى ذخيرة اضعافها
على بنى هاشم . ما كان الفتى ليبالى شيئا اليوم ما دامت بدر قد
افاءت عليه من خيرها ما يبلغه الوطر من أمانى حياته ... لقد طالما
سخر من النشب ولم يعرف قيمة للمال الا أن يرد به جوع جوعان
او عرى عريان . لم يتخذ لنفسه منه ذخرا ، ولم يجمعه ، ولم يبق
مطلقا على درهم جاءه في صباح الى يوم تال . بل كانت كفه كالمصفاة
اسبق الى البذل والعطاء منها الى الحفظ والابقاء . بلغت ثروته ذات
يوم اربعة دراهم فكره من أجلها نفسه ، وسعى سعيه بالليل والنهار
حتى انفقها على ذوى حاجات فجاءه جزاء هذا الاحسان من عند الله
آية كريمة نزلت فيه وخلدت صنيعة وسماحة كف هي أحوج الى
السماحة من أن تكون مسماحة :

« الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار . سرا وعلانية ... »

كان يحرم دائما نفسه من كسب يده التى ورثت الجود عن
اجواد ... عمل مذ دخل المدينة في زراعة يهود حتى يقى نفسه
« ضيافة » الانصار ، فكان يسقى هذه الزراعة حتى تمجل يداه ،
حتى اذا انتهى النهار ونقدوه أجره دفعه او دفع أكثره الى سائل
او محروم ثم لا يأبه ان كان يبيت هو على الطوى . لم يستهوه مطلقا
بهرج الصبا ولا زهو الشباب بل عاش فيهما كعابد في محراب . وكان
قوته دائما الخبز الجاف ، وأحيانا البر ، وغطاؤه الوبر وثوبه مرقعة
قصيرة من ليف واهاب ، لأن غايته من دنياه ركوب نفسه بالاذلال
والحرمان لتخلص له تقية بلا شائبة .

ولكنه اليوم ، وقد عاد من بدر ، احس بالسعادة اذ افاء الله
عليه بعض مغنم . ولم تكن سمعاده بالافتناء لذات الافتناء ، بل لأنه

الوسيلة الى بلوغ مقصده . انه يستطيع الآن ، وقد ملك شيئا ذا بال ، ان يتقدم الى رسول الله متحدثا اليه في شأن كتبه عنه طويلا في ذات نفسه . كم طالما هفت روحه وقد بلغ مبالغ الرجال ، الى ان تكون له اسرة ويسكن الى زوج . وتلك الأعوام ، التي انقضت مذ تفتحت عيناه في هذه الحياة ووعي ما يراه ، علمته الا يستوعب ذهنه أو تتطلع عينه لغير صورة واحدة من بنات حواء ... صورة واحدة منهن، حملها وليدة ، ولاعبها طفلة ، واكن لها صبية بعض ما كان يكن لابيها العظيم من خالص الحب والولاء .

انه يستطيع الآن ان يتحدث الى رسول الله بما مذل عليه آفاق التفكير ، ولكنه ما لبث وقد اشرف على باب محمد ، ان اخذته الرهبة ولعب بخطوه التردد ... كيف نسي ان ابا بكر - وله في قلب النبي ما له من مكانة - جاء رسول الله يطلب منه فاطمة فلم يفر منه بغير ان اجاب : « انتظر بها القضاء ! » وكيف نسي ان عمر بن الخطاب تقدم بعد الصديق الى الرسول يطلب فاطمة لنفسه عساه ان يفوز بخير مما اصابه صاحبه فلم يسمع هو أيضا الا نفس الجواب : « انتظر بها القضاء » ... ؟ افابى على محمد لين طبعه وترفقه بصاحبيه الا ان يجيبهما بمثل كلماته القصار التي توحى بصريح الرد والاباء وان غلف اللفظ الناعم الجواب الحاسم ؟ ... وما عسى سوف يلقي على من ترفق النبي ؟ ... ان ثقة الفتى بنفسه لم تخنه ابدا . ولم تقعد به ، حتى في أهول المواقف وأكثرها شدة لم تخنه . وانه ليعلم قربه من قلب محمد قربا يتقدم به سواه من الأقران والرفاق . ولكنه في هذه اللحظة تردد ونكص على عقبيه بعد ان كاد يمضي قدما ، وولى ظهره للباب قبل ان يجتازه وفي خاطره ان الفرصة لعلها غير مواتية الآن ، وان جواب النبي لصاحبيه قد يتكرر ... ثم سار ، حائر الفكر ، موزع القلب بين احجام واقدام ، يذرع الارض في خطو متمهل وثيد .

ولقيه بعد هنيهة صاحب أنكر منه ما بدا على وجهه من سهوم بعد تطلق وبشر ، فأقبل عليه متسائلا يقول :

« ما بدا لك يا بن أبي طالب ؟ »

فترث قليلا قبل ان يجيب :

« خاطر بشر ، وخاطر نفر ! »

فضحك صاحبه وقال يداعبه :

« هلا تطلقت ، بالله فاني اراك قد أسهم لك ... ؟ »

« فيئى هذه الدرع » .

« ولا تراها كفاء ؟ » .

« حتى تثين غزوة » .

« او خطبة ! » .

ورمقه صاحبه يستنبيء مدى اثر الكلمة فيه فقد كان يعلم بأى الامور هو مشغول . وصمت على يتطلع كالمتوجس ولا يجيب ، اما الآخر فقد عاود ما كان فيه من حديث :

« فهل يا بن ابى طالب فانها كفاء ... وانطلق » .

« لاین ويحك ! » .

« الى رسول الله تذكر عنده الزهراء ! » .

فغض الطرف ، وهمس :

« ايها عنك ! » .

« فهل ! »

« بعد ابى بكر . وبعد عمر ؟ » .

« نعم . فان لك عليهما - والله - لسابقة » .

وتزيث ليسمع منه فلما وجده ممعنا في صمته ، يبدو ترده على محياه ، عاد يستحثه ويقول :

« لانت اول الناس اسلاما ، واقربهم من رسول الله رحما : ولد

عم ، وابن ضم ، واخو دم . فای الرجلين في هذا يعدل مكانك ؟ » .

لم يكن هذا الراى على ذهن على بجديد . انه عالم به ، مؤمن اشد الايمان بمعناه ، واثق تمام الوثوق من المنزل الذى يحتله الان بقلب راعينه .

بل لقد استطاع ان يعرف طوال عشرته لمحمد انه كان دائما منه خيرا مما قاله الناس عنه . ولكنه في هذه اللحظة بدا له راى صاحبه بكرا لم تنفرج عنه قبل اليوم شفتان ، وبدا قبسا من نور بدد غياهب التردد . فما لبث ان انطلق لتوه ، يسرع الخطا ، منصبا كالسيل ،

متقلعا في مشيئته على نحو ما اعتاد ان يفعل دائما ، متشبها بمشيئة نبيه .

ولم يطل به المقام في حضرة الرسول الا بقدر ان تمالك جأشه ووسعه ان يمسك اضطراب نفسه .

قال له محمد باسمه ، يستفسر :

« ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فغالب حياءه برهة ، ثم أجاب :

« ذكرت فاطمة با رسول الله » .

« مرحبا وأهلا » .

* * *

بهذا اليسر تمت خطبة على . وبحثله وبأسر منه تم زواجه الذى كان أغلى آمنيات الحياة عنده ، بعد ان لقي لدى فاطمة قبولا . وحمل الشاب درعه التى افاءتها عليه بدر فباعها بسوق المدينة بدراهم دفعها الى رسول الله مهر ابنته . وأرسل النبی بلالا فاشترى طيبا بجانب من الصداق ، وأرسل أم سلمة فاشتريت بعض حوائج العروس . واجتمع في دار النبی ، ليلة الزفاف ، أهله ، والكثرة من صحبه المهاجرين والأنصار ، يحتفلون ، فقام رسول الله فيهم يخطبهم بما اقتضاه المقام .

وقال في ختام حديثه :

« ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على . واشهدكم انى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة متقال فضة ، ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ... »

وانتهى بهذه الكلمات امر العقد ، وشهد الحضور واقبلوا على العروس مهئين ، وكان حلواء الحفل بعض التمر اتى به النبی في وعاء فقدمه اليهم وهو يقول :

« تخاطفوا » .

فتخاطفوا . وانفض السامر .

وبقى ان يعرس على بأهله فلم يجد الا منزلا مستاخرا بالمدينة عن منزل رسول الله ، فاتخذة دارا لأسرته الجديدة . وكانت فرحة

العمر تملأ قلبه تلك الليلة وهو جالس ينتظر بين هنيئة وأخرى أن يحضر النبي فيبارك له ولزوجه . وكانت فاطمة يطويها الاستحياء وأم أيمن الى جوارها تخفف بحديثها من بعض هيبتها حين دقت الباب يد رفيقة .

وانفلتت أم أيمن من مجلسها تفتح ، ثم ما لبثت أن سمعها الزوجان تهتف بصوت فياض بالبشر :

« رسول الله ! » .

قال لها النبي يسألها :

« أتم أخى ؟ »

وملكت الدهشة نفس المرأة :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله !... فمن أخوك ؟ »

« على بن أبى طالب »

« وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ » .

« هو ذلك يا أم أيمن » .

ودخل فنهض له الزوجان أجلا وترحيبا . ودعا هو بماء في اناء فتوضأ فيه ، ثم نادى عليا فجلس الشاب متهيئا بين يديه . ونادى فاطمة فأقبلت بغير خمار تتمثر في ثوبها من الحياء . وراح رسول الله يأخذ من الماء فينضح به على الفتى آونة وعلى الفتاة أخرى وهو لا ينى يرفع صوته بالدعاء الى الله :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما في نسلهما .. » .

ولما غادر المكان وهم أن يجتاز الباب الى الخارج ، كان حنان الأب وعطفه وشدة تعلقه بفتاته المحبوبة ، وحرصه على اسعادها غاية الحرص ، تتجمع كلها في رقة نظراته وهو يلتفت اليها اذ يودعها ويقول :

« والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلى ... »

ثم ترك بينهما الوفاق والوفاء وبركة الدعاء ...

V

لم يطل مقام فاطمة بهذا الزواج بعيدا عن أبيها ، لانه لم يطق صبرا على ان يفصلها عن بيته اكثر من جدار ... فلم يكن يمضى قليل حتى سار به حبه اليها ...
قال لها :

« انى اريد ان احولك الى ... »

فتفكرت هى هنيهة عسى ان تذكر حلا يرضى رغبة هذا القلب الرؤوف الرحيم ، ويرضى شغف قلبها هى الاخرى بأن تكون دائما الى جواره الكريم . ان هناك اذن بيت حارثة لا يكاد يفصله عن دار رسول الله شيء ، فلو انه حدثه ...
وقالت له وهى تكاد تنهيب الكلام :

« فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى ... »

ذلك انها كانت تعلم ان هذا على أبيها شديد لفرط ما أفسح حارثة في بيوته لرسول الله . ولقد جاءها رد النبی مصداق ظنها حين قال :

« قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه !... »

ومع ذلك فقد شاء الله ان يحقق لنبيه هذه الرغبة الصغيرة .
فما أصبح صباح حتى تحول حارثة عن الدار المرموقة وجاء يقول لرسول الله :

« يا رسول الله ، انه بلغنى أنك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازل وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله ... والله يا رسول الله المال الذى تأخذ منى أحب الىّ من الذى تدع » .
وكذلك تحولت فاطمة الى ما شاء لها قلب أبيها وما شاء لها قلبها من قرب الدار ، واقامت وزوجها في بيتهما الجديد بخير جوار .
ولم تكن حجرتها تلك تتصل بسبب من أسباب الشبه بما نعرف عن بيوت اليوم ، وانما كانت تلائم ما اشتهر عن فقر على وفقر زوجة .
لا تكاد ان تقع فيها العين الا على جلد كبش هو فراش الزوجين بالليل ، ومذود العلف لبعيرهما في النهار .
ولكنها - مع ذلك - كانت في عينيها القصر المنيف الداهب العمد

في أجواز الفضاء ... فالبيوت دائما يساكنيها لا يصنوف الاثاث والرياش فيها . فقد اجتمع لفاطمة في على كل ما ضم افق تفكيرها عن الرجل الأمثل ، وكان أمثل الرجال لديها محمد ، وكان على اقرب الناس اجمعين شباها به في الاقوال والأفعال .

وكانت هي من قبل دائمة الكتابة ، كثيرة الهموم . بالغة الصمت مذ ماتت أمها وتركته تضطلع وحدها - في بكور صباها - بشئون ابيها ، وتقوم عنده مقام الزوج رعاية ، ومقام الأم عطا ، ومقام الابنة تقانيا ومحبة . ولقد صحبته خلال اشد ايام الدعوة واقساها محنة عليه ، وشهدت عن كذب ايداء قريش له ، وعيشها به فكان قلبها - الى جانب سيله حشرات على أمها الفقيدة - يسيل حنانا وحزنا من أجل هذا الوالد المضطهد الكريم ، وكانت عينها لا يكاد أن يرقأ دمعها وهي تراه يقف من اعدائه موقف الداعية المسالم فيقفون هم منه مواقف العدوان الصارخ الظالم . ولا تملك هي أن تدفع عنه الشدة أو البلاء الا أن تفصل له ثوبا رماء سفهاؤهم بالأدران ، أو تنفض عن وجهه ترابا حثوه به ، أو تمسح جرحا سالت دماؤه منه ... ثم هاهي اليوم قد ضمها بيت على ، رجل ساير ايام الدعوة جميعا ، وكان لهذا الوالد الحبيب خير دافع عنه بسيفه وبنفسه ، وخير ناهل منه ما جاء به قومه من هدى ومعرفة ، وخير مترسم خطاه في كل صغيرة وكبيرة من أفعال حياته لأنه شب له ربيبا أوواه ظله ... حتى بعد الزواج) لم يال على جهدا ليكون الصورة الصادقة لمحمد . كان هذا - بلا ريب - بدافع من الحب لفاطمة والاشفاق عليها والرحمة لحزنها الذي أصبح من كيائها جزءا ثابتا فوق رغبته الصادقة في احتذاء آثار النبي . فقد سرى أثر الحزن من نفسها الى جسمها حتى أضحت هشة واهية الاحتمال حتى لم يجد مندوحة عن بذل كل ما في طاقته ليخفف عنها ما هو أخرى بالمرأة أن تقوم به من شئون منزلها . لم يدعها مطلقا تؤدي عنه عملا يستطيعه ، بل كان دائما يسبق يدها اليه . ولم تكن لهما في بيتها خادم تعمل عنهما ، فكان هو يقوم بأمور نفسه . فيخطط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويهيئ من شأنه كما يشاء . فاذا أقبلت هي على عملها سارع يساعدها فيحلب عنها ، أو يتزجج الماء من البئر ويحمله لها ، أو يشاركها فيما تقوم به من مهن البيت : وله في رسول الله الاسوة الحسنة

اذ عرفه دائما في مهنة اهله حين وجوده في بيته حتى يخرج الى الصلاة ...

على هذه الشاكلة مضت الحياة بفاطمة رتيبة وثيدة في بيت على ، لا تكاد نحس انها فارقت دار رسول الله ما دامت قد توفر لها في بيتها الجديد كل ما كان لها من قبل ، وما دام رسول الله لم يتخلف عن زيارتها خلال ساعات ليل او اثناء نهار . بل عساها احست ان بعض اعبائها النفسية قد انجاب عنها بهذه البشاشة التي تطلق بها محيا زوجها ابدا حتى اعداها بشره ، وبهذا الحب الدافق الذي غمرها به حتى كادت تنسى في غماره ما كان من حزنها القديم . واخذت الراحة ننشر لواءها عليها رويدا رويدا ، والسعادة بظل دارها الصغيرة بتحليلها جنة مليئة بالهناء او تكاد .

ولكن سخابة قائمة ما لبثت ان حلقت فوق الدار وكدرت الصفو الى حين . فلقد تهامس الناس فيما بينهم عن خطبة جديدة وعن زواج جديد يهم ان يقبل ابن ابي طالب عليه ، ولئن دل هذا الحادث على شيء قد لاته واضحة على مدى سعى الناس الى على يخطبون وده ويلتمسون فيه لبناتهم زوجا حتى ليمشون هم اليه ؛ والعرف يقضى بأن يمشى اليهم الزوج . ودل أيضا دلالاته التي لا تقبل الشك على اعظام رسول الله لأمر زهرائه وارتفاعه بها عن مستوى كافة النساء في وقت كان تعدد الزوجات سنة جارية بين الاعراب ...

وقف النبي على منبره ، وقد تكاثرت في الناس الساعات ، فقال وهو لا يحاول ان يدفع عنه غضبه :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى في ان ينكحوا ابنتهم على بن ابي طالب . فلا آذن ، ثم لا آذن ... الا ان يريد على بن ابي طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانها بضعة منى ، يريبنى ما رابها . ويؤذينى ما آذاها ... »

وما كان على بالذى يعدل بفاطمة غيرها وان كانت سليمة الأكاسرة او القياصرة في النساء ... وعادت السعادة ثانية ازهى لونا الى الدار .

ولكن الأمر الذى اخذ عليه مسالك تفكيره منذ الزواج ، وظل يقض عليه مضجعه دائما هو ذلك النحول والضعف والتهافت الذى كانت تقاسيه فاطمة من الصغر ويدعها لا تقوى معه على احتمال . ولقد بلغ على القلق عليها غايته يوم جاءته تخبره على استحياء ان في بطنها جنينا اخذت تسير في اوصاله الحياة . انه ليلمح على محياها اطياف الفرحة التى تخالج الأم ولكنه يشعر فى قرارته بصدى فرحتها قلعا على مصيرها . ان الامومة لتلهم السعادة كل فتاة ولتحيل حياتها كلها املا معسولا فى انتظار الوليد ، وان الأبوة لمنتهى رجاء العربى . ولكن هذا الشاب كان يخشى غاية الخشية ان تنوء زوجه بالحمل ولا يقوى جسدها الواهن على احتمال ثقله وبرحاء الوضع . فلما تصرمت الايام وانتهت المدة ، وجاءت الآونة المرتقبة ثم وضعت فاطمة حملها فى سلام لم تكن فرحة على الا بنجاة زوجه لا بمجىء الغلام ...

وضعت فاطمة وليدها الاول . واولئك الذين شاهدوا طلعتة توسموا فيه محيا جده الكريم ، لان صورة النبی اسبق الصور الى اخيلتهم من سواها . وكان الوليد هكذا حقا ، وان كان أيضا يكاد أن يطابق أمه شبا لأنها كانت من أبيها صورة ناطقة القسمات والملامح فى أجلى بيان .

واقبل على يحتمل الطفل فرحا اذ صار به لرسول الله ذرية منه يتيه بفخر نسبها اليه على كافة الناس . وراح كفيره من الآباء يجيل بذهنه أجمل الأسماء لينتقى خيرا للوليد ، ولكن ما فيه من طبيعة الكفاح غلب عليه والناس دائما الى طبائعهم اميل ... عجم على جعبة الأسماء فلم يدع الغلام باسمه هو ولا باسم أبيه ، ولا باسم جده لأبيه وان كان خير الأسماء ، وانما دعاه بما هو اميل اليه فى هذه الدنيا دون كافة الأسماء . اختار ان يكون له « حرب » علما عليه لأن الحرب كانت صناعة أبيه بالسيف واللسان ، كما شاء القدر وشاءت له قبل سنوح فرصها ميول الوجدان ...

ولكن هذه التسمية كانت رغبة لم يتح لها مطلقا ان تتحقق ، فقد اقبل النبی مسرعا حين بلغه النبأ السار ليمتع ناظره بطلعة سبطه ، وليهبه من لدنه البركة والدعوات الصالحات .

وقال ولما يستقر به المقام :

« ارونى ابني ... »

فدفعوه اليه يحتمله بين يديه ، ويقرب فمه من أذنه الصغيرة يهمس فيها أذان الاسلام ، ثم يلتفت ثانية ويسال :
« ما سميتموه ؟ »

قال على :

« سميته حربا »

« بل هو حسن »

فكان كما قال رسول الله .

ثم عاودت الخشية ثانية عليا وهو ينظر فيرى زوجه مقبلة على وضع جديد . انها هذه المرة أهش قواما واضعف عودا بعد ما بذلت من نفسها وقوتها في سبيل تربية صغيرها والقيام على شأنه . ولقد بلغ من وهنها ان الجنين في بطنها لم يتم شهوره وخرج الى النور بعد ستة شهور .
وكما ود على في البدء فقد ود لو كان اسم ثانى وليسديه « حربا »
لولا ان اختار له رسول الله اسم « حسين » ..

واصبحت الحجرة الصغيرة اجل عند ساكنيها من قصر منيف رفيع الدرا والعماد بعد قدوم هذا الرفيق الصغير . واصبح على اكثر بشاشة واضحك سنا . وعرفت البسمات اخيرا طريقها الى ثغر فاطمة فلم تعد تضل عنه بعد ان وهبها الله زينة الحياة .

ولكن الله ، بهذين الصغيرين ، لم يهب الزوجين وحدهما العقب الصالح ، بل وهب الدنيا كلها نسمة عاطرة ونعمة طيبة من ريح النبوة الزكية . وقدم في شخصيهما للأجيال المقبلة ، حتى زوال الارض وانفطار السماء ، ذرية رسول الله . الذي اقتضت حكمة ربه الا تكون له من صلبه سلالة ، فشرف عليا بان جعل من صلبه هو سلالة النبي الكريم ، فاضاف بهذا الشرف الى ابن ابى طالب مجدا جديدا في سلسلة امجاده ومفاخره التى اختص بها وحده دون الناس اجمعين : من ناصرين ومن شائين ...

٨

في « أحد » قاد أبو سفيان الرجال وأحقاد الرجال ، وقادت زوجته هند النساء وأحقاد النساء !.

كان الرجل ، طوال ما فات بعد « بدر » من أيام تجاوز العام ، لا يجد له شاغلا في الحياة بمكة إلا التجهز بالمال والعتاد ليوم القصاص هذا ، فرصد تجارة عظيمة - اشترك فيها أهل بلدته اجمعين - على النيل من محمد بالحرب والقتال ليردوا عليه ما ناله منهم . ثم اخذ نفسه بانماء أحقاد القلوب واضغان النفوس ما وسعه الأمر حتى لقد جعلها تكتم في قراوتها التفجع والحزن على قتلها ولا تفضي به ، فحرم على الرجال الحداد ، وعلى النساء والأطفال البكاء الى يوم يحين لهم فيه الثأر من واثريهم ، يحق فيه الندب والبكاء ، وتطيب فيه الفرحة بالقصاص من الأعداء ..

واقبل الرجل ، وقد اصطفت حشود قريش في الميدان ، على حملة اللواء من بنى عبد الدار ، يشير حميتهم فيقول :

« يا بنى عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رايتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ... »

فساله طلحة بن ابي طلحة :

« وما ترى يا ابا حنظلة ؟ »

« ارى اما ان تكفونا لواءنا ، واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه » .

فشارت لهذه نخوة طلحة ، وثارَت معه نخوة آلِه من بنى عبد الدار فاستمسكوا باللواء وهم يقسمون ليرقعنه عزيزا حتى ينتهى قتالهم بالنصر .

ولكنها كانت نخوة كلفتهم غاليا ، واقتضتهم تسعة رءوس من اكابرهم ضريبة للحرب دفعوها ولما يبرحوا أماكنهم من الميدان ، وكان على وحده مقتضيتهم راسين ! ..

... برز طلحة من بين صفوف قومه ، مدلا بالبطولة والفروسية يدعو نظائره من رجال المسلمين الى المبارزة فاسرع اليه ابن ابي طالب

مستجيبا لدعوته في غير ما صلف ولا كبرياء ، وما هي الا لمعة السيف في ضوء الشمس حتى لقي ذلك المدل المعتز رجفة الموت الناقع على يد الشاب الحبي المتواضع .

ثم برز من بعد عثمان بن ابي طلحة ياقف الرابة التي تفلنت من بين أصابع اخيه المحنل الصريع . فما هم حتى بطشت به كف القسورة حمزة . ولما آن لثالث الاخوة من بنى عبد الدار وقت حينه وحن اجله ، رماه قدره هو الآخر فريسة سهلة المنال في يد على فأصماه ولما يكد ، لأن حرص ابن عبد الدار على بقية انفاس الحياة التي كانت تتردد فيه ، جعله يفر بجرحه المميت من وجه مصميه ، متخذا من عورته درعا يكف عليا عنه ويقف به دون الاجهاز عليه ..



واقبلت نسوة قريش وراء الجيش ، يضربن الدفوف وقد قادتھن هند رافعة الصوت بالصياح عساها تثير الحمية في صدور الرجال بما تضيفه عليهم في غنائها من مديح وآيات فخار :

ويها بنى عبد الدار !
ويها .. حماة الأدبار !
ضربا بكل بتار ... !

ولكن الرجال ادبروا وأدبرت معهم النساء !.. وكادت الدائرة ان تدور عليهم اجمعين فتنتهى المعركة بالنصر المبين للمسلمين لولا ان رماة هؤلاء زابلوا اماكنهم التي ارصدهم فيها رسول الله ، وخالفوا امره واندفعوا وراء رجال قريش المدحورين ليصيبوا من الغنم . فانتهر عدوهم منهم هذه الثلثة ، وكرت خيله من الخلف على جيش المسلمين تضربهم وتشيع المقتلة فيهم .

وانتكس الامر على رجال النبي واختلطوا بمناجزهم اشد اختلاط واكرهه حتى ما يدرى الرجل منهم اكان يقتل اخاه اذ يرمى ام يصيب من عدوه نحره . وتفشت في الرجال روح الهزيمة فغلبتهم رهبة الموقف ، وحاولوا ان يقوا انفسهم مصارعها فنكسوا ، وارتدوا قليلا قليلا - امام ضغط قريش - على أعقابهم مولين ، هم الذين لم يعرفوا ، قبل يومهم هذا - كيف يكون النكوص ويكون الفرار .. وحادوا

عن مواقفهم واحدا اثر واحد . وتكشفوا عن نبيهم وهم لا يشعرون وتركوه هدفا لنبال الكفار .. ثم أخذتهم رجفة الرعب فأحالتهم أحجارا لا تعي حين سرى الى صفوفهم من بين حشود مناوئهم لفظ يفشو كأنه النار ان محمدا قتل ! .. قتل محمد ؟ .. ما لهم بعد هذا موقف ولا ثبات . وليولين من لم يكن بعد قد ولى ، وليضعن سلاحه من كان قائما حتى اللحظة يضرب به الى يمين وشمال ، فان رسول الله عنوان الاسلام ، العلم الذى وقفوا من أجله يبذلون ارواحهم رخيصة قد خر صريعا - هنا أو هناك - في الميدان ..



ما كان أشد فرحة ابنة عتبة وزهوها ذلك النهار ! أخذت تقطع ساحة المعركة في مجيء وذهاب لتمتع ناظرها ، كاللبوة الضارية ، برؤية الأشلاء والدماء . انها قد شفت قلبها المصدوع وبصرها المقروح وأسبلت مصارع أولئك الواثرين الراقدين في جوار أحد على نفسها راحة ما بعدها راحة .. كلهم الآن فداء أبيها وأخيها وابنها ، وغيرهم من آل الذين جندلوا على ثرى بدر ، ثم لكم أضفى على قلبها سعادة لم تستشعر قبل يومها هذا مثلها ذلك اليقين الوطيد بأن أصل بلائها قد زال عن هذا الوجود بزوال محمد وذهابه عن دنياها الى غيابة الموت ..

ولكن عينيها وقعتا في جانب الميدان على منظر أرسل في قلبها ثانية نار الحقد التى كادت تخبو . تفور وتمور .. ها هنا عصابة من رجال قومها الأمجاد يكافحون رجلا فردا كأنه الليث بين الخراف ! .. فارعا ، مهيبا في لحظات كربته كما علمته دائما مهيبا إبان لحظات تفوقه وعزته ، لا تكاد العين ان ترى ذؤابة سيفه وهو يسرع في كفه الى الرقاب كالبرق . ولا يكاد ان يخطئه البصر او يأخذه بغيره وهو الصارم الغضبة قد اجتمعت عروقه في جبهته كالكرة ورمت عيناه بنظراتهما كلسانى نار . وهو البازر بين الآلاف من الرجال يحسن سمته وأناقته ثوبه وان أصابت منه وعشاء الحرب .. وهو المعلم دائما

بريشات النعام في صدره أو على قلنسوته حتى ليعرف من لم يره انه حمزة بن عبد المطلب لأنه لا بد قد سمع ذات يوم عنه ..

ها هنا رجل حى من بيت محمد !.. رجل دونه بقية الرجال وكافة الأبطال ودون حقد هند عليه أحقاد مثيلاتها من النساء على غيره من أصحاب الرسول وصفوة ناصريه . فلتكفين اذن ناسها بأس سيفه : ولتروين غليلها من دمه كما روى ثرى بدر بدماء والدها عتبة . ولتقتصن فيه لأخيها الوليد وابنها حنظلة اللذين قتلها ابن أبى طالب . ولئن ذهب على - في حساباتها - كما ذهبت كثرة المسلمين الى التراب فقمين بعمه أن يؤدى عنه التمن لثكلها المرير وفجيعتها التى لم تنطو على مثلها القلوب والصدور ..

وارسلت بصرها عجلى ، على ما حولها وبالود لو استطاعت أن تنسب نحوه كالأفعى فتتشب فيه الناب . وهمت أن يدفعها الحقد فيلفيها عليه ثم تترك لأضغانها بعد هذا أن تنال منه حسبما يلهمها الموقف : ولم تكن تحمل في صدرها قلب انثى آدمية بل قلبا أقل ضراوة منه قلوب الوحوش الكواسر ، فانطلقت تعدو صوب العصابة التى التفت بحمزة وتساقط حوله أفرادها كالذباب . ولكنها ما لبثت أن توقفت اذ شلتها هيبة الرجل . وأدارت أمرها في رأسها مترددة . محاولة أن توازن بين احتمالات الموقف وبين خاطر سطع في ذهنها حين وقعت عيناها على وجه أسود علا جسد مارد !..

وفركت المرأة كفيها فرحا . انها نائلة ثارها بلا ريب ثم عائدة الى دارها مثلجة الصدر . هذا وحشى العبد يلوح عن كشب وهى تعلم انه مأجور لقتل محمد أو لقتل على أو لقتل حمزة . فما استطاع وصولا الى اولهم ودونه الصفوف تلوها الصفوف من أصحاب مجاهدين مفتدين يدفعون عنه . وما استطاع الى الثانى وصولا ويقظته الفذة لا تترك لوحشى أو لسواه مجالا يصيبه فيه من بعيد أو من قريب . ولكن الأول مضى ونفضت منه الحياة كفيها .. ومضى الثانى في اثره ، ان لم يكن قد سبقه الى الموت اذ كان دائما الفادى له المكافح عنه لا تصل الى محمد ذؤابة سيف الا أن اخترقت - في الطريق اليه - قلب على .. ثم بقى الثالث .. بقى حمزة حتى الآن أمامها يجول ويصول يقدر الرجال ويمزق الأوصال .. وان هنذا

لترى الآن بعينها لم وقف الأسود المأجور في مكانه لا يريم . ملكت قلبه رهبة الرجل حتى تركته قطعة صماء من الأرض التي وقف عليها وهو يشهد بعينه كيف تكون مقاتل الرجال على يد هذا البطل الذي سن له وحشى حربته ، وسممها ثم وقف بعيدا كأنه نسي فيم جاء .

واسرعت اليه المرأة تجذبه من ثوبه وتصيح فيه :

« وبها ابا دسمة ! » .

فانتفض العبد كأنما ردت اليه الحياة . وتطلع نحوها ببصره الحديد . صامتا ، مغفور الفاه وعادت تانية تهتف به وتسبحه :
« انك تقذف برمحك قذف الحبشة ولا تخطيء .. ارم فذاك امي ! » .

فاعتدل في وقفته ، وحانت له فرصة انكشف فيها أعداء حمزة عنه فهز الرمح ، وصوب ثم القى ..

واعقبت الرمية الصائبة صيحة الشماعة انطلقت من شفتى هند . ووقفت عن كذب ترقب كيف تبدو علائم الموت على الوجه الوسيم الاصبح . وكيف تعاني العيان سكرات النزاع ! وكيف تنزف الحياة في قطرات دماء راح يلفظها الجرح . وبوجهها في كل هذه اللحظات صفحة كريمة تداولتها الوان الحقد والضغينة والبغضاء ..

واسندار حمزة ينظر من اين اتته الطعنة الفادرة وفي ملامحه تنطق آلامه بألف لسان . وتحامل على قدميه يكرهما على السير صوب قاتله بعد ان تبينه : وارتعدت أوصال العبد فزلزلت فرائصه وهو يراه يهم بقطع الطريق اليه ولم يستطع فرارا بن عبت برغمه في مكانه كان قد بنيت قدماء في الأرض . ولكن حمزة لم يسر الا خطوات - عرف بها قلب وحشى كيف يكون سلطان الرعب - ثم سقط البطل العظيم مجنولا على الثرى ..

هنا اسفرت هند عن قلب الوحش الذي ضمته اضلاع المرأة فأتت بما لم يحدثنا التاريخ مطلقا بمثله قساوة اشباعا لنهم الاحقاد .. استلت سكينها وتقدمت الى الجسد الطريح تمثل به اشنع تمثيل فصلمت اذنيه . وجدعت انفه ، وغورت عينيه . ثم تركت النصل يعبث كما شاء له جنون الغل في قسمات الوجه حفرا وتخديدا وقطعا ، وهي لا تستطيع ان تكف يدها ما لم تحس بقلبها الصليب قد تقع

صداه .. وهل كان لجلمود صخر ان يعرف رياء ؟ ان الوحش الرابض في داخلها لم يزل منهوياً ، ليس تشبعه الرؤية وحدها ولا ترويه .. فلتبقرن اذن بطن عدوها الراقد امامها في سلام ، ولتكشفن فيها عن بضعة تنهشها بأنياب أحدا . أنواع الحيوان وأضراره نزعاً ، ولتاخذن الكبد التي ما زالت فيها بقية من دفء الحياة فتلوكها في فمها وتقضم منها ما وسعها ان استطاعت أو أن أساغت .. ثم تلفظها حائقة لأنها مريرة المذاق . وتمضى - بفعلتها هذه - على مدى الأيام مثلاً فذا لشر ما سكن قلوب الناس من أحقاد وأضغان ، مثل لا يعدله شر في الدنيا ولا في بقية الأكوان !..



مثل لا يعدله شر الا ما انطوى عليه قلب زوجها .. الرجل الذي سوده قومه . وما حسبتهم كانوا مسوديه الا بفضل أو مسكة من فضل بعد حسبه العريض الذي ذهب به في اصول العرب الى ابعد المذاهب ، ولكن أبا سفيان كان رجلاً قمىء الجسم قمىء الوجدان ! اعماه حقه عن الفضل ، وعن العقل ، وعن حق القرى التي ربطته بحزمة حتى غلف الحقد قلبه بغشاوة سميكة خرجت به عن نطاق قلوب الانسان تماماً كما حدث لهند . بل لعل لزوجه بعض العذر لو انا قابلنا بينه وبينها فى كفتى ميزان ؛ كانت انثى وللانات لدى نورة النزعات اندفاع يحيد بهن عن الجادة وان لم تصل بغيرها الحيدة الى مثل هذه المغالاة . وكانت موتورة في أبيها ، وفي أخيها ، وفي ولدها تم بعدهم وقبلهم في الكثيرين من عشيرتها وادنى الاقربين اليها من الأهل والأحباب . أما هو فلم يكن كذاك . ولئن فقد في بدر ولده حنظلة فان حمزة لم يكن قاتله . ومع ذلك فقد مال مع ضغنه القديم ، الذى ورثه عن آبائه ، على بنى هاشم ومن انحدر منهم ، يستوى امامه محمد وحمزة وعلى ومن عساه سينشأ لهم من أبناء لو امتد به عمره وامهله الزمان لسقاهاهم ايضاً من سموم كراهيته ما يستطيع . وهكذا لم يملك أبو سفيان نفسه ، ولم يمسك بزمام بغضائه حين مر بشرى أحد فوقع بصره على حمزة بن عبد المطلب لقى ، مشوها ، مبقور البطن عمل في ملامحه وفي أحشائه النصل والناب .. بل استبدت به أحقاده أيما استبداد وملاّت بسمة كريهة وجهه الدميم ، وهزت الفرحة جسمه القمىء الضئيل وهو يسرع الى حمزة الصريع يهتف به بصوت تفيض الشماتة في نبراته :

« يا أبا عمارة ... دار الدهر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم نفسى ! » ثم لا يخجل أن يتناول بالقصاص ميتا لا يستطيع عن نفسه دفعا ، فيهرز رمحه في يده هنيهة مدلا مستعزا ، ويتقدم فيضرب بها في شدة الجثة وهو يردد كمن أصابه مس جنون :

« ذق عقق !... ذق عقق ... »

وكانما الله شاء أن يخزيه في موقفه ذاك ، وإن يكبته فيطلع عليه في تلك اللحظة أحد أحلافه من رجال مكة ... ويقلب الرجل بصره في سيد قریش غير مصدق أن يبدر منه ما يأتيه ، ويكاد أن يذهله المنظر أول الأمر حتى إذا استوثق مد كفه الى منكب أبى سفيان يهرها ويقول في صوت هامس مبجوح :

« سيد قریش يصنع بآبن عمه ما أرى - لحما ! » .

« الحليس ! » .

ويكاد أن يسقط من يده رمحه وقد علم أن قد اطلع على خزيه سيد الأحابيش . ولكنه سرعان ما يلجأ الى الاعتذار فى موقف ليس يجديه فيه تكفير ولا تعذير ...

يقول متخابثا ، متوسلا لصاحبه :

« اكتمها عنى ، فقد كانت زلة » .

ولكنها زلة كانت أخرى به ؟ .. ليست بكبيرة منه . أكثر منها غير غريب عليه ، ولا على آله أتياه في هذا الباب ، وإنما القليل منهم هو موضع العجب ومثار الاستغراب .

وكانما ورث الأحفاد ، مع الأحقاد ، صناعة الأجداد .. لاننا لا نلبث أن نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن أو أكثر من الزمان . الحفيد « يزيد » يستعيط عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدة الحسين الديبح ويتلهى بنثر ثنياه ، كانما المثلة كانت لأسرته صناعة ، وكانما فيها الامعان كان لهم ملهارة أى ملهارة !... أما الحليس فأنى أرى ظهوره قد كفانا الصورة الكريهة التى كاد أن يرسمها لنا أبو سفيان فى تلك اللحظة من يوم أحد لو خلى بينه وبين التصوير ... ولعل شيخ بنى أمية لو ترك وحيدا وشأنه اذ ذاك ، لكان انحنى على الأرض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لأنياه عساه يسبغ منها بعض ما لفظت زوجه !...

٩

أشرف أبو سفيان بن حرب من ربوة على ميدان المعركة في انحائه
شراذم متفرقة من المسلمين مسها الضر وعملت فيها الهزيمة ، وراح
بأعلى صوته يهتف :

« يا أصحاب محمد !.. يا أصحاب محمد !.. أفبكم محمد ؟ »
فلم يجبه على سؤاله مجيب ، كان هول الموقف لم يذهب بتبصرهم
في عقبى الأمور فراوا الخير في التزام الصمت .

وفرح الرجل ما شاء له أن يفرح . ومدت له هذه الفرصة في
بساط الشماتة وشفاء غله اذ حسب أن عدوه ليس بينه رجل تطاوعه
نفسه المكلومة على تحريك لسانه بالرد على مصير محمد ، ومصير خير
صحابه الذين ظل شيخ بنى أمية يرفع عقيرته بالسؤال عنهم واحدا
بعد واحد . ولم يبق شك عنده في أنه قد انتصر وانتصرت معه قريش ،
وأن عجلة الفلك دارت على مثال دورة عجلة المعركة في احد ، وأن
أولئك الذين قد اجلب لهم من مكة بخيله ورجله راحوا لقي على الثرى
ها هنا أو هناك .

وضم على جسده القمىء طرقي ثوبه . وأحس كأن قد استطل
فرعه الى الشمس لأنه ملك النصر وملك الثار ... ثم دعا داعيه في
رجاله ان يتهياؤا للرحيل ...

ولكنه قد جرى شوطا بعيدا غاية البعد وراء خياله لأن محمدا
لم يقتل ولم يتخل ربه عنه بل أبقى عليه من أجل الدعوة ، وادخره
للقابل من الايام حتى ينشر الدين ويقضى على اعدائه المشركين . ولئن
دارت اليوم على جيشه الدائرة فانما هي الحنة يبتلى بها الله صبر
عباده ثم يردهم بعدها قلوبا تقوى على الاحتمال وتثبت لزعازع
الأهوال .



أجل لم يمّت محمد . ولم ينل منه اعداؤه الا اقل القليل وهم
الذين لاحقوه بالأسياف والرماح والنبال كأنما كانوا لا يحاربون غيره .

ولكن رماحهم وسيوفهم وكل ما حملوا به عليه من سلاح تكسر على
صخور الدفاع التي أحاطه بها بعض صحبه . وكانت هذه الصخور
رعوسا وقلوبا وأجساما وقفت دونه تذود عنه . ولعل سجلات البطولة
مد خلق الله دنيانا حتى اليوم لم تضم صورا أبدع من تلك التي
رسمها بدمائهم أبطال أحد . ولعل محمدا لم يعيش في محنة كانت
انكى من تلك الفترات الأخيرة من المعركة وأشد عليه . . قارب الموت
كما لم يقاربه من قبل ، وسار تحت ظله وقعد ، ورأى الهول كيف
يكون له على الناس سلطان غالب يفتنهم عن الجهاد ، وشهد الاضطراب
والرعب يجرفان صفوف أصحابه كأنهما سيل حتى انفرجوا عنه .
وأولئك الذين لم يشنهم عنه خوف عدوهم واتقاء بطشه تناهم عنه
دفعه وضغطه . . حتى دمر غاب عن عينيه وهو الجليد ذو البأس
الشديد . . وحتى أبو بكر أيضا وكان دواما 'قرب اليه من أردان
نوبه . . .

ولكن حفنة من الرجال ظلت حوله لم تبرح عنه ولم تمل كأنها
شدت اليه أو كانت منه بضعة . وهؤلاء هم الذين لم يلهم الهول ولم
يشنهم الدفع والجذب عما نذروا أرواحهم له . فلقد بايعوه على الموت
من قبل كما بايعه الآخرون ولكنهم كانوا أمالك لنفوسهم في ساعة كان
خطبها يذهل الناس عن نفوسهم . كان ذو المعصم وكانوا هم السوار
فأحاطوا به من أمام ووراء ويمين ويسار . . . في جانب وقف ابن
أبي طالب لا يستطيع أن يلم سيفه السكون لو أنه أراد . . . ينتفل
به بين الرقاب والقلوب ويروى نصله بالدم ان كان يرتوى حديد . .
وفي جانب كان سعد بن أبي وقاص يذب بنو سه الذين حاولوا اختراق
النطاق الى رسول الله ويرميهم بنباله حتى نفدت . وكان من خانه
من أولئك المدافعين سلاحه التمس الحديد والحجارة وكل ما يقع بين
يديه ليدفع بعيدا ذئاب قريش . ولقد استطاع واحد من هذه
الذئاب أن يلقي حجرا أصاب وجه النبي ، ولكن البقية فرت ، ولم
تستطع الثبات لما شاهدته من عزم ومن قوة مراس ، وقنعت بأن تلقى
نبالها من بعيد . وراح مؤلفو السوار يدافعون عن رسولهم ما وسعهم
ويحولون بين السهام وبين وقوعها فيه . . وان منهم لواحد رأى الامان
في أن يتبرس بجسده محمد فاتحنى عليه كأنه درع وراح يتلقى رميات
الاعداء . . الا فطوبى لابی دجانة الدرع الادمية لرسول الله ! . طوبى

له ونعمى ! وطوبى لجسده الذى لم تترك نصال قريش منه موصعا
لم ترشق فيه نبلا ! ...

واستطاع رسول الله . بعد جهد أن ينجو مما كان فيه فسارع
ومعه على وقلة من صحبه الثابتين . يصعد في احد . وكان الكثيرون
ممن فرفهم عنه الصراع قد علموا أنه حى فأقبلوا فرحين يلحقون به
وقد ردهم نبأ بقاءه حيا الى الحياة ! ... وكذلك أصبح عن نبل عدوه
بمنجاة حين اعتلى الجبل . ثم انعكست الآية فأصبح العدو أهدافا
لنبال المسلمين التى أخذت تنصب عليه من علو فتفرقه بددا . . . وكان
النبأ أيضا قد سرى الى اسماع أبى سفيان فأذهب عنه ما كان من
فرحته وأعاد سيرته الأولى حبيس ضعفته . ولكنه لم يستطع أن يعيد
الحمية نانية الى صفوف رجاله فيؤلبهم من جديد بعد أن برد حماسهم
بنبا المقتل المكذوب فأنز الاكتفاء من النصر بما أصاب ، ورأى الصواب
في أن بغنم السلام بالاياب !

وأشرف الشيخ المونور من ربوة أمام الجبل ، يصيح مستعزا بالثار
الذى أنيح له ، وبالنصر المزعوم وهو يهلل لصنمه المعبود :

« يوم بيوم بدر . . . اعل هبل ! . . اعل هبل ! »

فجاءته من ناحية محمد تهليلة الایمان ، أعلى جرسا واصفى صوتا ،
تشقى العنان :

« الله أعلى وأجل - لا سواه ! . . الله أعلى وأجل ! »

واخذ ميدان المعركة يخلو رويدا رويدا الا من الجثث والأشلاء
التي تنانرت في جنباته ، وأكثرها من الشهداء المسلمين ، وكانت نسوة
المدينة ما زلن دائبات على ما خلفن من أجله بيوتهن : يملن على الجرحى
بالعناية وعلى المنكوبين بالعطف ، وقد سبقتهن فاطمة الزهراء الى هذا
الواجب فدارت مسعفة حانية او مضمدة آسية ، وهى لا تكاد أن
تثبت بها مواقع الأقدام لفرط نشاطها آونة ولشدة ضعفها وما أصابها
من الوهن والكلال آونات ، ولكنها ظلت - مع هذا - تعمل ولا يقعداها
جهدا لحظة واحدة عن موالاة بذل العون واسباغ الرعاية .
وغابت قريش عن الاعين . وانطوى في البيداء المترامية آخر رجل

من رجالها مخلقا حلبة الصراع . لقد انتهى الأمر على خير ما طاف
بأحلامها وأثارت من وأثرها . فلتعد أذن بزهرها نازكة صريعى تقمتها
على الثرى صامتين .

أما محمد فلم يبرح . لم يكن قد استوثق لنفسه وناسه من رحيل
قريش اذ كان الحرى بها - وهى بعد موفورة في الرجال والسلاح - أن
ترتد مباغطة فتستأصل من نجا من جيش المسلمين ، بهذا قضت
قواعد الحرب في كل عصر وجيل وقضت حكمة القادة الذين يحسنون
القيادة ، وبهذا جرى خاطر محمد ومسه منه الخوف على أتباعه
الناجين ، فدعا اليه على بن أبى طالب وأمره أن يذهب عينا وراء أولئك
المرتحلين ليعرف ان كانوا قد اسروا في نفوسهم مكيدة البسوها
بمظهر الرحيل .

قال له :

« اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ويريدون . فان كانوا
قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة . وان ركبوا الخيل
وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ... »

وخرج على صدوعا بالأمر ومسارعة الى ركوب خطر بالغ عساه
ان يكف أصحابه كيد قريش . واقبلت بقية الجيش تصلح من شأنها
وتعيد التنظيم والاعداد ليكونوا لعودة عدوهم على أهبة . ومضى
الوقت على الناس بطيئا وثيدا يملؤه القلق الذى يبعثه الانتظار حتى
واوا ابن أبى طالب يبدو لأعينهم فوق حد الأفق .

وتقدم هو بعد قليل الى رسول الله يقول :

« يا رسول الله ، قد جنبوا الخيل » .

فتنادى المسلمون بالارتحال .

وفي طريق العودة مضى الناس يلتمسون قتلاهم ، ليس يحزنهم
فقدتهم من فقدوا قدر حزنهم على ذلك النصر الذى كان في أيديهم
ثم فقدوا . ومضى النبى معهم يبحث عن غاب من صحبه ، فاذا به
قد وقع بصره على حمزة عمه : على أسد الله الصريع الطريح كما تركته
أسنان هند ابنة عتبة ورمح زوجها الموتور الحقود . فأية غضبة

عصفت بجوانح رسول الله اذ ذاك ؟... واى الآلام ابلغ من الم حز في قلبه هذا المشهد المروع ؟. لا أدل على هذا من الكلمات التى افترت عنها شفتاه وهو يقول : « لن أصاب بمثلك ابدا » ... ولا أصدق في التعبير عن سخطه من قوله : « ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا ! » لأن الله المرير يقصر عنه كل تعبير .

ألا قد تأثرت قريش حقا ، وثأر شيخها أبو سفيان بن حرب وشفى غليل حقه الذى نما في قلبه مع الأيام خلال أجيال وأجيال ، فانه الدوحة الباسقة التى غرس نواتها ذات يوم عبد شمس ، وتعهدا أمية ، ورواها حرب فى قلوب الأعقاب فأتمرت دائما الكره لآل هاشم في الجاهلية وبعد الاسلام .

وأبى رسول الله على المسلمين ان يعودوا بقتلاهم الى المدينة بل أمرهم ان يدفنوهم حيثما وقعوا صرعى . وراح هو يجهز حمزة بنفسه حتى اذا فرغ وقف عند رأسه بقول قبل ان يدلى به فى قبره :

« لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ... ولئن أظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !... »
وقال الناس من حوله :

« بل مثله يا رسول الله لا يمثلها احد من العرب قط » .
ولكن الله رباً بنبيه عن الضغينة والانتقام فأوحى اليه ما يتفق وطبيعته السمحاء :

« وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك الا بالله ... »

واقبلت صفية وقد نما الى سمعها ما أصاب أخاها ، فأبت رحمة رسول الله وبره بها الا أن يأمر ابنها الزبير :

« القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ... »

فأسرع الولد اليها بأخذ عليها الطريق :

« يا أمه ، ان رسول الله يأمرك أن ترجعى » .

فرفعت اليه بصرا غاض دمه وبان في نظراته العزم ، وقالت

تسأل :

« ولم ؟ ... »

« ان أخاك » .

فضربت له أروع الأمثال في الصبر والاحتمال وهي تجيبه :
« قد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما
كان ... لأحسنين ولأصبرن ... »
ومضت الى جنة حمزة وهي تسمع رسول الله يأمر ابنها قائلا :
« خل سبيلها ... »

١٠

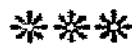
لم تكن أحد آخر المعارك التي كشفت عن حقد بنى أمية وان
اخفى هذا الحقد بعدها زمانا تحت رماد الطروف التي جردتهم وقتا
من سلاح الانتقام . ولكن الجمرة - مع ذلك - ظلت متقدة وان كان
اتقادها أخذ يبدو في آونات على منحى لا يجعلها ذاكية الضرام طائرة
الشرر واللهيب الى من حولها من آل محمد ، بل كانت تحت رمادها
تثر وتستعر مدخرة أوارها الى يوم مرتقب ليس على أصحابها ببعيد ،
لأن النصر ، الذي أخذت ترقى في سلمه الدعوة الاسلامية ورجفت منه
قلوب الأعداء أجمعين ، ومن بينها قلب أبى سفيان وآل بيته الشائنين ،
خلفهم مسلوبى القدرة على كفاح الاسلام على النمط الذي يرجون ،
عاحزين عن النيل من محمد وذويه كمشيئة الأحقاد والأضغان .

ولم تكن أحد كذلك آخر المعارك التي برزت فيها بطولة على وبذله
وتضحيته - لا ولا أولها . ولكنها كانت القارعة التي امتحنت فيها
قلوب أبطال مغاوير . ثم علا بمحنتها قلب هذا الشاب على جلد قلوب
كافة من كانت جرت بذكرهم أحاديث الناس في أنحاء الجزيرة العربية
حتى طوقتها من الاطراف والحدود . فما من أزمة وقعت فيها الدعوة
الاسلامية أو تعرض لها رجالها المخلصون الا كان على مفرجها أو صاحب
الشان الأول بين العاملين على كشف غمتها عن النفوس والقلوب . .
وما من موقف تطلب في أيام الصراع بطولة الأبطال الا قاد ابن أبى طالب
فيه الصفوف وجمعت عزيمته الماضية شعث عزائم الرجال . بل كان
هو أحيانا المتقدم حيث تملأ الخشية والرغبة النفوس فيفئ بهذا
التقدم الطمأنينة عليها ، ويعيد اليها ما كاد أن يطير عنها من روع . .

وليس نبأ حصار المدينة بالصحيفة المطوية من صحائف الشرف في الدعوة الإسلامية يوم أن اجتمعت قريش وأحايشها وأحلافها من يهود يثرب يطوقون بلدة الرسول وفي عزمهم أن يضربوا الضربة التي لا يكون بعدها للإسلام قيام .

اجتمعت الأحزاب جميعها على محمد ، واتحدت كلمتها وقوى من عزائمها أن انضمت إليها قبائل اليهود الضاربة على حدود المدينة وكانت من قبل في حلف محمد حتى رات اجتماع الكثرة عليه فآثرت أن تمائلها ، وأصاب المسلمين من هذا الاجتماع الساحق خوف أيما خوف حتى جرى في الخواطر أن يتآلفوا بعض الكفار بشيء يدفعه اليهم النبي لينفضوا من الحصار ثم تغلب أخيرا الاعتداد بعزم النفوس وبالنصر المرموق الذي لا بد أن يوليه الله حزبه المختار فأقبل المسلمون جميعا وفيهم نبهم يعملون كرجل واحد بمشورة الفارسي سلمان ويحفرون حول البلدة خندقا يحميها من جيوش الأعداء .

واقبلت قريش في جمعها اللجب يملأها الفرور وينفج منها الكبر الأوداج والنحور . وتهيات للهجمة التي توقع الذعر والاضطراب في صفوف هذه الفئة القليلة التي وقفت لها بالمرصاد . ما اعتاد جيشا وما أصخبه رعدا وأوفره عددا ! للمسلمين بلقائه أو بالشبات له طاقة ؟ . لولا أن عصم الله عيونهم أن تزيغ وقلوبهم أن يربن عليها الجزع لقد كادوا أن يرتدوا أمامه مدحورين .



وكان الخندق أسلوبا فارسيا في الدفاع ليس للعرب به قبل يومهم هذا عهد فوقفت قريش أمامه مذهولة ثم مسلووبة الحيلة ، لا تستطيع أن تتجنازه إلى الدين عسكروا خلفه أن لم يستحل عليها اجتيازها ، ولا تستطيع سيوفها أن تنال من رقابهم كما حسبت حين أقبلت بجموعها تروم القتال . ولم تملك هذه الحشود المجيشة بازائه إلا أن تقدم رماتها يستهدفون المسلمين الرابضين خلفهم فيجيبهم هؤلاء من ورائه نبلا بنبل . وطال هذا التراسق بين الفريقين لا ترجح به لأيهما كفة . ودب في نفوس قريش الملل من فتور الصراع ، وضاق

أمرها عليها . وخشى ذوو الحكمة أن يبرد حماس مقاتلتها فذهبوا يتذرعون إلى إخراج المسلمين من مكانهم بكل وسيلة حتى أعيتهم الحيل ولم يجدوا مناصا من اصطناع الجراة عساهم يعملون أسلحتهم فيهم على النحو الذي يريدون .

وكذلك تقدمت من بينهم عصابة ، هي أشدهم وأجلدهم على الصراع والصيال فامتطت الخيل ، وسارعت تضرب أجنابها إلى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة أن تفتحها كي تكون مجاز بقية جيشها إلى المدينة .

ولكن عليا كان كدابه اليقظ الذي لا تفوته من عدوه حركة أو لفطة . في سرعة الصوت قفز بجواده على أولئك المجترئين لم يشبه عنهم أنهم جماعة وهو فرد . ولم تذهله المفاجأة التي اندفعوا بها يقتحمون الخندق على المسلمين قبل أن ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره . وكالبرق طاح بينهم سيفه اللماح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل أنهم مروعود بمثله . وكأنما أعادت حملته الصادقة إلى نفوس أصحابه الوعي الذي عاب عنهم هنيهة فسارعوا إليه يسرون في أعقابهم ويدفعون حتى فرت خيل المشركين ولوت أعنتها لتعبر الخندق إلى صفوفها مرتدة .

لا بد أن يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صلفها ومن كبريائها ولا بد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها في يومها طعما . وكان أكثرها شعورا بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذي قاد عصابة خيلها فاقتحم الخندق عزيزا ثم انشنى فاجتازها مدحورا ذليلا . لم تعد القضية الآن في حساباته قضية قريش بل أصبحت قضيته هو . . . قضية الذكر الداهب في أنباء البطولة إلى السماء ، والصيت الذي تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواة في كل الأنحاء . . قضية السيف الحاصد البتار كأنه شعلة نار . والرجل الذي لا يقومه قومه بين الرجال إلا بألف من الأبطال . . . قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طمعت في قلبها بأسمى سلاح !

لم تثبت بعمرو قوائم فرسه حتى عاد بها إلى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها ، دارعا مقنعا بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت ثبته وذهوه ، وتنتهبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة وفيها

اعجاب ، ثم لا تكاد أن تستقر عليه طويلا بل تفضي لفرط ما ملا
الاسماع من صيته المرهوب وما جرى من انبائه في النفوس والقلوب .
واشرف الفارس من مكانه على المسلمين يدور فيهم بعينه ،
ويقتحمهم ببصره ثم يهتف بهم في صوت داو مروع كالزئير :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ » .

لكأن كلماته هذه كانت نداء الموت !... ما من رجل سمعها الا
رجف لها بدنه وان كان بين عسكر مناصريه . او كابها قد أغلقت دونها
الاذان فلم يجر لها جواب على لسان .

وأرسل عمرو فرسه تميس وتختال امام الصفوف ، ورسول
الله واقف يدعو ربه الا يتقدم أحد من رجاله لتلبية النداء .
والمسلمون مشفقون صامتون وفارس قريش لا ينى يتفرس في
وجوههم بنظرات الزراية والمكاء .

وعاد الرجل ثانية يهتف :

« الا رجل يبارز ؟ » .

فتقدم على هذا النداء على بن ابي طالب . لئن دفعه رسول الله
ورده في الاولى فما هو براده الآن وقد تخلف عن قبول التحدى غيره
من الفرسان .

قال متوسلا لرسول الله :

« انا له يا نبي الله »

ولكن النبي كان ضنينا به على سيف ابن عبد ود فدفعه ثانية وقال :

« انه عمرو . اجلس ! »

فجلس مطيعا وبوده لو استطاع سبيلا الى العصيان .

وعاد عمرو يصيح ، وقد بدا له أن يمعن في التهمك كما يشاء :

« يا اصحاب محمد !... أين جنتكم التي زعمتم انكم داخلوها

اذا قتلتم ؟ ... افلا يريدونها رجل منكم ؟ اما منكم من يقدم ؟ »

فعاود على توسله النبي وقلبه يأكله التلهف على مقابلة هذا

الخصم المرهوب :

« انا له يا رسول الله ... ائذن لي »

« انه عمرو . اجلس ! »

على هذا النحو من النداء والاستجابة جرى الامر مرارا . ومحمد

يأبى عليه حبه عليا أن يخلى بينه وبين صناديد العرب ، والمسلمون

جميعا لا يكاد أن يرتفع من بين ابطالهم المشاهير صوت يلبي دعوة ابن عبد ود الى الاحتكام للسيف ، لفرط ما قر في الأذهان من اجادته فتون الطعن . ولكن عليا وحده . . . الشاب الذي لما يكتمل شبابه وخلع بالأمس فحسب عذار غلومته له تسكته الرهبة ، ولم يقف به الخوف لأن له قلبا لا يعرف الرهبة والخوف ، وله اعتداد بقدرته فوق كل اعتداد ، وله بصيرة مرهفة كحد السنان علمته أن هذا التلكؤ عن البروز لعمره فيه الشر غاية الشر لأنه سيدع النفوس فريسة خوف اخف من أثره وقع الموت - اذا شاع أفقد الرجال حب القتال ، وأورثهم التشييت بالحياة ولم يقم عمد الاسلام حتى اليوم إلا حرص رجاله على الموت !

لذلك ما أعاد ابن عبد ود دعوته حتى هب ابن أبى طالب يعيد التوسل الى نبيه :

« ايذن لى يا رسول الله »

« انه عمرو ! »

« وان كان ! »

ويخلى النبی أخيرا بينه وبين غرضه ، فكانما أصاب الشاب بهذا الاذن خير دنياه ! ويقف الرجل المدل بماضيه ، التياه على العالمين بصحائف بطولته ، المعتر بجبروته وصولته أمام هذا الحدث فيستهيئ به ويستصغر شأنه ويقتحمه بعين ساخرة ثم لا يرفع سيفه أنفة وكبرا ، ويقف على رابط الجأش ثابت الجنان كأن ما يبدو من صلف عمرو ليس يعنيه ، وبحسبه أن يتربث بهذا الفرس الشاکی الفارق فى زرده وحديده ، ويصبر حتى يكون منه بدء القتال لأنه هو لا يحب لنفسه أن يكون البادىء سل حسام .

ويعجب عمرو لهذه الجرأة التى دفعت اليه هذا الغلام فيقبل عليه يسأله : « من انت ؟ » .

فيرميه بالجواب فى اقتضاب :

« على » .

« من عبد مناف ؟ »

« ابن أبى طالب » .

فتعطف الفارس عليه الشفقة ، ويقول :

« ابن أخى ! .. قد كان أبوك لى صديقا » :

ولكن ساعة الضراب تنسى الأنساب ! .. لا يدع على لعواطفه سبيلا
على نفسه ، بل يقول جادا فى حزم :
« يا عمرو ! » .

« أى ابن أخى ! » .
« انك كنت تعاهد فومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلال
ثلاث الا أجبنه الى واحدة ... » .
« نعم هذا عهدى » ...
« فانى أدعوك الى الاسلام » .
فضحك الرجل :

« وأترك دين آبائى ؟ .. دع هذا عنك » .
« أو اكف يدى عنك فلا أفتلك ، وترجع ! » .
فملك الرجل غضبه قدر وسعه . يالجرأة هذا الغلام اذ يخوفه
نفسه ! وقال دهشا وهو يظهر الأناة :

« تكف عنى وأرجع ؟ .. اذن تتحدث العرب بقرارى » .
« فانى أدعوك الى النزال ... »
وكانت بالفارس بقية من صبر وبقية من شفقة ، فقال ملاطفا ،
وهو يؤمن بالفارق بينه وبين قرنه ، ولا يرى شرفا فى قتاله :
« ولم يا بن أخى ؟ .. غيرك من أعمامك من هو أسن منك ، وانى
أكره أن أهريق دمك » .
« ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك ! » .

هنا غلت مراحل الفضب فى صدر عمرو على هذا السليط
الساخر ، واستل سيفه المشهور ، ثم أقبل ينزل به كالصاعقة على
رأس على فما أسرع ما استقبل الشاب الضربة العاتية بدرقته حتى
قدت ، ونفذ منه الحد الى رأسه فشجه . ولكنه مع ذلك استطاع ان
يحافظ بثباته . وأن يحيد عن ضربات فارس العرب مرات ثم يكر
عليه بحسامه فيصيب حبل عاتقه .

كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذى ينتظر الشاب ،
عالة به قبل وقوعه . وكان المسلمون مثلها منذ بدأ الصراع وان
استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المنازل الصغير ... أجل فلم
يكن بين كلا الفريقين الا من هو مؤمن أشد الإيمان بإضافة عمرو ضحية
جديدة فى عداد ضحاياه . ولكن الله بدل حدسهم جميعا ، لأن العيون

وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقا فى الاخلاص والظنون ... سقط عمرو وقد هدته الضربة ، وثار لسقطته الغبار الى جوار اقدام على كما يشور لحركات ثور ذبيح ! ... ومن بين الفبرة التى ارتفعت علا صوت ابن أبى طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الآلاف من عسكر المسلمين .

١١

اقدام حيث لا معدى لغيره عن التزام الاحكام .
هذه ناحية من خلق على ، واضحة الملامح جليلة ، رفعتة فى مجالى الشجاعة على الناس ، ان أدلى بالرأى أو هز السيف .
ومع ذلك فلم تكن فى الشاب دفعة ، ولا تهور أو طيش . ولكنه كان يصدر فيما يأتیه دائما عن حكمة خفيت عن نفوس الناس ، وشعور كأنه الهام يوفى به على احكام التقدير عند اقتحام المعامع أو معالجة الأمور . كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له ، ولكنها كانت أيضا لمحة تسبق ما يستخلصه سواه بعد اعمال فكر أو موالاة تدبر ، وتصل به سريعا - وغيره لم يزل بعد فى بدء التفكير - الى النتائج العسيرة على العقول حتى ليحسبه الناس يجنح الى اعتساف الحلول . وكانت تقوده دائما بديهة صافية ، ويسدد خطاه قلب ملأته الثقة بقدرة صاحبه وان كانت هذه صفة تعدل الغرور فى نظر مغلولي الصدور ! .
اجل رفعتة صفته تلك وعلت به على اقدار الناس ، وكان لها صدى فى نفوسهم يتفق وامبال هذه النفوس ... بعضها استجاب له معجبا مواليا ، وبعضها اضله الحسد فقلبه عائبا زاريا ، والناس دائما امام البطولة اثنان : مكبر حامد وزار حاسد ، وان كانوا الى الثانية ، غالبا اميل .

لذلك لم يكن عجبا ان تنطوى اكثر الجوانح على الحسد لهذا الشاب الذى عز على القوم ان يلتمسوا فى ابطالهم له الضريب دون الاضراب . حتى بين صحابة الرسول لم نعد ان نجد له حاسدين لا يستطيعون الاخفاء وان حرصوا جهدهم على هذا الاخفاء . وكان النبى يلمس فيهم

الكثير من أمثال هذا الجنوح فلا يفتأ اليوم بعد اليوم يتحدث لهم بفضل على ويقص عليهم من قربه الى قلبه ما عساهم به يرعوون عنه . ولكنهم كانوا عبيد طبائعهم ، ينقمون على الشاب الفضل الذي خلت منه نفوسهم او لم يستطع فضلهم أن يسير واياه في ميدان . ولئن رأينا العجب في أن يعمل بعض صحابة الرسول هكذا مع الهوى ، فأعجب منه أن نرى في آل بيت الرسول من يجري جريهم وينزع مثل منازعهم . وهكذا الزبير بن العوام - وأمه صفية عمة على - يكاد يتصيد الهنات ليلصقها بابن خاله كأنها أسوأ الصفات . خرج ذات يوم ورسول الله يسيران فاذا بهما يلقيان عليا ببعض الطريق ، ويضحك محمد لابن عمه محيا فيجيبه هذا ببسمة ثم يمضي لشأنه . فكأنها كانت وزرا هذه البسمة . يأبى الزبير الا أن يتلقفه ليغضيه من شأن قربه المحسود ! . . . يقول لرسول الله بكلام ناعم ليس يخفى معناه :

« يا رسول الله ، لا يدع ابن أبي طالب زهوء »

فلا يستطيع محمد أن يسيغ منه القول على ظاهره ولا باطنه وهو الذي لا تخفى عليه مكامن القلب ولا مجهول الغيب ، بل يرد عليه :

« انه ليس بزهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم »

وما كان على المزهو ولا بالمستعلى كبرا على الناس ، ولكنه الاعتداد بالنفس والثقة تختلف مقاييسها في أعين الناس بين حامد وحاسد . ركب نفسه ، طوال عمره ، بالرياضة والنسك حتى أسلمت له الزمام ذلولا يعصياها ولا تعصيه وان أرادها على اجتياز المهالك وأوعر المسالك ، وهذه منقبة فيه كان حريا أن تلف حوله القلوب وتعطفها عليه . ولكنها كانت في أنظار الكثيرين منقصة ، ألا أولئك الذين تجردوا عن الهوى . وكانت له هو سر فوزه دائما على محبيه ومغضيه على السواء ، وظهوره حيثما خبا لهم نجم وطاش سهم .

كذلك رأيناه في بدر يستبق المسلمين الى رءوس كبار المشركين ، وفي أحد يثبت كالجبل الراسخ امام السيل الذي كشف عن محمد أجلة صحبه وأبطالهم ، وفي الخندق يكون وحده البادرة التي آذنت بهزيمة قريش وكسرت قلوبهم اذ أصمى بسيفه صناديد الجزيرة العربية عمرو بن عبد ود ثم نراه - بعد هذا - هكذا دائما ، لا يسبقه الى فضله سابق ولا يلحق بفباره لاحق . بترددون ولا يحجم ، وينكصون ويتقدم . يسير النصر امامه ويسدد التوفيق اقدامه .

بعث الرسول الكريم أبا بكر الصديق الى خيبر ليفتح منها حصن ناعم ، ففضى الرجز وجنده بومهم يناوشون اليهود لا يستطيع أن يثلم فى أسوارهم نلمة أو يتحين منهم غرة فعاد بكتيبته غير موفق . فلما كان اليوم الثانى أمر الرسول على الكتيبة عمر بن الخطاب وعقد له اواء الحرب ثم أرسله . ولكن بانى الصالحين لم يصب خيرا مما أصاب زميله ، بل عاد هو الآخر كهودة أبى بكر ، وخلف الحصن مفلق الرتاج . ثابت البنيان وطيد الأركان .

وجاء اليوم الثالث فاذا النبى يدعوا اليه عليا ويقول له : « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ... »

فتقدم فى التورجالة ، ومضى يعدو الى الحصن العصى . لم يلق ملائنة من ايهود أو تريثا حتى يروده يهجم ، بل وجدهم يبادرونه بالقتال . خرجت فرقة منهم فسدت على المسلمين مسالكهم الى الحصن وذهبت نساولهم ولا هم لها الا هذا البارز أمام الصفوف يتقدمهم غير هيب ، ولا تكاد اعين ان تلمح منه حملات اسيف أو حركات الدرع بين طعن ودفع وقد جاءت لحظة على هؤلاء اليهود ظنوا ان قد ظفروا بماربهم وأوشك النصر ان يلوذ بهم حين تكاثروا على الشاب واستطاعوا ان يسقطوا من بده ترسه وسارعوا نحوه ، وهو مكشوف الصدر أمام نصالهم . محاولين ان يتخذوا من جسمه أهدافا . ولكنه كن أسرع فدما ، وانقضى عينا . استطاع فى لمحة بصر أن يميل عن طعنات مناوئيه ، ثم يلوذ بجانب من الحصن غير بعد وفى لمحة أخرى وسعه أن يخلع بابا من جدار . وفى لمحة ثالثة شاهده اليهود قد كر عليهم قبل ان تتبين حركة من حركاته أو تنتبه لخطوه : سيفه فى يد ، وفى الأخرى الباب الثقيل يترس به عن نفسه بدل الدرع المفقودة ، ينشر بينهم الموت وهو لا يكل ولا يصيبه الجهد حتى انطرحوا صرعى تحت قدميه ، واتخذ من الترس العجيبة — بعد هذا — قنطرة الى داخل الحصن تبعه عليها أصحابه ، ثم تم الفتح .



على هذا المنوال كانت حياة على مثالا فذا من البطولة منذ اشرق فجر حياته على دنيا التاريخ . وكانت سيطرته على نفسه هى رائده الأوحد الى هذه البطولة ، لا يعنيه الا ان يفعل ما دام يؤمن بمقدرته

على أن يفعل ، وكان دائما يؤمن بهذه القدرة التي جربها فلم تخنه مطلقا في مرة . وما أحسبه كان مستطيعا غير هذا وهو الذي شب في اكناف رجل وقف بمفرده امام عالمه بغير سلاح الا ايمانه .

انما نحله محمد بعض النقة التي سلحه بها الله واضفى عليه من سوابغها آيات . ولئن كان على قد برز على انداده في هذه البطولة المادية فلقد توفرت له منها - فوق التوجيه النفسى - طوابعها الجسدية التي كانت تنسئ دائما بما فيه . كان الفتى في الاقران شديد البنيان، موفور القوة الى مدى لا يصل اليه قرين ولا اقران . وبحسبك ان تسمع حديث التاريخ يلقي على مسمعك فى قصة حصن نامم أن بضعة عشر رجلا من اصحابه حاولوا ان يحملوا الباب الذي كان ترسه فناءوا به ! .. وكان ضخمة عضلة الساق ، أميل الى القصر فهو بصفتيه هاتين اثبت فى موطئ قدميه واشد رسوخا ، ملئ عضلات الاعضاد مكتلها حتى يستطيع ان يخطف بذراع واحدة فارسا عن فرسه . وان كان دارعا فى الحديد . فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط ، ثم يقذف به كالكرة الى اينما شاء ! .. وكان آدم شديد الأدمة وان كان الى جانب هذا حسن القسمات كثير البسمات ، على محياه مهابة ، كبير العينين ، لنظراتهما الساطعة فى قلوب مشاهديه نفاذ .

وكان هذا الاعتداد بالنفس الذى ميزه فى بطولته المادية صاحب الاثر الاكبر فى تشكيل بطولته المعنوية . كان يرى الناس من خلال صفاته هو . ويزن اعمالهم على النمط الذى بود منهم ان يزنوا اعماله على منواله . ميزانه دائما الحق الاسمى لانه رجل وهب حياته للذود عن هذا الحق وحاسب دواما نفسه والزمها سبيله .

لهذا لم يعرف مطلقا كيف يهادن او يداور ، بل كان يلقي بالراى صريحا ، واضحا ، قاطعا كالسيف ولا يابى اباء باباء ام حاز الاعجاب . وانما كان يلقي به ارضاء لضميره المرهف واعلاء لكلمة المثل الأعلى الذى اعتنقه ولقد جعله حبه الصواب الامثل مثالا لا يبارى فى شفافية النفس حتى لا تخفى عن عواطفه خافية لان ملامحه ذاتها كانت تنطق بالراى قبل تكونه على شفتيه كلمات ... كان قلبه على لسانه . ولعل اشد ما امتحنت به صراحته وكان له ابعد الاثر مستقبلا فى حياته ، هو رايه فى حديث الافك غب رجوع المسلمين من بنى المصطلق .. جرت حينذاك السنة السوء فى عائشة ، وتقول عنها

الناس عن صفوان السلمي لأنها تخلفت في الطريق لبعض حاجتها ولم ينتبه لتخلفها أحد ففاتتها القافلة حتى قيض لها صفوان مارا فخلى لها عن بعيره وحملها الى المدينة .

لم تكن القصة لتذيع ، وما كان بها ما يخشى ذبوعه ، لولا فئة المنافقين التي أخذتها وسيلة لا يذاء محمد في سمعة زوجه وكانت عائشة صغيرة السن ، مليحة ، أثيرة على النبي حتى كنت محور غيرة أزواجه الأخريات ، والفيرة دائما سمعة . وليس أجرى على لسان النساء وأحب الى قلوبهن من الخوض في أحاديث النساء !

أما النبي فقد أخذ نفسه بالصبر في البدء عسى أن يصمت الهمس . ومضى يصطنع الحلم والأناة ، ويصطنع الهدوء ، ويكظم في ذات نفسه ما يعانى . ولكن الهمس لم يصمت بل استشرى كالنار وذاع . وامتلات بحديث الأفك محافل المسلمين بعد محافل المنافقين . وتأذى محمد وتألم ، وتأذى له خلصاؤه . وكان على من عرف للنبي إيثارا وحبا فبلغ ألمه من أجله غاية مداه . لم يستطع أن يرى محمدا هكذا مضغة في أفواه القوم بسبب فرد مهما كان في العالمين ، ان كانت عائشة أم المؤمنين . ولم يكن يلقى عليها شكاً ولا يتهمها بسوء وإن تطايرت حولها القالة . ولكنه كان يعلم ان المرأة سيرة ، وأن الظن شية ، وعسير أن تنفى الخدس والظنون من أفهام الناس .

لذلك ما كاد النبي يستشير في الأمر حتى قال بلا مواربة :
« يا رسول الله ، ان النساء لكثير . وانك لقادر على أن تستخلف .
وسل جاريتهما فاتها ستصدقك » .

ولقد نزل في عائشة بعد هذا قرآن ينقى صفحتها ويبرىء ساحتها فأقبل المتقولون على أنفسهم يتلاومون ، تائبين نادمين ، وراح حديث الأفك دبر الأذان . ولكن عائشة بدت كأن لم تنس لابن أبي طالب ما كان من مشورته كأنها كانت تود أن يقطع ببراءتها رغم أن زوجها رسول الله لم يعجل بهذا حتى اتاه برهان الله ! . . . وانا لنراها لهذا تكرهه طوال عمره ، وتنقم عليه حتى آخر نسمات حياته ، وتحملها نقيمتها هذه على فض القلوب عنه وجمع السيوف عليه . وما نحسب كل هذا كان وليد رايه عن قصة الأفك فحسب لانه لم يقل الا ما كان جديرا به أن يقوله ، ولم يخالف - اذ قال - ما بدا اذ ذاك من توجس الرسول . ولكن عائشة كانت ، قبل كل شيء ، امرأة لها طبيعة

النساء . تغار كمثل غيرتهن . فاذا عرفناها تعلم قرب على من قلب زوجها قربا لم يبلغه منه أدنى الناس حتى كانت تسأل :
« أى الناس أحب الى رسول الله ؟ »

فتجيب :

« فاطمة »

« ... من الرجال ؟ »

« زوجها ... »

إذا علمناها كانت تعرف هذا القرب بين قلبى زوجها والشاب ، ثم علمناها غريرة صغيرة حين أعرس النبى بها ، لها جموح مثيلاتها من غريرات صغيرات لم تر عجبا فى ان تغار على زوجها من على وقد طالما رآته يحبسه عنها أكثر الوقت ثم لا تراهما الا فى رفقة ... فاذا مر الوقت زادت الألفة بين الرجلين وكان قمينا بها ان تبلى جدتها . وكانت هى تمنى النفس بأن تملك وحدها وقت محمد خلال الفراغ ، فاذا بها ليست تملك الا بمقدار الثلث لأن لعلى وفاطمة فيه نصيبين ! حتى اذا دار الزمان وولى عهد الرسول لا نلبث ان نرى عائشة أميل الى النعمة على ابن أبى طالب منها فيما مضى ، اذ وجدت فيه - فوق ما أثارها عليه من قديم - ذلك المنافس العنيد الذى قام ينازع أباهما صولجانه ولا يقر سلطانه ...

١٢

استطاع الاسلام بعد الخندق ان يقف على قدميه : ان يثبت ، ثم يسير الى الامام .

فلقد اوقعت الغزوة هيبتة فى قلوب اعدائه لانهم جربوا حماته ، وعرفوا مدى العزم فيهم قبل ان يرسل الله على قريش واتباعها جنود الريح تقلب قدورهم . وتطفئ نارهم ، وتقتلع مضاربهم من ارضها اقتلاعا ..

واوقعت الغزوة ايضا الحذر فى نفوس المسلمين فباتوا لا يأمنون على انفسهم احلافهم القدامى : قبائل اليهود الضاربة على تخوم المدينة ، الذين جعلوا البلدة تحت رحمتهم ، ان شاءوا منعوها أو شاءوا اسلموها .

ولم يكن محمد بالذى يحب الاعتداء أو يسيفه فحرص جهده - منذ البدء - على أن يكون وأصحاب الكتاب هؤلاء على أطيب الصلات ، علما منه بأنهم أصحاب دين الهى قلوبهم أميل الى الانتصار للاسلام منها لنصرة عبدة الأصنام . ولكنهم كانوا قوما حاسدين باغين ... أعماهم تعصبهم عن المحجة فقاموا ينتهزون كل غرة للايقاع بمحمد والاتفاق مع أعدائه المشركين على كفاحه .

لذلك لم تكد جموع قريش ترتحل عن الخندق وقد نبا بها المقام ، حتى نادى منادى رسول الله فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة . . »
وقدم النبى عليا اليها برايته والمسلمون يترسمون خطاه فى افواج ، وأولاهم الله نصره العزيز . وأباحهم من بنى قريظة أعناق رجالها يضربونها ورقاب نسائها ... ثم أولاهم نصره العزيز ثانية . وما زال يوليهم اياه كلما ساروا ، يوما بعد يوم . الى فئة من هؤلاء اليهود حتى لم يعد ذكر لقريظة ، أو المصطلق ، أو النضير أو أى من المسميات التى عرفوا بها ، وطهرت منهم الأرض .

وهكذا أمن الاسلام شر عدوه الذى طالما استتر تحت ثوب صديق . ثم أمن شر قريش ، ذلك العدو انسافر المبين ، الى حين ... فلقد كانت قريش أعيانها القتال وامسحها النضال ، فلما جاءت السنة السادسة من مكث محمد بالمدينة وراته بنفلة فى رجال كثر فيشرف بهم على مكة أو يكاد وهو فى طريقه بهم الى حج البيت ، خشيت أن هو دخل عليها بلدتها ولم تمنعه تقولت عنها العرب ، وأن وقفت دونه تسد عليه الطريق وتحول بينه وبين ما يريد رفع السيف الى رقابها . . وكلا الأمرين عليها شديد ! ...

وفكر سادتها وأعملوا الفكر . ما كانوا بمستطيعى قتاله ، عامهم هذا ، وهم منهوكون القوى قد اكلت الحرب منهم مأكلا ، وما كانت كبرياؤهم لتلين أمام تقدمه بهذا الجحفل المنشود وتخلى بينه وبين البلدة بدخلها عليهم بدون قتال ... أن الجزيرة لن تصدق أن محمدا دخل مكة عن رضا من قريش بل سيذهبن فى الافاق انها طاطات رعوسها راضخة لأنها تخشاه .

استطاعوا أخيرا أن يصلوا الى الراى الذى يحفظ عليهم كلثا دمائهم وكبرياتهم ، فقرعهم على مهادة محمد على أن يرجع عنهم

عامه ثم له عود في الموسم القادم ان شاء . ولم يكن محمد بالذى يخيب رجاء أو يرد حجة . فاستقبل رسولهم وراح ينصت اليه ويحسن الانصات ، وراح سهيل بن عمرو يناشده حق الدار ، وحق العشرة ، وحق قومه الذين خشوا أن يقتحم عليهم بلدتهم عنوة فلا ترتفع لهم مكانة بعدها في نظر الناس . وتحدث الرجل طويلا ، ووسع حلم النبي كل حديثه وكل مطبئه . وتم الاتفاق بينهما الا يعدو منهما فريق على فريق ، وأن يضعوا الحرب الى أجل معقود ، وأن يرجع رسول الله بالمسلمين الى المدينة هذا العام ثم لهم عود الى زيارة البيت بعد عام ...

ودعا رسول الله عليا ليكتب لهما العهد .

قال له ممليا :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ... »

فقطعته جهالة الجاهلية على لسان سهيل :

« بل ، باسمك اللهم »

قال محمد موافقا :

« باسمك اللهم ... » ثم مضى يملأ : « .. هذا ما صالح عليه

محمد رسول الله ، سهيل ... » ولكن رجل قريش عاد يقطع عليه الاملاء .

« امسك ! ... فلو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ... بل

اسمك واسم ابيك »

فقال رسول الله لعلي يأمره :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله .. »

وكذلك أصبح عهد الحديبية موثقا ، وأمن الاسلام عدوه المبين

الى حين ، فاستطاع محمد أن يفرع لتنظيم دولته واعداد العدة

لمستقبلها ، كما استطاع من اراد من القبائل أن يحالف المسلمين أو

يحالف المشركين فلا يصيبه من الفريق الآخر عدوان ولا يجرى عليه

اكراه .

ولكن قريشا لم تكن لتستطيع أن تنزع عنها ما ركب في طبائعها من حب العدوان ، فلم تلبث حين سرت إليها الأنباء بأن المسلمين في مؤتة سقط الكثيرون منهم صرعى على أيدي الروم ، أن ظنت الاسلام قد أصبح مهيب الجناح سهل المنال ، غير منيع ولا مرهوب ، لا يقوى رجاله أن يدفعوا عن أحلافهم ومن في عقدهم من الناس ما داموا قد عجزوا عن الدفع عن أنفسهم .

كانت بنو بكر في عقد قريش ، وكانت خزاعة في عقد الرسول فعدت أولاهما على الثانية فأصابتهما منها بئس قديم . وكان شبان قريش قد علموا انباء مؤتة فحفزهم ما ظنوه هزيمة المسلمين على أن يقتصوا منهم في أشخاص أحلافهم الخزاعيين وفي حساباتهم أن محمدا ليس بقادر على رد العدان . ولكنهم لم يصيبوا الظن وان أصابوا العدو ... بل كانوا في بغيهم مسرفين إذ تبعوا من خزاعة رجالا تحصنوا بالحرم فأعملوا فيهم الاسياف ، لا يمنعهم عن الايذاء قدسية البيت ولا حرمة المكان .

وأسرع عمرو بن سالم الى رسول الله بمسجد المدينة ، وأسرع بعده بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة يقصون على محمد نبأ من قتلت قريش الباغية وأحلافها منهم ، ويستنصرونه على أن يقيم الحد على من نقض العهد .

هي الحرب اذن تأخذ من قريش مأخذها نصرة لأولئك المظلومين ، واثارا لكرامة المسلمين ... كذلك توقع الناس ، وقرأوا في الفضبة التي شاعت آثارها في محيا الرسول وهو ينصت الى شكايه المظلومين . ورفع رسول الله بصره الى رجال خزاعة وقال :

« لا نصرت ان لم أنصركم مما أنصر منه نفسى ! ... »

وراحت توا فرحة النصر الرخيص الذي استشعرته قريش من وراء العدوان ، حين فتحت عينيها على ليل حالكة باتت فيه على قلق لا تعرف مداه كلما أجالت في أذهانها الخطة الفامضة التي لابد أن يتخذها حيالها محمد . ان حماس شبابها لن يثبت للمسلمين في ميدان . وان محمدا ، الذي لم يعهدوه نواما على الضيم وهو منفرد وحده أمام جموع المناوئين ، لن يغضى لهم ايوم عن الاساءة وقد أصبح القوى العزيز السابغ السلطان .

ثم عجمت أعوادها وتخيرت من بينها السهم الذي ظنته يصيب .

كان لابد لها من مخلص من هذا الحرج الذى وقعت فيه ومنجى من العاقبة التى جرها عليها طيش الشباب فيها وغفلة الشيب . وليس بعاصمها من غضب محمد سوى اريب ماهر وداهية مداور ، يستطيع أن يصل بحديثه الى قلب محمد الرقيق الكريم قبل أن يصل الى أسماعها .

وهكذا اختارت قريش شيخها أبا سفيان بن حرب . ففى الرجل دهاء ، وفيه مداورة ورياء ، ثم هو قبل هذا وفوق هذا له بمحمد أواصر قريى تصل الى الأجداد ، وتقرباطها النسب مذ تزوجت ابنته أم حبيبة برسول الله ... ولعن ما يشكل على السياسة حله يكون هينا مسورا عند انعطاف القلوب بين القريب والقريب .

ولقد وفقت حقا قريش ، باختيار أبى سفيان رسولا عنها الى محمد ، الى اختيار السهم الذى لم يصب وان كانت ظنته يصيب ! . ولكنها على أى حال لم نجد بينها من كان أولى من الرجل بأداء هذه الرسالة والسعى الى رسول الله يترضاه . وكان اختياره فى ذاته توفيقا وان لم يوفق مختارها فى مسعاه ؟ ... وكأنى بمحمد ، ذلك اليوم ، قد تكشف عن بصره الأسجاف التى نغشى ابصار الناس ونجعل نظراتهم لا تنطلق الا بمقدار ... كأنى به - من بعيد - قد اطلع على قريش ، وعلى قلوبها ، وعلى ما طاف بأذهانها من افكار وما أجمعت عليه من اختيار ، حين التفت وهو بمسجد المدينة الى صحبه يقول :

« كُنتُمْ بِأبى سفيان قد جاءكم ، ليشد العقد ، ويزيد فى المدة .. »

١٣

قال أبو سفيان وهو يجلس ، بمسجد المدينة ، امام رسول الله :
« يا محمد . انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا فى المدة » كأنه لم يعرف بنكث قومه ! ...

وقال محمد يجيبه فى هدوء :

« ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ »

« نعم » ...

« فهل كان فيكم حدث ؟ » .

فلم ير الرجل بدا من الكذب فقال :

« معاذ البيت ! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا تغير

فيه ولا نبذل » :

هنا طاشت حيلة ابن حرب ، وعرف أن أسلوبه في الكذب

المداورة مغلوب أمام اليسر والبساطة في هذا الأسلوب !.. ان

كانت قریش لم تنكث فالعهد قائم لا تبديل ولا تغيير ، وان كانت

نكثت فعلى نفسها الجزاء الذى يفرضه النص المكتوب ثم لا تغير بعد

هذا ولا تبديل ! ..

وقام الرجل عن مجلس محمد بعد قليل ، مدحورا لأنه لم يستطع

أن يلتمس الوسيلة الى اقرار ما جاء في شأنه بعد أن يئس من الفوز

بسمع محمد فضلا عن الفوز بقلبه . وخرج يسير ، ويعتصر ذهنه

ويكده عساه أن يطلع عليه برأى رجيع . ولكنه وجد نفسه من ذهنه

المكدود في بیداء لا يستطيع أن يقع فيها على الثمرة المشتهاة ...

احس مقدار عصيان عقله له وخذلانه اياه واستشعر في قرارته

ضغطا لم يقف له من قبل على نواة فتأثت نفسه الى من يشد أزره

ويظاهره ولم يكن يأمل أن يجد بين أسوار المدينة من يقف الى جانبه

أمام محمد ويؤيد القول الذى اختلقه منذ لحظات ، وانما ود لو استطاع

أن يرتد ثانية الى المسجد لينكر في جلاء الحقيقة التى من أجلها

جاء ، والرسالة التى سعى سعيه وهو يرجو لها الأداء . ولكنه آثر

أن يتريث ، وأن يحاول الولوج الى قلب محمد من خلال زوجه - أم حبيبة

ابنته - التى ما حسبها تحب أن يرده محمد على اعقابها الى قومه

بمكة ، يسبقه الهوان ويمشى في ركابه الخذلان ...

دخل عليها دارها ، واهنا منهوكا بعد رحلة منهكة . ومشى شارد

البال في الغرفة بهم أن يجلس ليريح قدميه ثم يدلى اليها بما يشاء .

فما أسرع أن رآها تثب فتسبقه الى الفراش فتطويه دونه ، وادهشته

هذه البادرة منها وحيرته ، فرفع الى وجهها بصرا وان عليه التساؤل ،

وقال :

« عجباً من العجب !.. أرغبت بهذا الفراش عنى أم رغبت بى

هذه ؟ » ..

« به عنك ! » .

فصاح كاللسوع :

« ويحك ! ما تقولين ؟ » .

فلم يمنعهما غضبه من مجابته بالجواب :

« انه لفراش رسول الله وأنت امرؤ مشرك نجس ، فلم احب ان تجلس عليه .. »

فمصمص بشفتيه وقد أعياه ان يرى الصواب فيما تقول ، وقال مغالبا غضبه وهو يهز رأسه هزة أسف :

« يا بنية .. والذي يحلف به أبو سفيان لقد أصابك بعدى شر »
قالت ولم يذهب عنها هدوءها :

« بل هدانى الله الى الاسلام ... »

ولعلها أحسنت به الظن اذ ذاك . أو لعلها عطفتها اليه بنوتها وخشيت عليه سوء المصير ان ظل سادرا فى غيبه لا يتبين مواقع الرشاد ، فراحت تستحثة وتفريه :

« أى أبت ! ... كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وأنت سيد قریش وكبيرها ... وتبعد حجرا لا يسمع ولا يبصر ؟ »
فصاح بها محنقا وهو يغادر مكانه :

« وهذا منك أيضا ؟ ... يا عجبا ! ... اترك ما كان يعبد آباءى واتبع دين محمد ؟ »
« يا عجبا الا تتبعه ! »

تخلى الشيخ عن كبريائه وعاد الى محمد .

ولكنه هذه المرة نان أبعد عن هدفه منه فى الاولى ، اذ طوى عنه محمد كشحا وأعرض لا يسمع منه ولا يقول له .

ثم تخلى عن كبريائه أمام أبى بكر ، ثم أمام عمر بن الخطاب ، يرجو واحدهما بعد الثانى أن يشفع له لدى رسول الله ، فما قبل الأول ، ولا اكتفى الثانى بالرفض دون جفوة الجواب كالمألوف من لسان ابن الخطاب !

ولم ير بدا بعد هذا من الالتجاء الى واتره البغيض ، قاتل حنظلة ابنه ، وثلة أصهاره من بنى عبد الدار ... التجأ وفى نفسه غضاظة

ايما غضاضة اله ، على بن ابي طالب والمضطر يركب الصعاب في
سبيل الاراب ! ...

دخل عليه داره ، وعنده فاطمة : والحسن طفل يدب بين يديها ،
فما استوى به مجلسه حتى قال متوسلا :
« يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وقد جئت فى حاجة فلا
ارجعن خائبا ... »

« فقل يا ابا حنظلة »

« اشفع لى الى محمد »

« ويحك ! ... »

فاربذ وجه الرجل وغاض لونه ، ثم همس :
« الا تفعل ؟ »

قال على بالمعهد من صراحته :

« لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع أن نكلمه فيه ... »
وساد الصمت . وتلفت أبو سفيان حوله محيرا لا يدري ان كان
اولى به أن يقوم ويدع الامر الذى جاء فيه . ومضت عليه فترة من
الوقت لا ينسى ، يتقاسم قلبه الفشل والرجاء . وكان على لا يعرف
كيف يخفى اله لخرج الشيخ ولا يستطيع أن يوليه يدا .. وكانت
فاطمة ترقب ما يبدو على وجه زوجها من رقة ومن اشفاق وان
حرصت على أن تكون بمنأى عما كانا فيه حتى راحت تداعب طفلها
الصغير .

وابتسم شيخ أمية بعد قليل فقد راود ذهنه خاطر جديد .
ان هذا الحفيد الصغير له عند جده شأن بالغ ومكان مرموق . وان له
عند امه حظوة كما لغيره عند غيرها من الأمهات ، وله فى قلبها ،
وفى خاطرها ، وفى خيالها رفعة ترجو ان يصل الى شأوها مع
الايام . فاذا استطاع رسول قريش ان يشير فيها عواطف الفخر
بالغلام فقد وقع اذن على الوسيلة التى يصل بها الى مأربه الذى
يرجوه ...

وكذلك التفت الى الزهراء ، يحدثها وعينه على الغلام :
« يا بنت محمد . هل لك أن تجعلى بنيك هذا سيد العرب الى

آخر الدهر ؟ »

فرفعت بصرها اليه متسائلة :

«وكيف يا أبا سفيان ؟»

« مريه فيجير بين الناس ... »

فقلت بغير اكتراث :

« ما بلغ بنى هذا أن يجير بين الناس »

فراح يحفزها بنبرات ملؤها التوسل :

« يا بنت محمد .. انها دماء قریش يحقنها عليها ان أجار فمريه .

فتذكرها له العرب الى آخر - »

قالت تقاطعه وفي صوتها حزم :

« لا يجير أحد على رسول الله ! »

وسدت بهذا عليه السبيل الى قلب محمد من خلال آل محمد .

ولم يجد هو معدى بعد أن نفدت حيله أن يلتفت ثانية الى على ويقول :

« يا أبا الحسن .. انى أرى الامور قد اشدت على ،

فانصحنى ... »

أجابه :

« والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ... »

« فهل أرجع ؟ »

« انك سيد بنى كنانة ، فان شئت فقم فأجر بين الناس ، ثم

الحق بأرضك »

« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ؟ . »

« لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غيره » .

وقام الرجل يائسا . على أى حال لقد وجد عليا أرحب صاحب

محمد صدرا ، وأصدقهم ، وأحذب عليه من سواه والين قولا ..

ومضى الى المسجد يجير فما التفت اليه انسان . ثم خرج عائدا الى

مكة فى حلقة من هذا الفشل مثل طعم الصاب .

١٤

خاب ما توقعت قريش ، وما أملت أن يتم لها على يد شيخها
أبي سفيان . وأصبحت الكلمة الدائرة على الألسن « الحرب » ..
أما شبابها فقد كان غرورهم ما زال يملأ منهم الصدور وهم يعتقدون
أن محمدا ليس يملك - بعد مؤتة - قوة تدفعه إلى ركوب الصحراء
لاقتحام مكة . وأما أسيافها فقد ركبهم الهم من سوء المغبة التي
أخذت تلوح أمام بصائرهم . فلم تغفل عيونهم خشية أن يتحين
المسلمون منهم غرة . ولم يكن محمد قد جاهر أصحابه بأنه يقصد
التوجه في قتال إلى البلدة الحرام وإن كان قد أمرهم باتخاذ الأهبة
والاستعداد ، فظلت قريش لهذا لا تعرف كيف تقف وبقيت نهبا
للقلق والتوجس . تبعث العيون تلو العيون إلى أقصى ما تستطيع
عساها تأتيا بالأنباء . وكان أبو سفيان دائما أحرص قومه على
تعرف ما يأتي من صوب محمد وعلى تنسم الريح والاستطلاع .
وجاءت أخيرا اللحظة الحاسمة في تاريخ هذا الشيخ الضال !..
كان قد خرج من البلدة ليلا كدابه يستروح الأنباء حتى أشرف على
« مر الظهران » فإذا نيران في الصحراء على مدى البصر موقدة تكاد
أن تختفي أمامها أسجاف الظلام . وإذا خيام مضروبة والوبة منصوبة
وجف لمراها قلب الرجل وأصابه انقباض .
واقبل على صاحب معه يستنبئه ما عسى أن يكون وراء هذا
الزحام فقال له رجما بالغيب :
« أراها خزاعة تأهبت تأهبا وجاءت ثثار . »
فهز الشيخ رأسه غير موافق ، وقال :
« خزاعة ! ... أذل وأقل »
أجل ، فإنها جموع ما رأت مثلها عيناه . وأخذ الخوف على
قومه فأسرع بهم أن يرتد إليهم ليبصروهم بالأمر . ولكنه ما كاد أن
يخطو حتى سمع من ورائه هاتفا يقول :
« يا أبا حنظلة ؟ »
فاستدار ينظر ؟ ثم هتف :

« أبو الفضل »

قال له العباس وقد أقبل عليه ، وهو يشير الى ناحية الضوء :
« أرايت يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس ... »
فصاح مبغوتا :

« محمد ! »

« هو والله ، واصباح قريش والله ! »
فهمس بصوت مبجوح :

« نعم ، واصباح قريش ! »

ثم أردف متلهفا ، يسأل :

« وما الحيلة يا أبا الفضل ؟ »

قال العباس :

« والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فقد تلف العقد .
فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى أمضى بك اليه . فأستأمنه
لك ، وتستأمنه على قومك ... »

تردد الرجل هنيهة ، لا يدرى ايمضى لما اشار به عم النبی
أم يعود قافلا الى مكة .. ووقف يوازن بين كلا انوجهتين ليقرر الى
ايهما يولى وجهه . ايهما اجدى عليه هى ايهما يتخذ بلا ريب .
لأنه تاجر يزن الأمور بميزان الخسارة والرجحان ، وهذه دعوة للحياة
جاءته على لسان العباس . دعوة لحياته هو ، ثم حياة أهله ، ثم حياة
قومه التى أصبحت جميعها فى كف محمد ، لا عاصم لها منه ان دخل
عليهم مكة عنوة وصاروا له صيده المستباح ..

ولم يلبث أن عزم أمره وسار مع العباس بعد ان تبين له رجحان
صفقته ان سار ! ...

ودخلا المعسكر يردفه أبو الفضل ورائه على بغلة الرسول فيوسع
لها الحراس ويفسحون الطريق كأنها كانت جواز المرور ! . ولم يتبينه
فى بادئ الأمر أحد حتى أوشكا على بلوغ الغاية . فاذا رجل يقظ
العين يعرف هذا الرديف المنكمش تحت ردائه فيصيح صيحة الظفر :
« أبو سفيان عدو الله ! ... »

واقبل اليهما يعدو . وارتجف جلد شيخ بنى أمية ، وهبط قلبه
وقد رأى ابن الخطاب يعاود الصباح :

« الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ، ولا عهد ! »

وراح العباس يهيب به :

« مهلا يا عمر »

ولكنه عدا يستبق امامهما السبيل الى رسول الله .

وتتم ابو سفيان من بين أسنانه ، جزعا وموجدة :

« تعس ابن الخطاب ؟ ... انه لأعدى القوم »

وكان هذا حقا لأن عمر لم يدخر وسعا لدى رسول الله في اثارته

على الرجل ، وحشه على الفراغ منه بجز رقبته .

قال يستحث النبي :

« يا رسول الله هذا ابو سفيان أمكن الله منه . فدعني أضرب

عنقه »

وهتف العباس :

« يا رسول الله انى قد أجرته »

فلم ينثن عمر عن دعواه ، بل اخذ يكررها ويعيد التكرار كلما

راى العباس يحاول أن يترضى للرجل عند رسول الله . وكادت أن

تنشب المشادة بين الرجلين الظهير والمهاجم ، بل لقد بلغ الغضب

بالعباس أن صاح وقد نفذ صبره . واحنقه من عمر هذا الالحاح :

« بعض الذى تقول يا بن الخطاب ! ... انك لتعلمن انه من

عبد مناف ولو كان من بنى عدى لما قلت ما تقول ! »

وقال عمر :

« انك لتعلمن يا ابا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما أقول »

لقد كان العباس امرءا من هاشم فيه السماحة الهاشمية .

عطفته الرحم حتى نسي ما كان من ضغن أبى سفيان ، ونسى أخاه

الشهيد حمزة والمثلة به ، ولما ينصرم الكثير من الزمن على يوم مصرعه

وما لقيه من هذا الشيخ الحاقد وزوجه الكاسرة ! ... ولكنه سخاء

فى العطف ايما سخاء ، وصفاء فى القلب ليس مثله صفاء .

ورأى محمد أن يفض الخلاف بين صاحبيه فأرجأ النظر فى امر

عدوه الى الصباح .

وعندما اقتيد الرجل ثانية الى موقف المحاكمة والاثهام . كان

الغضب قد انفتأ عن الرسول وعاوده حلمه المعهود ، واتسع قلبه

الكبير للرحمة اكثر من اتساعه للقصاص ، فقال :

« ويحك يا ابا سفيان ! ... ألم يأن لك أن تعلم انه لا اله الا الله ؟ »

قال الشيخ الداهية مداورا :

« بأبى أنت وأمى . . ما احلمك واكرمك وأوصلك ! . . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى عنه شيئا . . فعاد رسول الله يقول :

« ويحك يا ابا سفيان ! ... ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ »
فتردد برهة ثم لم يستطع - رغم التزامه جانب الحذر - الا ان يفضح ما يملأ قلبه من تشكك فأجاب :

« بأبى أنت وأمى ! . اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا . . . »

فأسرع اليه العباس ، يلکزه ويهتف به ، ليرده الى سبيل الصواب فى الجواب :

« ويحك يا رجل ! ... اسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك »
فهل ترى حببت هذه الكلمات اليه الاسلام ؟ ... لقد اسلم ، وشهد - وبعض الشر أهون من بعض ! - ليحتفظ براسه على منكبيه ! .

الا من ذا ينبئنا عما قراه العباس فى وجه شيخ بنى أمية اذ ذاك ؟ ..

واى خلجات النفس انطبعت على المحيا الدميم ؟ ... ذلة الهزيمة وما توجبه من آثار الغيظ الكظيم والسخط المكتوم كان أدنى الى طبع الشيخ فى ذلك الموقف . فان الانسان - على اى حال - لا يستطيع أن يتقبل بقبول حسن ما ياتيه على سنان سيف وان كان نعمة الايمان ذاتها . ولقد كان العباس فيما بدا ، رجلا بعيد مرمى النظرات فى أفوار الطبائع البشرية فضلا عن علمه بطبائع بنى أمية حين قال لابن أخيه :

« يا رسول الله ... ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا »

كأنما اراد أن يرضخ للرجل رضىخة تفيء عليه الرضا عن هذا التغير .

ولقى طلب العباس موافقة رسول الله ، فابتسم وقال :

« نعم . من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .
 وريح الشيخ ما أراد وفوق ما أراد - ربح راسه ، وريح فخرا ما لغيره مثله من قبل ولا من بعد : وريح لقومه حياتهم ما خلوا بين محمد وبين مكة يدخلها ولا يقاقلونه . . ثم فوق هذا وذاك ربح الاسلام وان كانت العقائد اعصى تبينا على الفاحصين لانها من القلوب فى احراز . على ان الرجل ، مع هذا ، سار فى التاريخ مسلما منذ اللحظة التى قهره فيها محمد على الاسلام ، ثم الأيام من بعد هى الكفيلة وحدها بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها او شاءت كشفتها ! .

١٥

فى طريق العودة ، وقف شيخ قريش الى جوار العباس بن عبدالمطلب عند خطم الجبل بمضييق الوادى ، يشهد كتائب الرسول تمر على الويتها تباعا الى غايتها .

وبهرت الرجل الكثرة فى هذه الحشود والقت فى روعه المصير الموعود . ما لقومه بكل هؤلاء طاقة ، وما للعرب بعدهم معدى عن الدخول فى دين هذا الرجل الذى خرج بليل ، منذ اعوام من داره مستخفيا عن الاعين .

فلقد علت اليوم كلمته ، وسطع نجمه وتآلفت حوله قلوب الرجال قبل تآلف السيوف والنصال .

والتفت ابو سفيان الى جاره وقال :

« يا ابا الفضل . لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ! » .

فأى ايمان هذا الذى كان يقيس جهاد الدعوة الاسلامية بمقاييس

الكفاح من اجل السلطان ؟

وأسرع العباس برده عن ظنه ويردعه :

« يا ابا سفيان انها النبوة » .

فهز راسه هزة الموافقة والتسليم وهو يقول :

« فنعم اذن . . » .

ثم انطلق الى بلدة البيت يسبق الجيش . وكان الناس بمكة قد ضاقوا ذرعا بالانتظار وذهبت به ظنونهم كل مذهب ، فلما راوه اقبلوا عليه يستبقون ويسألون .. الا فليثوبوا الى الطمانينة ما دام قد وسعه ان يحقن عليهم دماءهم ويحفظها ان تسيل على الرمال ما خلوا بين محمد وبين البلدة ..

وتصايح عليه الشباب :

« بل نذوده عنا ما ملكنا السيوف ! » .

وزارت هند زوجها :

« قبحت من طليعة قوم ! » .

وكثر حوله الضجيج فقام فى الناس يناشدهم التزام التعقل وسلامة التفكير :

« يا معشر قريش .. مهلا . هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

ولكن الطيش اعمى بصيرتهم وسد منهم منافذ الاذان . وهذه امراته تقود امامه حركة التمرد عليه وعصيان نصحه ، وتنطلق تؤلب القوم عليه بدافع موجدتها على محمد ، ثم لا يرضيها الا ان تهجمه فتمسك بشاربه تجذبه وهى تصيح :

« ايها الناس ! .. دونكم الحميت الدسم الاحمى فاقتلوه ! .. » .

فيلتف الجمع به وقد ثارت ثائرتهم على هذا الشيخ الذى ارسلوه هينا على جيوش الاعداء فجاءهم يفت فى اعضادهم ويدعوهم الى الرضوخ لهؤلاء الاعداء .

وجاهد حتى خلص من حلقهم المضروبة حوله ، ورفع صوته بالنداء عسى ان يسمعوا له وينتصخوا :

« ويلكم ! .. » .

فقاطعت امراته .

« ويلك خست ! » .

فلم يلتفت اليها ، بل استأنف ما يريد ان يلقيه من حديث :

« لا تفرتكم هذه من انفسكم .. الا وانى نذير » .

فهتف به واحد منهم :

« فأشر بما ترى .. » .

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. » .

فيضحكوا منه :

« وما تغنى عنا دارك ؟ » .

« هذا عهد محمد .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل

المسجد فهو آمن » .

ثم مضى عنهم .

ولعل أول من أفاد من عهد محمد هذا ، كان يزيد بن أبي سفيان .
دفعت الفتى جهالة الشباب ، كما دفعت غيره من شباب قریش ، الى
رفع السلاح فى وجوه المسلمين حين دخلوا مكة فما لبث أن هزم كفيه
وولى مدبرا ، فلما وقع أسيرا فى يد خالد بن الوليد أو كاد ، سارع
ابوه اليه فخلصه وادخله داره ليكون بئامن .

واتم الله نصره على نبيه . وأباح له مكة جميعا ورقاب أهلها .
وكان محمد - كدابه أبدا - الكريم السمع فلم يحرمهم عفوه ومنحهم
الحياة ، وفك رقابهم وكلهم أسراه سانة أن جاءوه منكسى الرؤوس
من خزى الخذلان فقال :

« اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ... »

ولم يضمن عليهم بعد هذا بغاية ما يستطيع فراح يشتري منهم
عقائدهم الخاطئة بالهبات وبالأعطيات ، ويسبغ عليهم كرمه وآلاءه
لا يضمن على طامع فى عرض من عروض الدنيا ، كما لم يضمن من قبل
على شيخهم أبى سفيان بما تألف به قلبه من فخر ، وكما لم يضمن
عليه من بعد بالابل وانشاء غب الفتح ، يهبه اياها ويهب ولديه معاوية
ويزيد ومن سار سيرتهم من رجال قریش ، عسى أن يخضع النشب
من نفوسهم ما لم يخضع سلطان الايمان ...

ومع ذلك فان الايام وحدها هى الكفيلة بطوايا النفوس ، ان
شاءت أخفتها ، او شاءت كشفتها . لم يقم محمد الا قليلا بمكة ثم
!راد الله لبعض هذه النفوس ان تظهر ما تضرر . فهذه هوازن جزعت
حين اتتها انباء انتصار المسلمين فأخذت تلف حولها القبائل وتضمها
لتناجز رسول الله . كان أخشى ما تخشاه ، ان هى استنامت للنصر
الذى اصابه الرسول لا تقوم لها من بعد قائمة . وهى ان ظلت فى
الماضى بمنجى عن الصراع الناشب بين حماة الاسلام وحماة الأصنام
فلقد كان هذا لظنها ان محمدا لن يظهر على قریش ، أما وقد راتها

تخضع له اليوم وبدأت تلتف به ، فقد رأت بقاءها مرهونا بقتاله لتعيش آمنة السرب .

وتجهزت هوازن وأعدت عدة القتال . وعلم محمد فساد إليها قبل أن تسير إليه ، وخرج بآلافه العشرة من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم عليه مكة ، وخرج معه من قريش القان ياعوه على الاسلام منذ أيام وان كان فيهم كثيرون دفعهم الى هذا الخروج حبهم الانتصار للقريب من الغريب ، وفيهم كثيرون دفعتهم الرغبة في الظهور امام محمد القوى المرهوب بأنهم له ناصرون ، وفيهم من علموا كيف أفاء الاسلام على رجاله المفانم والأسلاب فصبوا الى أن يصيبوا منوا ما يستطيعون ... ثم لعلهم اجمعين - في معرض الايمان كمسلمين صادقين - لم تخل قلوبهم من دخل ولم يبرحها بعد الزيف . وانحدر رسول الله بهم في عماية الصبح ، في واد من اودية تهامة أجوف ، يريد أن يصيب من عدوه غرة قبل أن يأخذ حذره ، فما راع المسلمين الا احناء الوادي تمتلىء عليهم خيلا ورجلا ، وقد شدت هوازن واحلاوها على صفوفهم شدة رجل واحد من كل جانب ، تمنع فيهم الطعن وتشيع المقتلة حتى انشمر الناس ذعرا وتفرقوا عن نبيهم لا يلوون ، وان ثبت هو في مكانه لا يريم وراح يدعوه بصوته القوى الجهير :

« أين أيها الناس ؟ ... هلموا الى ! ... انا رسول الله .. » ولكن نداءه تبدد في انحاء الوادي ولم تلقفه الا آذان ذويه وغيرهم ممن عصم الله ، وكان على في مقدمة الثابتين . ووقف العباس ، والتف أبو بكر وعمر وبعض الصحابة برسول الله يناضلون ما وسعهم النضال ... والأحوال دائما محك ايمان الرجال .

أما أبو سفيان فلم يفارقه طبعه ، بل بدا أشد لصوقا به في هذه الأزمة فانتحى ناحية عن الصراع ... لمثل هذا الموقف لم يأت الشيخ ، ولغير البذل من أجل محمد العدو القديم قد جاء ! وانما قاد خطمه الى المكان ظنه يسر المغنم في ركاب هذا الواتر المحسود الذي أوسع له « الحظ » في « ملكه » وأورثه من الدنيا ما شاء . أما وقد لاح له الآن أن الدائرة توشك أن تدور على الرجل الذي تابعه من قليل وعنقه تحت حد السيف ، فقد آن اذن لقلب شيخ بنى امية أن يظهر ما كان يضمّر ! ...

شد على كنانته بيده وفيها أزالام لم يهجرها بعد دخوله في الاسلام ، ولعبت على شفثيه بسمة منكرة تجار بالشماتة وهو يقول لبعض من انتحوا ناحية من اقرانه المكيين :

« والذي يحلف به أبو سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ... »

وضحك جبلة بن الجنيذ مسرورا بنبوءة ابن حرب وقال :

« بلى قد بطل سحر محمد اليوم ! ... »

ولئن كان أبو سفيان لم يفرغ بعد كل ما في جعبته من حقد مكنون ، وكان جبلة لم ينس مكانه من جاهليته الجهلاء فان الله شاء أن يكشف عارهما على يدى رجل مثلهما من قريش لم يكن قد تابع محمدا كابن حرب على الاسلام ، لم يمنعه شركه من الغضب لمحمد في محنته وساعة كربه .. كان هذا الرجل صفوان بن أمية الذي لم يكذب يسمع قول جبلة حتى صاح به مفضبا :

« اسكت ، فض الله فاك ! »

ثم التفت الى الشيخ الحقود ساخرا وقال :

« ويحك يا ابا حنظلة ! ... لأن يربنى والله رجل من قريش لأحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ! »



وهكذا كبا الحقد بأبى سفيان هذه المرة لأن شماتته سبقت الأحداث قبل الأوان ، فلم يتخل الله عن المسلمين في حنين ، ولم تطل بهم الهزيمة أو تنتهى عند البحر ، ولم يغير من مصير المعركة أن وقفت كثرة قريش منها موقف المشاهد أو المتربص الحاسد ، بل أتم الله النصر الذي وعد نبيه ، وأيده بجنود لم يرها الناس كانت له الظهير ، وكان بها الظاهر العزيز .

ونشر الاسلام بعد هذا لواءه في بلاد العرب كافة . ودخل الناس أفواجا في دين الله حتى أصبح الشرك سبة ، وغدا المشركون قلة . ولم تهل السنة التاسعة من الهجرة حتى كان جهاد الرسول بالسيف في الجزيرة قد قارب الغاية وأوفى على النماية ، ثم لم تكذب شرف على نهايتها حتى قضى الله على الشرك بالتشريع فأنزل آياته

الكريمة تنقض كل عهد كان للكفر الا عهدا موقوتا فانه يبقى الى اجله ولا يتعداه .

وبهذا التشريع ارسل النبي عليا الى مكة ليؤدي عنه ويقرأ محكم التنزيل على الناس . وكان الوقت موسم حج ، وكان ابو بكر اذ ذاك اميرا على الحج من قبل رسول الله فرأى بعض الصحابة ان يبعث اليه فيؤدي الرسالة عنه ، ولكن محمدا ابي الا ان « يؤدي عنه رجل من اهله »

ولحق على بابي بكر ، والناس بمنى يقومون بمناسكهم ، فتنحى له الامير وقام هو بينهم مقام محمد يرسم ناحية سياسية جديدة في تاريخ الدولة ، ويرفع صوته بتشريع الله :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... »

حتى اذا اتم نداء ما انزل الله ، التفت الى الملا يقول :

« ايها الناس ... انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته » .

وانتهى بهذا البيان ما كان لاهل الشرك ممن لجأ في عهد قطعها لهم رسول الله على نفسه . وظل مستمسكا بها لا يحيد طوال اعوام . وخبا نجم الكفر او كاد ان يصيبه الافول ، الا في طرف ناء من اطراف الجزيرة حيث قامت فتنة باليمن حيث ابي الناس ان ينزلوا على حكم الله ويرفضوا الاسلام . فكانهم بهذا ارادوا لابن ابي طالب ان يبدى للتاريخ صفحة من البطولة الجديدة . ومن سواه ، جيش وحده كما قال رسول الله ، أولى ان يسير الى اولئك الاقوام ليخضعهم ويضع انوفهم في الرغام ؟

ذهب اليهم ، في جمع من الرجال لا يزيد على ثلثمائة يسير بهم الى دولة لم تكن مرة واحدة للحجاز وخضع لحكمها الحجاز مرات ، وعاود هناك سيرته ، معتدا ، معتزا ، واثقا بنفسه وبنصر الله ، لا ترهبه الكثرة التي طالعت من عدوه ، ولا الهجمة العنيفة التي فاجأوا بها جيشه الصغير . وثبت لهم كما لم يتح لغيره احسان الثبات . وكر فأوقفهم ، ثم كر فشتهم ، ولم ينجم من الهزيمة

والخسران ان أعادوا تنظيم صفوفهم وزودوها بقوى جديدة من رجال
وعتاد لأنه ما زال بهم ينقلهم من رعب الى رعب حتى أنثروا السلامة
بالتسليم .

وكانت هذه الواقعة ختام الغزوات بالجزيرة ، وكان وفد اليمن
آخر الوفود التي اقبلت من الأنحاء على رسول الله تلقى اليه بالزماء ،
وتبأيعه على الاسلام ، وفرغ على مما بعث اليه فتد رحاله الى مكة
ليلقى رسول الله قد اعتمر وتأهب لحجة الوداع .

البداية

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ
اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

١

مدينة الرسول زال عنها كابوس التوجس الذى الم بها ثلاثة أيام سيطر فيها على حواسها فأكربها ، وأصبحت صباحها هذا مطمئنة قد عاودها رضاء البال ، باسمه ، فياضة البشر بعد هم ... وهؤلاء ناسها قد استطاعوا أخيرا أن تنفرج منهم القلوب وتتحلل من أصابع اليأس التى كانت تقبضها وتعتصرها عصرا . وانثلجت صدورهم فهذات الخواطر وبسمت الشفاء والنواظر ، ثم راحوا يستقبلون حياتهم كما عهدوها ، ربانة جميلة ، يرف عليها صفاء محمد وتشيرها اشراقة محياه . غاب عنهم الآن ما ساورهم من قلق عليه وجزع قتال . وانطوت المحنة التى جثمت اشباحها كالجبال على قلوبهم خلال أويقات المرض الذى نزل بمحمد فحجبه عنهم . أما اليوم فقد تبدلت الحال وزالت شدتها ، ولن يلبث الرسول الا قليلا ثم يعود فيهم ، كما كان ، حادبا عطوفا يوليهم من رقيق حنانه ، وعذب بيانه ، وخالص ايمانه وقدايس عافيته وعادته الصحة ... وانهم ليوثقون ان دعواتهم التى انطلقت بها القلوب قبل الالسن ، قد وجدت عند ربهم سميعا . ما كان الله ليرزاهم فى نبيه ويدعهم بعده حيارى وما كان ليفيب عنهم وجهه ، ولكنها تجربة مرة اجتازوها ليختبر الله قلوب قوم مؤمنين .

على ان واحدا منهم ، قبل يومهم هذا ، لم يكن يستطيع ان يلمح قبسا من الأمل فى احناء ما احاط به من قنوط . فالالم ينزل بمحمد ، ويبرح به ويشته عليه حتى يحتجب مكدودا اعياء الوجع ونالت منه برحاؤه . ثم الحوادث من قبل قد تكلمت بأفصح لسان فأبانت عن المستقبل اشام بيان ... ان حجة الوداع كانت اول النذر بالمصير المخوف واثارت فى نفوس المسلمين كوامن التوجس . سمعوه جميعا اذ ذاك يقول :

« انى لا ادرى لعلي لا القاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبدا ... »

فما عساه عنى بهذا الكلام ؟ وماذا اصابهم وهو يجاوز شفتيه

فتقبله الأسداع ان لم تكن أصابتهم رجفة هزت كيانهم وأشاعت
فى قلوبهم شائعات الجزع ؟ ...

ثم جاءهم التنزيل بما لم يدع لهم معدى عن لازم التأويل . الم
يقول الله سبحانه فى ختام آياته :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ... »
فاذا اكتمل الدين الذى به أرسله الله فلاى الغايات بعد تمتد
بالرسول الحياة ؟ ...

ثم توالى النذر من بعد تلوح بالمصير المحتوم ، ولم يكن آخرها
ان تلا محمد القرآن مرتين على جبريل هذا العام وكان يتلوه مرة
وأحدة فيما سبق من الأعوام ... توالى النذر وما فيها الا صور
فصح عن القضاء الداهم والرزء القاصم حتى غدت بها النفوس على
حوافى اليأس .

ولكن هذا كله وغيره ، ما لبث القوم ان انسوه لان المسارعة الى
نسيان المكاره أولى بطبيعة الانسان ... هذه اقباس من الامل
أخذت تبدو فى آفاق القنوط فتبدد ظلامه وتطوى اعلامه . ان محمدا
برىء او هو الى البرء يسير . بهذا انبأ البشر ، وبه جرت الظنون
فى الأفهام كمجرى ثابت اليقين . وكفاهم لينسوا قلقهم ان طلع
عليهم ، وهم خلف أبى بكر فى صلاة الصبح ، معتمدا على على بن
أبى طالب . بل لقد كاد ان يفتنهم ظهور محياه عن الصلاة ... وأقبل
فصلى بينهم ، فلما انتهى وعاد الى داره كان قد خلف فى كل قلب
رجاء النجاة . وانقضى الوقت بعد هذا على خير ما يكون الامل .
ويأتيهم من لدن نبهم ، بعد قليل ، من يأمرهم عنه بانفاذ بعث الشاب
أسامة بن زيد بجيشه الى الشام فتكاد تنطق ظواهر الحال بصديق
الآمال ، الم يكن هذا الجيش يضم أبا بكر الصديق ، ويضم عمر
ابن الخطاب ، ويضم غيرهما من صحابة الرسول صفوة الرجال ؟ .
وهل يدور بين الاخلاذ والاذهان ان يبعد النبى عن المدينة كل هؤلاء
لو كان يعلم ان سيقع الخطب ويزا المؤمنون فيه ؟ ... ثم من عسى
أن يكون للناس مقياس الطمأنينة على نبهم ان لم يكن أبو بكر وقد
شاهدوه قد امتلا طمأنينة حتى غادر المدينة الى السنج لقضاء يومه
بين اهله وذويه ؟ ... ومن غير ابن أبى طالب أعلم بالحال وقد لازم
الرسول طوال المرض وكابد ما كان يلقاه ؟ ... من غيره وقد راوه

تطلق محياه اذ خرج من بيت عائشة والشمس جانحة الى الضحاء
ذلك الصباح ، حتى توسموا خيرا فأقبلوا عليه يسألون :
« يا أبا الحسن ، كيف خلفت رسول الله ! »
فأجابهم بكلمات ، حلوة الجرس صافية النبرات :
« أصبح بحمد الله بارئاً ... »



ومع ما افاءت البشرى على نفوس الناس من طمانينة وبذرت
فيها الرجاء والآمال ، فلقد كانت هناك بين موجة التفاؤل التي سرت
بين القوم قلوب لم يبرحها الهم . مرهفة الشعور تكاد ان تلمس
المصير المرهوب ونزلة القضاء ... فلم تنفرج فاطمة ، ولم يذهب
عنها الروع وان رأت انها مصافى يخرج ذلك الصباح ويصلى بين
صحبه المتلهفين على لقائه المشوقين الى سماع صوته الذي حرموه
ثلاثة أيام . ان الزهراء لم تخنها الذاكرة ولم تخدعها ظواهر الحال
وهي العالة بخباياها الواقفة على بواطنها وليس ذلك اليوم عليها
ببعيد وقد ترك في نفسها طابعه ... وليست حليفة الأحزان
بالسبابة الى نسيان الأحزان وان بدت لها اليوم بشائر الرجاء .
وكم من لحظة راودت فيها قلبها على التفرج فبى القلب الرقيق
الحساس الا العودة بها الى تلك الجلسة الهادئة بجوار أبيها في دار
عائشة وهو يعد في مكتمل عاقبته . ولم تكن اذ ذاك توجس شراً ،
بل كانت تحسب الأيام تجري وئيدة بالسعود . ومع هذا فقد مال
عليها رسول الله يسر في أذنها حديثاً لم تملك عند سماعه الا ان
تدمع عيناها وتبكي . واشفق عليها ابوها فمال ثانية يلقي في
سمعها كلاماً افترت له شفتاها عن بسمات فياضة البشر والرضا ،
وعجبت عائشة اذ رأت ذلك ، فأقبلت عليها تسألها عما أسره لها
رسول الله ، وتقول :

« ما رايت كالיום فرحاً اقرب من حزن ! ... »

فلا تشفى فاطمة ايها غليل السؤال ، بل تجيب :

« ما كنت لأفشي على رسول الله سره ! »

فاذا تصرمت بعد هذا الأيام سبق الظن بفاطمة ظواهر الحال ،

وتجسم حدسها يقينا ظاهره ما اسره لها رسون الله . وحضرتها الآن وهى الى جواره ، وقد عاد لتوه من صلاته الاخيرة خايب اللون معصوب الرأس ، تلك الكلمات التى ابت ان تلقى بها الى عائشة حين احفتها السؤال .

« ان جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى ... »
وغام بصرها بفيض الدمع كأول مرة فنأت به عن ايها حتى لا يشهد عليها لما يؤذيه ثم استرجعت بقية سره حتى لقد حسبته يعيد عليها القول :

« ... انك اول اهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انا لك ...
الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الامة ؟ ... »

فتعاودها ثانية بسماتها الداهيات تدفع عنها اسأها . لانها لن تلبث الا قليلا ثم تلحق بأبيها رسول الله ، وليس عليها بعد هذا خوف من الألم لطول الفراق ...

ولئن كانت فاطمة قد تفردت بمعرفة السر حتى باتت اثناء المرض تكاد أن تلمح اشباح المصير المخوف ، فان عليا كان من الالى توجسوا من مرض النبى وسكن قلوبهم الاشفاق من قرب وقوع الرزء الداهم . ان زوجه - بطبيعة الحال - لم تفش اليه ما كان من حديث الرسول ولكنه كان حقيقا بأن يلمح فى وجهها ما يخشاه . ثم هو يعلم ما علمه غيره من القوم من البيئات التى كانت ترجح كفة التشاؤم ، كحجة الوداع ، ومعارضة جبريل مرتين بالقرآن ، ومصارحة التنزيل بختام الرسالة التى بعث الله بها نبيه لهداية الناس . علم هذا كله وجاءته بعده بينة لا تقبل الريب ولا تحتمل التأويل . ففى ساعة من ساعات المرض تسبق الرحيل عن الأرض بقليل . دعاه اليه رسول الله وفى عينيه ما كانتا تشعان من نظرات اعزاز واكبار لهذا الربيب الحبيب ، حتى اذا استوى بالشباب المجلس خلع الرسول خاتمه وحمل سيفه فقدمها هبة منه لابن أبى طالب . وارتجف كيان على اذ ذاك ، وسارع بشيخ بوجهه عن رسول الله حتى لا يرى فى مآقيه لمعات الدموع - وكان أبو بكر معها ففعل مثل فعله وغض من طرفه . ولم يبق شك لدى الرجلين فى ان رسول الله - اذ علم مصيره كما ألهمه الله - قد

آثر بخير ما يملك فى دنياه صفيه المحبوب لأن العمر لم تبق فيه بقية لحمل الاختام أو لامتشاق الحسام ...

ولقد كانت اللحظة التى طالع فيها على الناس بكلماته المطمئنة هى نفس اللحظة التى لم يمس فيها قلب العباس بن عبد المطلب أثر واحد من آثار الاطمئنان ، الشيخ المجرب لم يذهب ما راح من سنى حياته عبثا ، ولم تفقد بصيرته ما كان لها من نفاذ . لذلك أقبل على ابن أخيه ينتحى به من القوم ناحية ويقول :

« يا على . احلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله كما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب . فانطلق بنا الى رسول الله .. فان كان هذا الأمر نينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس » .

ولكنه طلب كان قمينا بأن يلقى من على الرد والاباء قبل أن يلقى السمع والاصغاء . أفيقر له الناس بوصية رسول الله لو أنه أوصى بأن يكون فيه الأمر ؟ .. هذه خاطرة طافت بذهنه اذ ذاك وفيه من وقائع الحال الجواب الحاضر على السؤال . فمن قليل ، ورسول الله يغالب وعكة شديدة قال لمن حضره من الصحاب :

« ايتونى بدواة وصحيفة ، اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .. » فكيف استقبل الحاضرون من بينهم هذا الكلام :

قال عمر :

« ان رسول الله قد غلبه الوجع ! »

وقال سواه :

« بل قربوا يكتب رسول الله ... »

ثم اختلف الباكون فى الأمر بين موافقة واباء ، لأن الذى كان حريا بأن يقر فى الأذهان أن وصية الموعوك أولى أن تكون فريسة الشكوك .

وهكذا لم يكن لعلى بد من أن يجيب عمه :

« والله لا أفعل ، فوالله لو منعناه لا يؤتينا أحد بعده ... »

وكان بهذا الجواب موفيا على الصواب وكان العجيب لو أنه حدث النبى اذ ذاك فى أن يوصى له أو به ، لأنه بهذا الحديث سيكون النذير لرسول الله بغائلة الموت - وحاشاه ! .. والأعجب ان يخالف طبيعته فى البر بمحمد الجدير منه باستقصاء الترفق به فى لحظاته

الباقية اشد استقصاء ! .. فى لحظاته الباقية لان الضحاء لم يكد
يشتر من ذلك اليوم الذى فرح فيه الناس ببرء نبيهم حتى عدت
العادية التى دهمت الانام واطاشت الاحلام . قضى الامر فى محمد ،
وسمت روحه الى جنة الماوى .. والى سدره المنتهى .. والى الرفيق
الاعلى . وبقي الناس حيال النبا مهدودى الكيان من جزع يعقل
اللسان فلا ينطق ، وفجيعة تأبى على الجنان ان يصدق . كلهم امام
الخطب ذاهب اللب مسلوب القلب ، اذهله النعى عن نفسه وخلفه
من شدة ولهه فى غمرات .

يا لمدينة الرسول ، وآل الرسول ، وصحب الرسول ! .. يا لهم
من يوم خالد فى دنيا الاحزان ، ليس كمثله فى الليالى الخالكات
ليل ! .. يا لهم منه . قاتما اسحم . اذا جرى به نحصه وان سطعت
شمسه .. موصول به الكرب كان لم يكن قبله كرب تصيب القلوب !
افذهب محمد عن دنياه وغرب عن نور محياه ؟ او لم يعد الآن موته
فكرة دسها على النفوس شدة حرصها عليه ؟ .. ما لهدى القلوب
فيها صدوع ، وهذى العيون فيها دموع ، وهذى الدور من الحزن
تمور وتمور ؟ .. لقد مضى الرسول حقا . مضى فعز الصبر فيه على
ذى جلد صابر ، وشق الاحتمال عنى عزائم الرجال . مضى .. فهلا
انطلقت اذن الالسن نادية ، والاعين باكية ، والحناجر صائحة ناعية ،
ما دامت شقت امامها الاجواء صيحة الزهراء - الى السماء :

« ابتاه ابتاه ! .. يا ابتاه ، اجاب ربا دعاه ! .. يا ابتاه ، جنة
الفردوس مأواه ! .. يا ابتاه ، الى جبريل نعاه ! .. يا ابتاه ، من ربه
ما ادناه ! .. يا ابتاه .. »

٢٠

يوم خالد فى دنيا الأحزان ...
لمثله لم يهيا قلب لأنه فى الرزء فريد ، ولم يشد عزم لأنه يوهى
بكل صليب جليل . رزء نزل ففدح ، وعزم حمل فرزح .
ولغير هذه الغاية التى أوفت عليها المقادير الآن كانت تستيق
حوالك الأحلام وتجرى فى الخواطر والأوهام . ولكنه حلم صدق
فصعق ، وخطب دهم فحطم .
ان الحزن ليفعل فى القلب كمثل النار ، ان سرى أكل وان لبث
قتل . وان العين لفى يد الدمع لفى ، ان شاء فاض فأغرق ، أو شاء
غاض فأحرق . وان الحديث لفى الأفواه عيا أفصح عن الجزع من
كل بيان ، وعلى الشفاه نطقا لن توصف الفجيعة كمثله بلسان .
يوم خالد فى دنيا الأحزان اذ مضى رسول الله . وما بعد رسول
الله للناس أسوة أو عزاء ، وما للحزن على فقدته مدى ولا انتهاء .



كذلك كانت المدينة . ثم كانت اطرافها . . ثم كانت الجيرة من
بادية وبلدان كلما سرى النبأ الفاجع فى انة باك أو همسات محزون .
وكذلك اجتمع الناس حيارى ، بدفعهم اشفاقهم على قلوبهم
آونة الى تكذيب الخبر ، ثم ترسلهم الصيحات التى تجاوبت بها دار
الرسول الى واد من الألم ، سحق ما له من قرار .
ولقد تجمعوا فى المسجد وخارجه حشودا بين واجم وصائح ،
ومشدوه ونائح . وهذا عمر بن الخطاب بينهم أذهله المصاب حتى
خرج من وقاره الى طور من الثورة عجيب . وانه ليهز فى يده سيفه ،
وتندفع الكلمات من شفتيه تلتهب بشركن الوعيد وقد أقبل على الناس
فى غصبة الإعصار ، يقول .
« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات . وانه
والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران . . والله
ليرجعن رسول الله فيقطعن أبدى رجال وأرجلهم زعموا انه مات ! »

ولكن محمداً قد مات وان كره عمر ، وان كره قبله وبعده كافة المسلمين بالآلاف وبالملايين ، ذاق الكأس التي لا معدى عنها ، وخلف متبواه في الأرض الى متبوا في خير دار بخير جوار . وهذا جثمانه الطاهر رحلت منه الروح ، والتف به ذروه لا يذهلهم الهول عن جهازه ، ولا يقعد بهم عن تهيئته لغايته من دنياه ونصيبه المحدود من ترب الأرض - هو الذي ضاقت بعزم صاحبه رفعة الأرض وآفاق السماء .

ها هنا الحدث ، مسجى على الفراش . وها هنا على . والعباس والفضل وقثم ابنه . وها هنا الزبير بن العوام وصاحبه طلحة بن عبيد الله قد انضم اليهم جميعاً اسامة بن زيد مخلفاً جيشه بالجرف اذ سمع نبأ وفاة الرسول . وان الموقف لفياض بالحزن الذي يفعم القلوب بالآلام ويحيط بالدهول الأفهام . . . ولكن شيخ بنى عبد المطلب رجل فيه تبصر وله حنكة ، بعيد مرمى النظرات في أغوار المجهول فلم تفش قسوة الموقف عينيه ، ولم تشل خاطره ، ولم تغيب عن بصيرته ما هو مقبل عليه او وشيك على الاقبال . فقد علمته الأحداث انه يحسن قراءتها ، وانه صادق الحدس بالعقبى . ولقد كان حقاً صادق الحدس ، ساعة الضحى من هذا النهار ، حين تنبأ بوفاة الرسول وأراد حمل ابن ابي طالب على السير اليه بكلماته ليوصى بهما او يوصى لهما . وهو الآن شديد الاحساس بأن امراً ما لن يلبث أن يتكشف الزمن عنه ، فان شاء انتهر واسرع ، وان شاء تريت فضيع ! . .

وكذلك بسط الرجل - وهو الى جوار حدث الرسول - كفه الى على ، على ملاً ممن حضر وقال :

« يا بن اخى ، امدد يدك أبايك ، فيقول الناس : عم رسول الله

بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان . . »

فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

فصمت العباس .

ودخل بعد هذا أبو بكر وقد عاد من السنج مهدود الكيان من الحزن . لم يلق الرجل الى أحد بالا ، وانما اتجه الى صاحبه الكريم المسجى فكشف عن وجهه الفطاء ، وبكى كما شاء له اساء أن يبكى ، وهو يناجيه بنبرات سالت لما :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .. طبت حيا وطبت ميتا . اما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها يا رسول الله ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا .. بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .. »
وانفلت الرجل عائدا في سكون كما جاء . ولحق بالقوم قد تراحموا حول الدار ، حائرين بين نبا المصاب ووعيد ابن الخطاب . فلما رأى الامر ، انطلق فوقف بين الناس ، وهو يصيح به :
مه يا بن الخطاب .

فجفت على شفتيه الكلمات ، وحملق في وجوم شديد الى الصديق وهو يخاطب القوم ويقول :

« ايها الناس ... من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت .. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ... »
فما تركت كلماته فبهم عينا لم يفض بها دمع ، ولا قلبا الا اصابه صدع ، بعد أن تبين - من لم يكن قد ايقن - ان رسول الله لم يمض كما مضى موسى بن عمران وله عود اليهم قريب .. بل ذهب الى غير مآب ، ولن يكون بينه وبينهم لقاء الا في ساحة الله ، وبعد زوال الارض وانفطار السماء ...



... وراح على يعمل فيما هو بسبيله من جهاز الرسول ، والعباس لا يجد الوسيلة التي يتوسل بها الى موافقته على قبول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه . ولقد كان العباس محقا فيما ذهب اليه ظنه ، لان الناس - وقد تبينوا الحقيقة - اخذوا يتحدثون فيما عسى سيصير اليه الامر والى من بعد نبهم سيؤول . ولم يكونوا اذ ذاك على اختلاف او كانت مسالك الراى قد تشعبت بهم فنونا ، بل كان الجانب الاكبر منهم في صفوف بنى هاشم لفرط ما قر في الأذهان من أن هذا تراثهم الموروث الذي لا ينازعهم فيه من العرب منازع . وبهذا جرت الاخبار فيهم قبله وانطلقت به السن المتحدثين ، وما اظن عمار بن ياسر ولا سلمان ، ولا المقداد ، ولا أبا ذر الغفاري واشباههم ، من الصق الناس بالنبي الكريم ، وابعدهم نفوسا عن الانحياز الى الاهواء والافراض كانوا يميلون الى غير بيت

الرسول وعن حصر سلطانه فيهم ، وما كانوا - وهم الفئة التي لم يعقل السنتها عن الحق عقال - ليظلوا عما يدور بأخلاقهم صامتين ... بل انى لاحسبهم ما فتنوا يتحدثون بما ايقنوا انه الصواب وانه جماع الخير لامة الاسلام . وان رجلا كأبى ذر ، ورجالا كصاحبه هؤلاء لخير رجال حرية كلماتهم المنوّهة عن الهوى ان تنفذ الى قلوب العامة من الناس فى وقت لم تكن فى القلوب قد لائتها الاغراض . ولقد اجتمعت طوائف من المسلمين فرقا تتشاور . فاجتمع عمر بمسجد المدينة بشاور ابا عبيدة بن الجراح . واجتمع سعد ابن عباد بسقيفة بنى ساعدة يشاور الأوس والخزرج . واجتمعت هنا أو هناك زمر تتحدث وهى لا تقطع برأى ، ثم ظل آل محمد ، ومعهم الصديق ، مشغولين بالجثمان وان بقى العباس من دونهم مشغولا بما ملأ خاطره وشاع فى باله من أمر الشاب الذى يجدر أن يرث سلطان الرسول ولا يحرك كفا لالتماس هذا السلطان ...

وطرق عليهم الباب فاذا رجل يدعو ابا بكر :

« ان ابن الخطاب ، يا ابا بكر بدعوك .. »

فيجيبه الشيخ بهدوء :

« انى مشتغل .. »

ثم يعود هو وصاحبه الآخرون الملتفون بالجثمان الى ما كانوا فيه . ولكن الباب يطرقه ثانية الطارق نفسه ، يكرر دعوته السابقة ويقول :

« يا ابا بكر .. ان ابن الخطاب - »

فيقطع الصديق حديث الداعى ، ويصيح به :

« افى هذه الساعة ؟ .. ويح ابن الخطاب ؟ .. انى مشتغل

بجهاز الرسول . »

« انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، وقد جئتك ابلغ .. »

فلا يجد حينئذ مناصا من الخروج .

ويبدأ القلق يلعب بقواد العباس فلم يبق بعد تريث ولا امهال .

ان كل لحظة تمر تغير من سير الأحداث .. ويهم ان يتقدم الى ابن اخيه فاذا الظروف تمده من لدنها بعون على التقدم اليه بما تقدم به من قبل .. تمده بأبى سفيان بن حرب قد اقبل بعد ان نما اليه الخبر عن وفاة الرسول ، ويبدو شيخ بنى أمية محزوننا وحق له ،

فمحمد منه خير آله وان قضى بينهما من الخلاف ما كان . وابوسفیان بعد هذا وجل له دراية ، فجاء وفى يقينه مثلما انطوى عليه يقين الآخرين من سواد الانصار والمهاجرين . هو يعلم انهم كانوا فى قراراتهم مؤمنين بأن تراث النبى لن يترك داره ولن يخرج عن احب ذويه واقربهم اليه . علم هذا وعلموه حق اليقين . واولئك الذين لم يكونوا على ثقة منه كانوا يؤمنون بأن آل محمد اولى بترائه ... حتى الذين انحازوا الى سقيفة بنى ساعدة لم يكن اجتماعهم فى البدء لانتزاع السلطان وانما للتحوط لانفسهم ولكانتهم ممن سوف يتولى هذا السلطان ..

وكذلك دخل ابو سفيان دار الرسول ليقر بالامر لن حسب الناس اجمعين سوف يقرون له به ، وهو فى هذا لم تغب عنه روح الناجر الذى يزن الزيادة والنقصان ، ولم تخل نفسه من حرص على حق لبنى عبد مناف أسرته خشية أن يلقفه دونهم غريب ... ولئن بدا الشيخ ، فى هذه الآونة ، اصفى نفسا لآل محمد مما كنا عهدناه . فلأنه يعلم عن يقين انهم اليه أدنى وعليه - من غيرهم - أجدى ... ثم لأنه يعلم أن الأمر اشبه بسباق هو المتخلف فيه - على أى الحالات - وغيره السابق المجلى ولو كان هذا « الفير » هو اضعف المسلمين حسبا بين صحابة رسول الله ! ..

وتقدم الرجل ، بجوار العباس ، الى على يدعوه :

« يا ابا الحسن ... هذا محمد قد ضى الى ربه ، وهذا ترائه لم

يخرج عنكم ، فابسط يدك ابايعك فانك لها اهل .. »
فيجيبه على فى طمأنينة ووثوق :

« يا ابا حنظلة . هذا امر ليس يخشى عليه .. »

ويسمع العباس جواب ابن اخيه فلا يرضيه . ان الأمور دائما رهينة بالاوقات وليس يملك المرء الا لحظة هى حاضرة ان تلبث بها لم تلبث ، وتفلتت عجلي الى ماض قد لا يستطيع اخذه ، وحرى بالرشيد ان يملك زمنه ...

يقول له العباس ، وهو يشير الى شيخ بنى امية :

« يا ابن اخى .. هذا شيخ قریش قد اقبل فامدد يدك ابايعك

ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى

عبد مناف . واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى . واذا بايعتك قرشى لم يختلف عليك بعدها أحد فى العرب . »

فينريث على برهة يفكر ، هذا حقا منطق الرجل النهاز الذى تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة ، وكان هو غير ذاك . انه ليعلم انه للبيعة اهل ولكنه يرى لزاما عليه ان يتخير الوسيلة الصالحة الى هدفه . وقد عرف للبيعة حقا يجب توفره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية .. كان معنيا دائما بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل الى الحلول التى يملها الارتجال او الدفعة او تحين الفرصة . وانه لعلى ثقة من نفسه ومن قدره ، تقدم له ابو سفيان او لم يتقدم . ولكنه كان حريا ان يعرف ان الامام جدير به الا يملك سلطان الناس بغير مشورة منهم وبعبدا عن اعينهم ، بل الاولى به والاين على صحة بيعته ان يكون هذا على رءوس الأشهاد حتى لا يفصل بين احد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض .. ولم يكن العباس هو كل الناس ، ولم يكن شيخ قرشى كذلك - بل هما رجلان مفردان وان علت اقدارهما بين القوم ... ولذلك نراه يفضى عن كف ابى سفيان المبسوطة اليه ويغضى عن كف عمه ، ويهز رأسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل :

« لا والله يا عم !.. فانى أحب ان اصحر بها ، واكره ان اباع من وراء رتاج !... »

وخرج ابو سفيان لا يعقب ، فقد رأى العزم وسمعه فى كلتا الكلمات والنظرات . وبقي العباس صامتا لا ينبس كما بقى الال والصحب الحاضرون . اما على فقد عاد الى ما كان فيه من جهاز الرسول فاحتمل الحدث الطاهر ثم اقبل عليه يفسله . وكان اسامة ابن زيد ، وشقران مولى رسول الله يصبان الماء وقد اسنده هو الى صدره يدلكه من فوق القميص فلا يكشف عنه ولا تفضى اليه يداه . ولقد استطاع على ان يفرض على نفسه - ثابتا - هذا الواجب المؤلم الذى يهد الكيان ويمزق نياط القلب .. وبحسبه ان كان يهيه اذ ذاك حبيبه المختار لرحلة فراق ما بعده فى هذه الدنيا تلاق . استطاع هذا وان ابت عينيه ان ترقأ وابى ان يخفت وجيب قلبه وهو لا يننى بردد من بين الدمع بنبرات تاكل محزون :

« بأبى أنت وأمى لقد انقطع بمونك ما لم ينقطع بموت
غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر
ونهيته عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . ولكن الداء مماتلا ،
والكمد محالفا - وقلا لك !.. ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطيع
دفعه ، بأبى أنت وأمى !.. اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالك .. »

٣

طرق باب حجرة الرسول نالته فى ذلك النهار .. ولكنها كانت ،
هذه المرة ، طرقات عنيفة تلاحقت فى سرعة ، فيها لهفة وفيها قلق ،
وكان الطارق هذه الدفعة ، رجلا آخر غير ذاك .

وقام الى الباب من فتحه فاذا البراء بن عازب يصرق داخلا
كالسهم ، لا يحيى ولا يسلم ، مبهورة أنفاسه ، عليه وعناء المسير ،
فى وجهه وجمة الذى يخفى بدأت نفسه أمرا يعرف كيف يؤذى
اسماع القوم لو ألقاه ونى كيانه اضطراب ، وفى عينيه نظرات
الغضب الثائر وان اختفت تحت حكمة التريث المحاذر .

وانبرى اليه العباس ، متلهفا بهتف به :

« البراء !.. فيم أنت ؟ »

فألقاها كلمات موجزة ، مربرة النبرات :

« فى أمر ، يا بنى هاشم ، فاتكم شهوده وفاتكم به الأمر !.. »

وجلس يستروح .

وجم الحاضرون . وملك الصمت منهم الأفواه . وراحت نظراتهم
تنتقل ، حيرى على وجوههم ، وكلهم رجل شارف به شعوره الشر
المجهول .

وكان العباس أملكهم لنفسه ، فلم يلبث حتى انتبه يستنبيه

البراء جلية خبره :

« فقل ، ولا تخف »

- فبسط الرجل كفيه يائسا ، وأجاب :

« قعدتم فملكتم ، وغلبكم ابن أبى قحافة عليها . »

« ويحك ! »

« وبايعته الأنصار فى بنى ساعدة .. »

« والمهاجرون ؟ »

« أما هؤلاء فلا . وإنما هم فى المسجد الآن ... ولكنى شهدته بعد السقيفة بعينى ، الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح ، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد الا قدموا يده - شاء أو أبى - فمسحوها على يد أبى بكر .. »

وتوقف الرجل عن الحديث وقد بدأت البغطة تظهر فى عينيه والقلق بشيع فى وجوه الحضور .. ان هممة خافتة سرت فى الأجواء خارج الدار ثم أخذت تعلو ، ثم أخذت تقترب اذ تعلو حتى تبينوها ألقاظا وكلمات . وما لبث المكان الا قليلا حتى ارتج عليهم بأصوات التهليل والتكبير تسرى من مسجد الرسول . هتافا لخليفة الرسول ، فى لحظة كان جثمان الرسول مسجى فيها على فراشه لم يطوه بعد اللحد .

وصاح العباس اذ ذاك فى بنيه . وفى ابن أخيه ، وفى من حضره من آل هاشم وقد فاض بكلماته الغضب والهيها الهابا :

(تربت أيديكم ! .. اما انى أمرتكم فعصيتمونى .. تربت أيديكم

آخر الدهر ! .. »

ذاك لم يجر مطلقا لبنى هاشم فى بال ، ولا لغير بنى هاشم من المهاجرين ، ولا لغيرهم أيضا من الأنصار ، وان تمت البيعة لأبى بكر أولا على يد الأنصار .

ولكن الحوادث جرت سراعا تسبق سرعتها جريان الخواطر فى الأذهان ، حتى أبو بكر نفسه لم يطف بذهنه - الى قليل - انه سيكون خليفة الرسول ، لا ولا عمر ، ولا ابن الجراح وهما اللذان ساعداه وانتزعا له البيعة انتزاعا . وإنما كان الأمر فى البدء لا يجاوز اجتماع الأنصار بالسقيفة يتشاورون فى مكانتهم بعد وفاة الرسول ، وفى مكانة بلدتهم ... ويحدثون يا ترى سيخرج سلطان الاسلام من المدينة دار هجرة النبى الى مكة ببلدته وبلدة ذويه من قريش الذين سيؤول من بعده الأمر اليهم .. ويتساءلون هل عسى المهاجرون سيؤولونهم الخير الذى أوصى به رسول الله . انهم ليذكرون كيف اختصهم محمد ، وكيف شاد بذكرهم ، وكيف قال عنهم انهم بيعته

وانهم لجأه ، وانه السالك دائما شعب الأنصار وان سلك الناس اجمعين شعبا سواه ... فماذا تصير اليه حالهم لو اتاهم بعده من يخرج بسلطانه عن ديارهم فلا يشيرون ولا يشاورون ؟ .
قال منهم قائل :

« منا امير ومن قريش امير .. » .

وسأل منهم سائل :

« فان ابوا عليكم ؟ » .

فخرج الحديث بهذا عن نطاقه المضروب ، وتفرق شجوننا .
عز على الكثيرين منهم الا تكافأ نصرتهم النبي لدى المهاجرين ،
بتأمر واحد من رجالهم الى جوار امير من هؤلاء ، وان يبدوا في عيون
قريش اهون امرا مما يعرفون من شأن انفسهم هم الذين اقاموا
بأسيا فهم دعائم الاسلام وبأموالهم اود رجاله الاولين . ولم يكن
المهاجرون قد ابوا بعد عليهم شيئا ولم يحضر حديثهم ذاك منهم واحد ،
ولكن الأذهان استقبلت الحوادث بالظن والترجيح ثم سارت في سبيل
الظنون تبنى على اساس الخيال .

وانقلب الحديث بعد هذا الى موازنة بين فضل وفضل ، وبين قوة
وقوة . لئن تجشم المهاجرون الصعاب وخرجوا من ديارهم في سبيل
دعوة الاسلام ، فلقد وجدوا في المدينة رجالا زادوا عنهم بغى القريب
والغريب ، وشرعوا الأسنة في سبيل الدين حتى نشر لواءه على الجزيرة
من طرفيها . ثم فيم قريش اليوم من ساطان الاسلام وقد كانت - الى
قريب - اعدى اعداء الاسلام ؟ .. لقد ضربوا عليه بالسيف حتى دانوا
اخيرا والقوا الزمام في يد النبي وأيدي ناصريه . فاذا رأوا اليوم لهم
من ورائه مغنما في سلطان ، اقبلوا يستلبونه ثمرة ناضجة من يدي
سقاته بدمائهم وغارميه ؟ !

هذا والله لن يكون !

وكذلك جلس سعد بن عباد ، شيخ الخزرج ، في سقيفة بني
ساعدة يدعو الأنصار ان يملكوا بينهم امرهم ويوحدوا كلمتهم فلا يخرج
الامر من أيديهم ، ولا يذهب دونهم بالفضل من تخلف عنهم في الفضل .
ولم يكن استلاب حق المهاجرين الاولين يدور للأنصار في بال ، ولكن
شيخهم علم ان أولئك المهاجرة قلة في الناس وقلة في قريش الى
جوار كثرة الأنصار السابقين جميعهم الى الاسلام . وكان الرجل

ضويا مريضا ، يسرى صوته كالهمس فوقف الى جواره يبلغ عنه ، رجل طوال ، مديد القامة ، اصلع ما لى وجهه طاقة شعر ، هو ابنه قيس .

ولقد كادت الانصار تستجيب للدعوة ، وهمت ان تباع لشيخ الخزرج وهو من علمت سابقته فى الدين . وفضله . وكرمه الذى استطاع صيته بين الناس وغمر به المهاجرين قبل الانصار . وانهم ليذكرون له فى هذا كلمة عرف بها وأثرت عنه يوم ان عاد قيس ابنه من سفر صاحبه فيه أبو بكر وعمر بن الخطاب . . كان قيس خلال الرحلة جوادا مسماحا ، ينفق على صاحبيه ويغمر ، ثم لا ينسى ينفق ويغمر حتى دفع جوده أبا بكر الى ان يقول :

« بعض مال ابيك يا قيس !.. امسك يدك . . » .

فلما علم شيخ الخزرج ذلك وقد آبوا من سفرهم ، قال لأبى بكر :
« أفأردت ان تبخل ابنى؟.. انا يا أبا بكر قوم لا نستطيع البخل!.. »

أجل همت الانصار ان تباع للشيخ الكريم لولا ان رجلا من الحاضرين لم ينسوا حق آل الرسول وذويه من قريش ، ورجالا آخرين عادت أحقاد الجاهلية الأولى فى صدورهم المفلولة ، ورجالا سوى أولئك وهؤلاء استبد بهم حسدهم للشيخ وتحننوا به الفرص لى يخذلوه .

انفلت من بين القوم من يمم شطر دار الرسول فوقع على عمر بن الخطاب بالمسجد يتحدث الى أبى عبيدة بن الجراح ، فأضى اليه بما يدور فى السقيفة .

وهب عمر من مكانه مبغوتا يزأر . وبانت الغضبة فى وجهه اذ كانت الانصار تذهب دون قريش بالسلطان على العرب . وتلفت حوله برهة حائرا ، ثم ما لبث أن مد الى رفيقه كفه وقال :
« أبسط كفك يا أبا عبيدة ابايعك ، فانت امين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فلم يبسطها الرجل . بل نظر اليه عاتبا واجاب :
« ما رايت لك فهة قبلها منذ أسلمت يا بن الخطاب !.. اتبايعنى وفيكم الصديق ثانى اثنين اذ هتما فى الفار » .

وهكذا تبدل الموقف . وأسرع رسول من لدن عمر الى دار النبي يدعو أبا بكر حتى يلحق بصاحبيه ثم يروا رأيهم فى أمر الأنصار .

منذ تلك اللحظة قر فى ذهن عمر أن أبا بكر هو أولى الناس بخلافة الرسول . وليس فى هذا ما يؤخذ على ابن الخطاب أو يطعن فى قدرة الخليفة الأول وجدارته لتولى شئون الناس ، ولكن الواضح الجلى أن رأى عمر جاء عفو وقته ولم يأت من تدبر وتفكير .

اجل كان عفو وقته . ولو كان طاف بذهنه يوما من قبل لما مد الى أبى عبيدة كفه ، ولما تمهل بالزمن حتى يسمع نبأ السقيفة ، بل لكان سارع - مذ علم بوفاة رسول الله - الى أبى بكر يبايعه وقد كانت أمامه من الوقت فسحة لهذا وقسحات :

انما الذى يؤخذ على الرجل ، حقا ، أنه دنا أبا بكر من دار الرسول ولم يدع معه واحدا من آل الرسول ، فانفرد وحده بالحكم على صحة الراى الذى أشار به زميله ، ووضع أبا بكر فى كفة الترجيح دون مشورة رجل واحد غير أبى عبيدة بن الجراح كانه وكل بقلوب المسلمين يكشفها وبالسنتهم يجرى عليها الكلام ، رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه فى الاسلام ، ورغم ما كانت تدعو اليه الحال من ضرورة مشورة واحد - فى القليل - من آل محمد الأذنين ..

ولكن عمر - فيما يبدو قبل كما ألهم المرقف قلبه . واختار الصاحب الذى اختاره صاحبه اذ لم تكن لديه مهلة للتفكير فى سواء أو فى التحوط لتوفير الصحة لهذا الاختيار . ولعله نسي عليا اذ ذاك كما نسي أبا بكر فى البدء ... ولعله ذكره ثم أراد أن ينسأه زنه حاول فى لمحة خاطفة أن يفاضل بين كهل وشاب فلم ير وجهها الى التفضيل ، لانا نعرف الغلام ، ونحن رجال ثم تسير بنا وبه الأعوام فيظل فى أعيننا نفس ذلك الغلام ! ...

٤

ما عسى كانت تصير اليه الحال لو ان ابا عبيدة اخذ الكف التى بسطها عمر وقبل البيعة لنفسه ؟.. وما عسى كان ابن الخطاب يقول للناس اذا وقف بعد هذا بينهم يقدم لهم ابن الجراح كخليفة رسول الله على المسلمين ؟. افكانت تقدمته هذه لا تعدو تلك التى قدم بها ابا بكر فكان يقول : « ايها الناس ، ان الله قد جمع امركم على خيركم ... » ام كان سيتنبه اذ ذاك الى الخطأ الذى اوقعته فيه دفعته وجعلته يختار فلا يصيب التوفيق فى الاختيار ؟

لقد كانت فى الرجل حقا دفعه . لا وراء عرفت فيه ابان كلا اسلامه وشركه : وكانت منه بعض خلقه كعنفه الماثور ... استبدت به جاهليته ذات ليلة قبل تفتح قلبه للدين ، فاقسم ليمتين الى محمد فيقتله ويكفى قريشا امره . واذا به يتوشح سيفه ويسمى الى الدار التى يجتمع فيها النبى بصحبه الاولين . وكان فى حسيان الرجل ان يضرب عليهم الباب ثم يقتحم المكان حتى يفضى بدؤابة حسامه الى قلب الرسول .. فآين. الخطل فى التدبير ان لم يكن مجسما فيما كاد ان يرتكبه ابن الخطاب ؟.. وكيف نسي ان دون وصول سيفه المسلول الى قلب عدوه اذ ذاك قلوبا تتلقى عن نبينا الطعنات وتنعم اذ ترى دماؤها فى هذه السبيل من جراحها تسيل ؟.. وهلا علم ، وان غرته العزة بالاثم وهونت لديه الجرم ، ان شجاعة البطش فيه لا تقوم امام شجاعة الايمان فى رفاق محمد وناصره ؟. لئن غاب هذا كله عن وعيه فى ذلك الحين ، فقد كاد ان توقعه دفعته فى عرين يحميه خير قرين ، هو اسد الله واسد رسوله : حمزة بن عبد المطلب ! وما احسب عمر لو اقتحم الدار الا كان ملاقيا فى الليث من يرد عليه الطعنة بذات سيفه قبل ان يفضى بها الى الرسول ان لم تنسه هبة حمزة كيف برفع الحسام !.. وبحسك ان تعرف ان ابن الخطاب تبدلت به سربرته فى الطريق فيم تلك الدار لاعتناق الاسلام لا لضرب الهام ، حتى اذا ضرب الباب ورجفت

لمظهره قلوب بعض المجتمعين ، صاح حمزة بتوسل الى رسول الله :
« ائذن له يا رسول الله ... فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ،
وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! ... »

تلك كانت دفعة من عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام
الى حد كبير ، وقل من عزمها ولكنه لم يأت عليها ، بل كانت تبدو
احيانا للعيان فيجعلها الناس كغلظة او كخشونة في الطباع ... حتى
في حضرة الرسول كانت تملكه ولا يستطيع ان يتحرر منها الا اذا
رده عنها راد . وكذلك كان يوم الحديبية شأنه حين لم يستطع أن
يتقبل بالرضا شروط الصلح التي أملى اكثرها سهيل بن عمرو ووافق
عليها رسول الله . فلقد هاج اذ ذاك ، وانفلت من يده زمام أمره ،
حتى انبرى غاضبا الى نبيه يقول :

« أو لست بالمسلمين ؟ .. أو لست برسول الله ؟ .. أو لست
كنت تحدثنا انا - » .

وظل على هذه الوتيرة الخشنة من جفاء الحديث حتى صاح
ابو بكر :

« الزم حدك يا عمر ! ... فاني اشهد أنه لرسول الله ... »

وليس من ريب في ان دافعه في كلا الحادتين كان الغيرة على
دينه وان اختلف بين الزمنين هذا الدين ، ولكنها مع ذلك كانت
دفعات تتركه يتحدث فلا يترث . ويدبر ولا يتدبر ، شأنه فيها
كشأنه حين علم ان محمدا قد مات فقام يتوعد بسيفه من قال ان
محمدا قد مات .. ولو كان تفكر قليلا لما عجب لوفاة الرسول ،
ولما ثار ، ولأنبأته به من القرآن آيات وآيات .. وكشأنه حين علم
ان البيعة توشك ان تتم في سقيفة بني ساعدة لواحد من الانصار
دون رجل من قريش ، فاندفع يتلفت حوله ، حتى اذا وقعت عينه
على اول قرشي - وان كان اي قرشي كما لاح ! - بسط كفه وهم أن
يباع ! .. واحسب لو القت المصادفة - تلك اللحظة - في سبيله
بابن أبي طالب لما قبض عنه يده ، ولاقبل عليه بدلى بالبيعة في
غير ونى ولا امهال ! ..

غير أن المصادفة لعبت دورها فأجرت اسم ابى بكر على لسان

ابن الجراح ... أو لعله التدبر ... أو لعله صدق الشعور بمكانة ابن أبي قحافة في نفس أبي عبيدة وقد رآه يقوم خلال مرض رسول الله بامامة المسلمين في الصلاة . وسواء اكانت تلك ام هذه ام ذلك من خواطر وافكار هي التي دفعت ابن الجراح فقال فولته . فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبي يدعو صاحبه اليه . . لم يتحر مشورة مسلم واحد في ترشيح الرجل الذي ستصير اليه قيادة دولة . ولم يتحر تمحيص الراي الذي لقنه ابن الجراح اياه عن حربه اولى قريش بخلافة رسول الله ، بل اندفع يعتنقه كملفيه ... وما اظن عمر قد اقتنع بجدارة ابي بكر بالمركز المنتظر اذ كان رفيق النبي في الغار . واحق بالتقديم واولى بالاختيار فتى خلف رسول الله على فراش احاطت به السيوف والرماح - الراقد فيه ادنى الى القبر من مدلج في الصحراء ، وانأى عنه التماس النجاة والفرار الى الحياة ! . وما اظنه قدمه اذ عرّفه يؤم المسلمين في الصلاة بضع مرات ، والامامة في ذاتها تصلح بالسن ، وتصلح بالعلم ، وتصلح بالسبق الى الاسلام ثم بغيرها من ميزات ، لم يتخلف على عن واحدة منها الا الاولى وليس في تخلفه هذا ما يعاب به ولا في تقدم غيره ما يثاب عليه ! . ولكنني احسب عمر - فوق هذا - قد نسي في آونة الاضطراب الذي انتابه ، موقفا شهدته منذ قليل وكان حريا معه ان يميل بعلى الى جانب التفضيل . فلقد عرف كيف اجتنب رسول الله ابن عمه وقدمه على غيره من كبار المسلمين : انصارهم والمهاجرين يوم ارسله الى مكة ليكون لسانه الناطق بمحكم التنزيل في موسم حج كان ابو بكر اميره ، وذلك ليقرا براءة ولينقض ما سلف من عهود كانت تربط بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين جيرانها المشركين . لقد عرف عمر هذا كما عرفه سواء ، وعلم اباء النبي ان يؤدى عنه ابو بكر ما اختار عليا لادائه عنه ، وكان قمينا بعد هذا بكل متدبر ان يعلم علم اليقين ان مهمة على لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية ، كأنما الرسول قد اختار ابن ابي طالب للقيام بما هو بعيد الأثر في كيان دولة الاسلام .

ولكن التاريخ جرى - رغم هذا - فى سبيله المرسوم أخطأ عمر
أو أصاب التوفيق !... وخرج أبو بكر مهرولاً من دار الرسول يتجه
الى المسجد وهو لا يعلم قيم دعوة ابن الخطاب . ولحق بصاحبيه هناك
فحدثاه بما كان من أمر الأنصار فى السقيفة . ولست أظن الشيخ علم -
قبل أن يبرحوا ثلاثتهم المكان - أن صاحبيه اراداً تنصيبه خليفة على
المسلمين . ولا أظنهما أيضاً حدثاه بما ينم عما اعتزمناه ، وإنما سار
معهما بحث الخطأ الى بنى ساعدة وفى باله أن يسعى جهده للاحتفاظ
بسلطان محمد لقومه قبل أن يلقفه منهم الأنصار ...

أجل فلم يكن الرجل يطمع مطلقاً فى سلطان . ولم يك يجنح قبل
يومه الى حكم الناس ، بل قد كان من الألى بنفرون من التأمير ولا يجرى
امتلاك أمور الأقوام له فى خاطر . وإن ماضيه لعلى هذا لشاهد ،
فقد مر به - ذات يوم على عهد الرسول - أعرابى عرف له صلته
الوثقى بنبى الله فجاءه يستفىء منه بحكمة لعله نهلهما من تبع محمد ...
قال له .

« يا أبا بكر ... أوصنى » .

فأجابته ، كأنما قد أعد له من زمان طويل جواب السؤال :

« أوصيك الا تتأمر على اثنين »

فكانت وصاة نضحت عن طبع جبلت عليه نفسه وإن أراد له

التاريخ الا يأخذ بها نفسه حين تداركت أمامه الأحداث !...

ولقيهم - وهم موشكون على بلوغ السقيفة - عويم بن ساعدة
ومعن بن عدى : أنصاريان خرجا على اجماع أصحابهما ذلك النهار ..
فاستبقا نحوهم يسألان :

« أين تريدون ؟ »

قال أبو عبيدة :

« الى اخواننا هؤلاء ننظر ما هم فيه » .

فنصحهم عويم :

« لا عليكم الا تقربوهم » .

فصاح عمر بمالوف حدثه :

« والله لتأتينهم ! »

فأجاب عويم :

« أما ان شئت فدونك .. ولكنى يا معشر المهاجرين قمت فيهم أقدم على صاحبكم هذا اذ قدمه رسول الله للصلاة فعابوني وأخرجونى . »

ولا شك ان تقديم أبى بكر كان رايًا سرى بين بعض الناس .

وقال له عمر بلهجة المتربص بمجرى الأمور :

« سننظر وينظرون ... »

« بل اقضوا أمركم بينكم يا معشر المهاجرين »

ولكنه أبى ، ومضى يتبعه صاحبه وطريداً الانصار . حتى اذا أشرفوا على المكان وسرى اليهم جرس الحديث من بعيد . سال عمر أحد الرجلين :

« فأين صاحب القوم ؟ »

« على فراشه يهمس وابنه يذيع .. »

« ويحه !... لا يملك الناس مريض ! »

٥

استطاع أبو بكر بمعهود حكمته ان ينفذ الى اجتماع الانصار ، وان ينفذ الى قلوبهم ، وأن يأخذ ما بأيديهم منهم طواعية او بمظاهرة ظروف الحال .. كان رجلاً له فى الناس هبة وفى النفوس محبة . بانته البفتة على الوجوه حين بدأ يتبعه صاحبه ، ومشى الوجوم فى المكان . لأمر ما عاد عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فى ركاب الشيخ وهما الخارجان منذ قليل على الاجتماع ، ولكن اللسان لم تكدر تصوغ حروف اللفاظ حتى بادرهم أبو بكر بالكلام ، لا عليه ان يترث حتى يستجمعوا شتات الأذهان ولا عليه ان ينصت لقولوا فانما قد جاء هاهنا ليكونوا هم له منصتين ...

وكان حكيماً غاية الحكمة فلم يدع للفرصة أن تسدد خطاه وان سدد هو هذه الخطا لتصل به الى فرصة وفرصات . وحزم الأمر

على أن يكون بيده تدبير الأمر . ولو استطاع لكان أبعد ابن الخطاب عن الحضور الى هذا المكان حتى يأمن دفعاته التي قد تودى واحدة منها بكل تدبير ... ولكنه عرف كيف يملك هذا الزمام حيث يحسن جذبه ثم يرخيه لصاحبه بعدها اذ يشاء .

لذلك ما كاد يدلف الى السقيفة حتى مال على رفيقه بهمس :

« رويدا يا عمر حتى أتكلم ، ثم انطلق بعدها بما احببت » .

فامسك وقد هم أن يثور بالناس . ووقف أبو بكر يتخير من كلماته مفتاحا الى القلوب . وكان الحديث عن رسول الله هو ذلك المفتاح ، فأنشئ عليه وحمده كأحسن ما يستطيع أن يلهج بالحمد لسان وتستطيب الشاء آذان . ثم انشئ يتكلم عن المهاجرين الأولين والعصبة السابقين . قال :

« أيها الناس . لقد خص الله المهاجرين الأولين من قوم رسول الله بتصديقه ، والايمان به ، والصبر معه على شدة اذى قومهم وتكذيبهم ، وكل الناس لهم مخالف وعليهم زار . ولكنهم لم يستوحشوا لقله . وكانوا أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالرسول . هم أولياؤه وعشيرته ، وهم أحق الناس بالأمر بعده ... »

ولم يفصح الرجل عن أى الناس بين أولئك المهاجرة أولى بتراث النبی لأنه كان قد جاء لاقرار مبدأ لا لتنصيب شخص معلوم . ولقد أفضى بما راود خاطره عن صاحب الحق في هذا التراث . ولئن كان أبو بكر لم يذكره باسمه وسماته فقد عينه بتحديد صفاته فأبرزه امام الملا أمرا من المهاجرين الأولين ، سبق الى الدين ، وكان للرسول ولما من عشيرته وقف الى جواره لا يثنيه اذى ولا يستوحش لضعف ولا قلة . بل راح يعبد الله قبل أن يعرف هذه العبادة في الأرض سواء ... رسمه أبو بكر هكذا وان جاء الرسم منظرا عاما ظهر فيه غيره ، ولكنه كان على أى حال رسما لا يعوز العين الفاحصة أن تتبين تجمع ألوانه في ناحية واحدة من نواحيه ! ...

على أن أولئك الذين لم يتبينوا الوضوح في كلام أبي بكر من الانصار أو تبينوه ثم بدوا كأن لم يتبينوه لأن نفوسهم أبت عليهم -

وهم الأعزون - أن يكونوا لغيرهم تبعاً .. أولئك لم يلبثوا حتى نطق ناطقهم فقال :

« إنما نحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وانتم يا معشر المهاجرين - »

فسارع أبو بكر يقاطعه بلين الحديث :

« أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم في الاسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ، ورسوله . وجعل اليكم هجرته . وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور . »

وهكذا عرف الرجل أن يداوى الداء الذي خشيت الأنصار أن يصيبها بعد رسول الله ، فقد أقر لهم بحقهم في المشورة وأقرار ما يرونه من شئون الدولة جديراً بالأقرار . ولكن هذا لم يسكت لسان متحدثهم الذي بادر يعترض :

« بل انكم رهط منا ! . وقد دفت دافة من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويفصبونا الأمر . »

فعلا الهمس اذ ذاك بين الحضور ، وتجاوب المكان بهمة الاستحسان ، صدق هكذا قائلهم وأجاد لأن حديثه كان لما في نفوسهم صدى ... وانما هؤلاء المهاجرين رهط قليلون جاءوهم من قبل مستضعفين ثم استعزوا بهم بين أظهرهم فلا تكون لهم قدم على أصحاب الفضل ، ولا يسبقن الأنصار إليها . وان في أذن كل رجل من السقيفة اذ ذاك لصوتا داوياً مثل قرع الطبول ، يردد ما كان يهمس لهم به سعد بن هبادة ويذيعه ابنه قيس منذ قليل اذ كان يقول :

« ان محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يكذبونه الا رجلاً قليلاً . وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عنهم ... »

أجل هكذا كانوا ... وهكذا كان بينهم النبي حتى أراد الله أن يرتفع لواء الدين فساق الى محمد الأنصار مؤمنين ومائعين وناصرين . ولعل سعداً لم يتجاوز الحقيقة حين قال في معرض إثارة الحمية في نفوس قومه والتدليل على فضلهم المشهود :

« يا معشر الأنصار . لما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فزادكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ،

والاعزاز له ولدينه . والجهاد لأعدائه ... يا معشر الأنصار قد كنتم
أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقلهم على عدوه من غيركم حتى
استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا ،
وأتخن الله لرسوله بكم فى الأرض ودانت بأسيا فكم له العرب ...
يا معشر الأنصار - فستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون
الناس ! »

... ترددت هذه الكلمات ومثيلاتها مما نطق به ابن عبادة ، فى
أذهان الناس وأبو بكر قائم فيهم ، يكاد أن يفرق صوته فيما يملأ المكان
من أصوات ، ولكنه رجل جاء ينصر مبدا ويدعو اليه ولا يقف به عن
أدائه مقاطعة ولا اعتراض . فاذا كان الأنصار قد عرفوا لقضيتهم
هذه حقا فقد عرف قضيتهم أيضا حقا أثبت أمام حجة الخصيم
والفرير .. قال مرفوع الصوت مهيب السمى فى رنة فيها لين
وفيها جرس رصين :

« ايها الناس !... ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ،
ولكننا - نحن المهاجرين - أول الناس اسلاما ، وأكرمهم احسابا ،
وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب :
وأمرهم رحما برسول الله ... ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا
الحى من قريش ! »

حجة تجبه الأنصار فلا تدانيها حجة لهم . الفاظ فى مجال
المفاضلة والفخار ليست تطاولها الفاظ . ولكنها على محك البحث
والتحقيق لا تستقيم لكافة المهاجرين !.. لا ولا للقلة منهم !.. لا بل
عساها - ان نشرتها لهم كالثوب - لا تزال تبدو فضفاضة مهدلة
الذيول والأكمام عليهم أجمعين ثم لا تنسجم بعد الا على فرد فيهم
لأنها اقتطعت على قدر صفاته وميزاته !.. انا لنؤمن حقا ان قريشا
بين قبائل العرب كانت الأعلى . وأن ذاك الحى حقا كان أعلى قريش .
ولكننا نؤمن أيضا ان آل هاشم كانوا فى حيهم هذا وفى العرب كافة
الأوسط دارا ، والأذكى نارا ، والأعز جارا ، وبحسبهم انه كان منهم
رسول الله . ثم دع السامع والمتحدث كليهما يتخيران من بين هؤلاء
رجلا - سوى على بن أبى طالب - كان أول الناس اسلاما ، وأدناهم
قربا من الرسول ، وجمع الظلال والأضواء التى أضفاها أبو بكر على
صورة من يرى له حق ولاية الناس .. دع السامع والمتحدث كليهما

يتخيران رجلا له كل هذه الصفات لو استطاعا الى الاختيار السبيل!..
على اننا لا نستطيع ان نجزم ان كان أبو بكر قد زوى هذا الكلام
وفى نيته ان يروج به لعل ويدعو اليه ، ولكننا نجزم ان الشيخ -
على اى حال - لم يعن به اذ ذاك نفسه ، لانه رسم ميزات اجتماع له
منها الجبل ولم يجتمع الكل ، ولانه كن قبيل هذا المقام لا تجرى له
ولاية القوم فى بال ولم يسع سعيه الا ليقيمها فى الحى الذى آمن
انه اجدر بها من كافة احياء المسلمين .

ومع ذلك فلم يستطع منه بعض الانصار ما قلل لانه أجمل المقال
ولم يحدد هدفه تمام التحديد . وعساه لو كان القى على اسماعهم
اسم ذلك الشاب الذى خلفه قائما على جثمان نبيه وابن عمه يتعمده
بالاعداد والتجهيز لكان للانصار شأن غير شأنهم هذا ، ولكانوا القوا
له كلا السمع والمقادة لا يعترضون ولا يحاجون . ولكن أبا بكر انتهج
ذلك اليوم النهج الذى يستقيم وطبعه اللين الرقيق ، وآثر ان يكسب
الأرض تحت قدميه شبرا شبرا ولا يقطع الشوط كله بقفزة .

كذلك فعل أبو بكر ليخضد شجرة الانصار شوكة فشوكة . فبدأ
يحد من غلوائهم بذكر الرسول ، ثم بآل الحديث ، ثم بالثناء على
ما تولوا به الاسلام من فضل ، وكلما استراحت لحديثه الأذان انتقل
وثبدا الى الناحية التى تقربه من الهدف المرموق . ولكنه ما كاد يبلغ
مبلغه من الكلام واثره فى كثير من النفوس والأحلام حتى انقلت اليه
الحباب بن المنذر ، وقد خشى مغبة هذه الرقة على قضية الانصار ...
قام الرجل يصيح فى قومه محذرا :

« يا معشر الانصار !.. املكوا عليكم امركم . ان الناس فى
فيئكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدروا الا عن
رايكم ... »

وانقلبت بهذا قضية الانصار قضية وطنية تسيرها العصبية !..
وبدا الامر كانه صيال المدينة ومكة كل منهما تبغى ان تفوز دون اختها
بالسلطان !..

واثارت كلمات الحباب الحماس فى الناس فاقبلوا عليه بافئدتهم
بصيغون .

وعاود الرجل دعوته بقول :

« يا معشر الانصار !.. اتم اهل العز والثروة ، واولو المنعة

والعدة ، وذوو البأس والشدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون
... فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض أمركم . «

فتهاثفوا من كل جانب :

« وفقت فى الراى »

واتم ، وهو يشير لى الثلاثة المهاجرين :

« فاما وقد أبى هؤلاء الا ما سمعتم . فمنا أمير ومنهم أمير .. »
وكانت هذه زلة اللسان التى قوضت أركان البنيان !..

٦

امتقع سعد بن عبادة وغاض لونه اذ سمع كلمة الحباب ، وهمس
لنفسه ، محنقا ، وهو يصرف بأسنانه :
« ويحه !.. هذا أول الوهن ! »

لم يكن لسان ابن المنذر أول ناطق هكذا بقسمة السلطان بين
قريش وبين الأنصار ، بل سبقه الى التحدث به سواه حين بدأ أصحاب
السقيفة يتشاورون قبل مجيء أبى بكر وصاحبيه . ولكن النطق به
الآن أقر المهاجرين بالحق فى تولى تراث الرسول بعد أن أوشك
ابن عبادة أن يخرجهم من الأمر صفر الأيدى .

مع ذلك فإن عمر لم ير فى هذا الحديث نصرا للقضية التى جاء
يدود عنها وان كانت كلمات الحباب - فى الواقع - هى نصف النصر .
فسريعا عاود ابن الخطاب عنفه ، وضاق بطول التزامه الصمت ، فما
وسعه الا أن يصيح :

« هيهات هيهات !.. لا يجتمع اثنان فى قرن . »

وأصر الحباب :

« بل يجتمعان ! » .

« لا والله !.. ولن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم .
ولكنها لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم
منهم . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين .. »

فقام أحد الأنصار يهتف بقومه :

« يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقال هذا ، وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر » .

هنا ملكت الحدة لسان عمر فانبرى يقول :

« منذنا ينازعنا سلطان محمد وأمارته - نحن أوليائه وعشيرته -

الا مدل بباطل ، أو متجائف لانم ، أو متورط في هلكة ! » .

قال الحباب ، وقد سمع هذا التعريض . يخاطب أهل المدينة :

« أما وقد أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا

عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، لأنهم بأسيا فكم

دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .. » .

وازددهاه ما كان هو فيه من منعة بقومه وداره وبلده بعد أن أثاره

منف ابن الخطاب ، فانتضى سيفه يلوح به في وجه عمر ويصيح :

« أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ! .. أما والله - أن شئتم -

لنعيدنها جذمة ! .. » .

عصف الغضب بجوانح عمر لهذا الوعيد حتى تلهبت عيناه فمرق

كالسهم إلى الرجل يزأر :

« اذن يقتلك الله ! » .

« بل اياك يقتل ! » .

وأوشك أن يقع ما خشيته أبو بكر بادىء الأمر من ابن الخطاب .

بل لقد لاحت فعلا بعض نذر الشرك إذ ضرب عمر يد الحباب فاسقط

منها السيف ، ثم أشرعه بهم أن يردى به سعد بن عبادة الذي رأى فيه

خالق الفتنة ومثير نوازيها . وما أحسب آفة كانت تصيب الإسلام بمثل

ما أوشكت أن تصيبه هذه الدفعة العمرية الفوارة لو لم يتدارك الله

الأمر فيلهم ابن الجراح أن يحول بين صاحبه وبين ما أراد . كان

أبو عبيدة قد قضى الوقت جميعه يشهد ويسمع ولا ينطق بكلام .

أما وقد كاد أن يفلت من بين أصابع صاحبيه الزمام فقد سارع إلى

جذوة النار يخمدنها قبل أن تغدو مشبوبة الأوار .

هتف بأهل السقيفة بصوت هادىء رزين ، فى نبراته توسل ورجاء :

« يا معشر الأنصار ! . كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من

بدل وغير .. »

فكانما قد لمس بكلماته هذه صمام الهدوء والسكون فى القلوب ..

انصت له الناس ، ثم تهامسوا ، ثم لم يلبثوا حتى هدات فيهم ثورات النفوس . وبدأ المكان ساكنا كأن لم يكن فيه شجار أو جرى في نواحيه حديث . وما برح القوم الا قليلا حتى تبينوا حقيقة الأمور . . . تبين رجال انهم أوشكوا أن يفصبوا حق رجال آخرين . وتبين رجال أن في صدورهم غرسا جاهليا كادت أن تذويه تعاليم الاسلام عاد اليوم يدعوهم الى ربه من جديد . وتبين رجال أن رفعة واحد من الآل تثير الحسد في نفوسهم وان كانوا له بمض الآل . . وفي مثل ملح البصر عملت هذه العوامل كلها متفرقة ومجتمعة ، وكان مجتنى الثمرة من ورائها غير الأنصار ! . . .

وكان اول تلك العوامل حسد الآل للمبرز من الآل . فقد قام بشير بن سعد في القوم يخطبهم ويقول :

« ألا أن محمدا - أيها الناس - من قريش . وأن قومه أحق به وأولى . وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا . . »
ولئن كان الدافع الذى أجرى لسانه بهذا الكلام قد خفى على بعض الناس فإن الحباب أبى عليه أن يظل خافيا أبدا ، بل سارع فكشف عنه الغطاء . . صاح به ظاهر الغضب تقطر من أفاظه مرارة اشمئزاز :
« ما احوجك الى ما صنعت يا بشير ؟ . . انفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة ؟ ! » .

فلم يسمع هذا الحاسد الشائىء الا أن يجيب :

« لا والله . . ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله فيهم . . »



وكان ثانى العوامل احقاد الجاهلية ثارت كثورتها قبل الاسلام وقبضت من بعض النفوس على الزمام . . قام سيد الأوس أسيد بن حضير ، وقد حضره سى هذا المقام ما سلف بين قومه وقبيلة بنى الخزرج رجال ابن عبادة فى الجاهلية من خلافات وثورات . قام يشير فى الأوس عصبية اطفأت فورتها سماحة الاسلام ويوقظ ما نام من سبخيمة الصدور بأن راح يهمس لبني قبيلته :

« يا بنى الأوس ، لأن وليتموها سعدا عليكم مرة فوالله لا زالت للخزرج بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيبا أبدا .. »

واستقر بهذين العاملين السلطان لقريش . لا لأن الانتصار قدمت على نفسها قريشا ، ولكن لأنها استجبت أن تحارب رجلها الكريم وتسلبه ما كاد أن يتم له من سلطان !. وانتهاز أبو بكر الفطن فرصة هذا الانقسام الذى دب فى صفوف هؤلاء المنافسين فأخذ عمر بيد ، وأبا عبيدة بالأخرى ونادى فى الناس :

« أبها الناس .. هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا »

ولكن ابن الخطاب لم يكن قد نسى بعد أى ثلاثتهم أولى بالبيعة دون صاحبيه وما زالت كلمات أبى عبيدة بن الجراح ترن فى أذنيه . فأسرع يقول :

« بل أبسط يدك يا أبا بكر ... »

وعقب أبو عبيدة بعده :

« انك لأفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة

رسول الله على الصلاة ... »

فبسط الشيخ لكليهما كفه يبايعانه . وأسرع عند هذا بشير بن سعد يفعل فعلهما فينحاز وراءه بعض الخزرج ... ويرى هذا أسيد ابن حضير فيدعو قومه علانية بعد ما كان من همسه وأسراره :

« يا بنى الأوس !.. قوموا فبايعوا أبا بكر ... »

وسارت هكذا البيعة للرجل الذى لم تجر خلافة المسلمين له فى بال ولم يك يطمع مطلقا فى سلطان ، ولعل وصاته لذلك الأعرابي راودت فى هذه الآونة خاطره فعرف كيف يروج المرء للمبدأ حيناً ثم لا يلبث حتى يكون من ناقضيه أول ناقضيه !.. ثم عرف أن حجته التى ألزم بها منذ قليل هؤلاء الانتصار لم تعد حجة يلتزمها هو نفسه . ما دامت قد شئت له أن يحيد عن هذا الالتزام ظروف الحال ، والفرص التى أتاحتها له حسد الآل لآل ، وما عاد إلى الحياة من أحقاد الرجال !..

٧

ثبت الأمر لأبي بكر ، يوم السقيفة ، بانحياز أسيد وبشير ومن تبعهما الى رجل بنى نيم . وازدحم الناس من هذين الحين حوله يتسابقون الى بيعته حتى نسوا الشيخ الذى أوشكوا أن يلقوا اليه بالزمام من قليل .. نسوا كريم المدينة سيد الخرج سعدا الذى أقعده وجعه ثم كادت أن تطأه منهم الأقدام وهم يتدافعون نحو السيد الجديد !.. ما أسرع تنكر الانسان للمروءة أمم خيال السلطان !.. ان الناس لم يعد يشغلهم من دنياهم هذه اللحظة الا أن يمسحوا بأكفهم على كف أبي بكر . أما ذلك الذى كانت كلماته تلهب عواطفهم وتثير فيهم الحماس ، وكانت دعوته تملك اهتمامهم وتسنفق منهم الحواس ، وكانوا يتلقفون همسه كمثل تلقفهم خطرات الأنسام فقد هان لديهم الآن شأنه ، وبدا حاضرا كغائب حتى كادوا يقتلونه وهم لا يشهدونه !.. وارتفع من أحد الذين التفوا بشيخ الخرج المريض صوت محذر يصيح :

« يا قوم !.. اتقوا سعدا لا تطأوه ! »

فما أتمها حتى رنت - كرجع الصدى - كلمات جافيات غضاب :
« اقتلوه ، قتله الله !.. »

وكانت هذه دفعة أخرى من ابن الخطاب . انه حتى فى هذه الاوثة التى يدعو ضيقها على الشيخ الى رحمته والترفق به ، لم ينس عمر عنقه ، ولم يتدبر موقفه ، ولم يجعل بخاطره قبل تفوهه بهذا الكلام ما عسى أن يصيبه وصاحبيه ثم بصيب الاسلام لو عدا على ابن عبادة رجل فقتله نلبية لهذه الدعوة الغاضبة . وما أحسب حتى أولئك الذين خذلوا سعدا من الخرج حين تنازع السلطان سوف يبيعون دمه واحدا من الناس ايا كان . ولكن عمر تحدث وما تريت ، وقرر وما تفكر فى عقبى قراره ، فاذا أبو بكر يسارع فيكبج جماحه ، ويرده الى ما هو أدنى الى الصواب ان لم يكن عين الصواب .

قال له ناصحا وزاجرا فى آن :

« مهلا يا عمر ... مهلا فالرفق ها هنا ابلغ »

أجل فالرفق واصطناع الأناة أولى فى مقام يعج بالمخالفين والأخصام ، وكانت الأناة أداة أبى بكر منذ البدء ، داور به الانصار ما استطاع حتى اكملت له الظروف فوزه . وكان العنف أداة عمر لأنه ادنى الى طبعه وابلغ - فى ظنه - أثرا فى مثل هذا المقام . ولقد أصاب أبو بكر فى تلك الآونة لأن كثيرين من الأوس التى اجمعت الكلمة على البيعة له ، لم يبايعوه لفضل وان كان صاحب فضل ، ولكن لأنه كان رجلا من غير الخزرج الغريمة القديمة !.. ولأن كثيرين من الخزرج بايعوا متابعة منهم لسيدهم بشر . . . ثم لأن الأكثرين بعد هذا منها - وكانوا فى كف سعد - فعدوا عن البيعة ولم يثوروا بها لأنهم قد أذهلهم موقف قومهم من حاسدين وموتورين بعد الذى كانوا كلهم عليه من اجماع .



أصاب أبو بكر فى اصطناع الأناة ، وفى النصح لعمر بأن ينهج نهجه لأن العنف كان فمينا ان يعود بنفوس الانصار الى تدبر الأمر من جديد . واخطأ عمر لأن رؤية الدماء كانت كفيلة بأن تثير حرارة الدماء ، ولو أن دعوته الى قتل ابن عبادة لقيت سامعا مطيعا ، لما عجبنا أن رأينا الأمر ينتقض على أبى بكر قبل أن يبرح السقيفة ذلك النهار ، ولرايناها يخلفها كما دخلها ، رجلا من قريش بغير بيعة ولا سلطان . ولكن عمر ، وان يكن بدعوته تلك قد اخطأ ، فانه أصاب من حيث اخطأ . . أصاب لأنه رأى فى حياة ابن عبادة عودة للفتنة وعودة الى الانقسام بين المسلمين : انصار ومهاجرين ، لو شاء شيخ الخزرج فى يوم أن يحاول ابتزاز الحكم . بل ان حياة ابن عبادة عودة للفتنة وعودة الى الانقسام بين المسلمين : انصار وهو آمن ، وثى هذا ما فيه من انتقاص هيبة الحاكم ، وكفيلة بأن ينقض البيعة من بايع لأنه شهد السلامة لمن خالف ولم يبايع !.. وكفيلة بأن تترك غيره من الانصار يحدث نفسه بذلك الحق الذى افلته أصابع قومه ثم يسمى فى اصابة ما فاتهم من نجاح ، وأخيرا هى كفيلة بأن تدع أيا من الناس ظن لنفسه الجدارة وفيها القدرة يحاول جهده التماس هذا النجاح .

أخطأ عمر : ثم أصاب من حيث أخطأ ، لأننا شهدنا مع الأيام ،
الظنون التي طافت بذهنه اذ ذاك نتحقق أو توشك أن تتحقق ...
شهدنا سعد بن عبادۃ يقبض يده عن البيعة لأبى بكر ثم لا يزال
يقبضها بعد البيعة الثانية ومعه كثيرون من قومه ذاهرون على هذا
الامتناع - لا يرجعه عن عزمه هذا اغراء أو دعوة الى التزام كلمة
الجماعة ، بل لعل الدعوة أثارَت في نفسه قوة العزم والاصرار .
جاءه من لدن الخليفة رسول يقول :

« أقبل فبايع ... »

فبصيح مفضبا :

« أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل . وأخضب سنان
رمحى !.. »

فيجيبه الرسول محذرا :

« اتق الله يا سعد ، ولا نشق عصا الجماعة . لقد بايع الناس
وبايع قومك .. »

فلا تلين للرجل امام هذا قناة ، بل يقول :

« انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى !.. مقابلكم بولدى ، واهل
بيتى ، ومن أطاعنى من قومى !.. »

ويعلم عمر بهذا فيخشى المغبة ، ويكاد أن يسبق الى خاطره منه
أمثال وأمثال ما ظلت هكذا هيبة صاحب السلطان ورهبته لا تملكان
القلوب ... واذا به يهتف بأبى بكر ناصحا :

« يا خليفة رسول الله .. لا تدع الرجل جتى يبايع .. »

ولكن بشير بن سعد ينصح بغير هذا :

« بل دعه يا خليفة رسول الله . انه قد لج وأبى . وليس بمبايعكم
حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل ولده ، ثم اهل بيته ، ثم طائفة
من عشيرته ، فاتركوه ... »

ومع ذلك فقد بقى رأى عمر حيث كان . وبقى الخطر - فى
يقينه - ماثلا فى شخص ابن عبادۃ لا يبرح وشيخ الخزرج قائم فى
الحياة ... ولقد جاءت لحظة على هذا الشيخ جعلته يشد رحاله
ويخرج من بلده مهاجرا الى الشام ثم لا ندرى اكانت هجرته من
خشية بطش أم نبا به المقام بين ظهرانى قومه الذين حسدوه ومالوا

عليه الغريب ، ولكن الذى ندرىه أن الأخبار جرت بعد قليل تروى قصة انتفاء الخطر الجائم فى شخصه بعد أن لقى الرجل مصرعه وهو غريب الدار ... وأقاصيص الغيلة على السنة العرب جديرة دائما بالسماع لفرط ما كان الرواة يصفون عليها من سمات وتزويق وان كانت غير جديرة دائما بالتصديق ! ولكن الذى نما الى الاسماع حينذاك أن هاتفا فى ظلام الليل باحدى نواحي الشام ما برح ليلة بعد ليلة يصيح :

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
رميناه بسهمين فلم نخط فؤاده !

وكان هذا الكلام - فيما روى الرواة - من شعر الجن التى قتلت سعدا ... فلما أصبح الناس لم يجدوا الرجل فى داره ثلاثة أيام ، فالتمسوه حيثما شاءوا فلم يعثروا عليه . ولم يبق الا أن يطلبوه فى مكان الهاتف فاذا بهم يجدونه فى بئر ، مطعوناً ، قد اخضر لونه من العفن .

وقال بعض الحمقى :

« هذا فعله الجن ! »

وقال بعض الذين يعرفون ، أو ظن أنهم يعرفون :

« قتله خالد بن الوليد وصاحب له ، طعناه بعد أن كمن له ليلاً ،

والقياه فى البئر ... »

قيل :

« وما لهتاف الجن الذى سمعناه ؟ »

قالوا :

« بل هو هتاف صاحب خالد ، هتف به ليقول الحمقى مثل ماكانوا

يقولون !... »

ثم قال آخر :

« انما قتله خالد بن الوليد بأمر أبى بكر ... »

ولكننا لا نستطيع أن نقحم الخليفة الأول فى هذا العدوان لأن خلقه سياج حائل ، ولا نستطيع أن نبرىء ساحة خالد لأن خلقه أولى به ما كان !. وليس القائد الهمام بالنقى الصفحة كل النقاء من العدوان !... ثم لا عليه أن فعل لحفظ جماعة المسلمين أن تتفرق بين

خليفة وداعية بارض الشام عساه قد خرج اليها وفي قصده ان يفوز فيها بما فاتته الفوز به في المدينة !... ثم خالد بعد هذا وذاك قريب في حساب الأنساب وليس بغريب عن ابن الخطاب ... فاذا شرع احدهما في التنفيذ ولم يصب هدفه ، فقد راب الناس ان ثانيهما اصاب !...



مال النهار ، وتفرق بياضه بددا في اطراف الأفق ، ثم أخذت غوادي الليل تنتقص منه كما شئت ، ويفير سواده حتى غشاه ، وامتلات رقعة السماء بالظلال الدكناء .

وراحت حركة البلدة مع النهار وانطوى هتاف الناس للحاكم الجديد والحديث عنه بانطواء العشاء ، وبدا الظلام منشورا في الجو كانتشار الرمال على الأديم المترامي ، لا تحده عين ، ولون الدجى الذي غلف الكون واحتواء يملأ الأبصار حتى لا ترى سواه .

وكان البراء بن عازب قد غادر دار الرسول مخلفا فيها عليا وآله الى جوار الجثمان الطاهر ، لا يشغلهم ما شغل غيرهم من أمر السلطان ، بل قروا فيها ، حليفهم أساهم . وخرج هو فطاف هنية بالمدينة ، مثقل القلب من هميه : خطب محمد ، وخذلان صاحب محمد آل محمد ... ولم يقر للرجل قرار بل أمعن - على غير هدى - في التطواف . وبذل من جهده في السير ما عسى ينسيه عناؤه ما كانت تلقى نفسه من عناء . ولكن لوعته صاحبتة ، ولاحقته خواطره القائمة قتامة الليل وملأت عليه آفاق روحه فتلمس معدى عنها رحبة المسجد لعله يفىء الى بعض هدوئه في ساحة الله . ويمم ركنا يستريح فيه آونة ويمسح بالصلاة على قواده الجريح . ثم يستقر ويسكن لحظات . ولكن بصره كان لا يلبث ان يدور في المكان ، ويستوعب نواحيه ثم لا يلبث حتى تثبت عيناه على ناحية دانية طالما تبنت قبل هذه الليلة عليها العيون ... وانه ليخال ان محمدا الآن جائم في المحراب وان خلا منذ اليوم منه المحراب !... وينقبض بهذا صدره ، ويرعش جفنه ، ثم تبتل

منه الاهداب . وانه لينأى بناظريه آنا ، فاذا السمع يحمل اليه ما أبعد عنه عينيه - او هو الخيال - حتى ليسرى اليه الترتيل واضحا فى هداة السكون . ينطلق ذلك الصوت الرقيق الحلو النبرات بهمهمة خافتة يتردد جرسها حوالى البراء ، جائيا من ناحية المحراب فى هدوء حبيب ، وفى خفوت رتيب يمتلىء به السمع ولا يشبع ، اما القلب فيقنت ويخشع ، واما النفس فتعنو وتخضع ، واما العينان فلا تزالان تتلفتان ثم يرتد البصر ، لأن المسجد كله من محيا محمد خلاء ، وكان محياه قل الليلة للبصر ضياء وجلاء .

ولم يعد للرجل محيص عن الرحيل ، ودفعه سباق لا يرقا ولا يغيض ، وقلبه قد اكتسى أسى فوق أسى . فغادر المسجد . وعادوا ثانية رحلة الطواف على غير هدى ، لا يحاول أن يتبين معالم الطريق . ولا أين يسير . بل كان بحسبه أن ينطلق والليل ، حيثما يحدهه الظلام أو تحمله الأقدام . ليس يعنيه أن كان قد خلف وراءه العمران وراح فى جوف طريق موحش غير مطروق ، ولا أن يضرب قدما أو ينكص ، ولا أن بوغل حتى يفضى الى البید ، لأنه كان لغير غاية يسير ؛ وان كانت غايته هى الطواف والمسير .

ومع ذلك فقد كان كمن سددت لغاية خطاه ، اذ انبعث من ذهوله واعيا يدرك ، سامعا ينصت ، وان حال الظلام دون تبينه مصادر الكلام .

اتته الأصوات مخافتة ، هامسة بالمناجاة ، كأنها تظن بحديثها على الشفاه ولا تدعه الا بحساب . وهم البراء أن يرتد فيعود ولا يوالى السير خشية أن يكشف سرا او يكون عبثا على أصحاب الحديث . وأطلق بصره فى المكان برهة فعرف أى شوط طويل سار حين تبين أنه بفضاء بنى بياضة ، وليس مثله بالناحية التى يتلمسها من يريد الحديث الا من رغب عن فضول العيون واستراق الأذان .

هم أن يرتد ... لولا أن سرت اليه بعض الفاظ مختلفة من المناجاة عرف فيها بعض الأصوات كان قد وشت بأصحابها له ... ولكنه ما كان ليعزم على المكوث ، رغم هذا ، لو لم يسر الى سمعه صوت يدعو بهمسة المحاذر :

« ابن عازب والله !.. هلم ! » .

فأجاب ..

« المقداد ؟ » .

« نعم ... واقبل » :

فسمى حتى حق بالثلة المجتمعة ها هنا نحت الليل . من اول نظرة عرف الرجل فيم كان هذا الاجتماع ، لأن كل واحد من هؤلاء الصحاب كان اجلى عنوان يفصح عما فى باطن الكتاب !! .

كانوا جماعة من صحب الرسول . خيرة صحبه ، واقربهم الى نفسه ، واحبهم الى قلبه الكبير ممن اوذوا في سبيل الاسلام ، وفاضت بهم كأس الابداء فلم يفتنوا عن دينهم ، بل اعتصموا بالصبر غاية اعتصام . كانوا اشرق المسلمين اذ ذاك قلوبا وأرواحا وأولهم سابقة لدين الله ، وأدناهم من ربهم مقاما . كان بعضهم من أصحاب الصفة بمسجد الرسول - أولئك الدارين بالعرض والفرض ، المقيمين للحق على الحق ، التائبين عن الذنب ولا ذنب ، الذين رضوا من الدنيا بما دون الكفاف وبالخبز الجاف اذلالا للنفس وقهرا للبدن ورياضة للروح . وكان بعضهم من الأنصار ، ساروا كسيرتهم عزوفا وزهادة ، وفنيت قلوبهم فى ذات الله ، وفى حب رسول الله .

وتطلع البراء حواليه برهة الى هذه الأجسام الناحلة من نسك ، والوجوه التى كانت تضىء من ايمان ، فما وسعه الا ان ينثليج لمراهم صدره ، ويفرح قلبه لو عرفت القلوب - بعد الرسول - الأفراح . ولكنه على أى حال ، استشعر الفرحة تسرى فى فؤاده وتهز اعصابه اذ كان يعلم سلفا ما فى باطن الكتاب ما دام هؤلاء هم الحروف التى تألف منها العنوان ! .

كانوا حقا اجلى عنوان يفصح عن مادة الكتاب !! . كانوا أمة الايمان بين كافة المسلمين من انصار ومن مهاجرين . لم يحضر منهم واحد بيعة السقيفة فى بنى ساعدة ، لو حضروها لما القوا قيادهم لشيخ بنى تيم . ولم يمسحوا بأكفهم على يده حين اتى المسجد بعد أن بايعه سواد الانصار ، بل تخلقوا هم - كما تخلف كثيرون من المهاجرين

الأولين - لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم أى الناس أولى منه بأن تمسح
أكفهم على يده ، يلقوا زمامهم له طائعين .

وعاد البراء يجيل فيهم بصره فأحس الرضا إذ عرف أن القضية
التي آمن هو بعدالتها أشد الإيمان ، قد جاء هاهنا لنصرها خير الناس .
 واجتمعوا ، تحت الليل ، فى هذا الفضاء يدبرون لها ويتشاورون
بعيدا عن فضول العيون والأسماع . . اجتمع لها خير الناس من صحابة
رسول الله الأذنين ، أولئك الذين ما كان يجمعهم هدف لولا أن يشعروا
له بعدالة ترفعه فى عيونهم الى مرتبة التقديس . والذين صحبوا
الحق منذ علموه ، لم يملوا عنه أمام سطوة ولا قسوة ولا تعذيب ولا
ايذاء . وبحسبهم أن كان فيهم رجل غفار أبو ذر . الذى صلى لله قبل
دعوة رسول الله ، ثم سعى الى محمد يبتغى الاسلام ولم يكن محمد قد
جهر بعد بالدعوة الى الاسلام . . سعى اليه لأن قلبه الناصع كان
مهيا للهدى . وأقبل فأسلم ، ثم انطلق ومن ورائه كلمات الرسول :
« يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا
فاقبل . . »

ولكنه - رغم هذا - رأى الا يصدع بالأمر لأن فى الصدوع معنى
خشية أذى قريش وما يستطيعون أن يركبوه به من قسوة وبطش . . .
فسارع يجيب رسول الله .

« والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم ! . . »

وصرخ بها فأوذى ! . . ثم لم يمنعه الايذاء من معاودة الجهر
والصراخ ثم معاودة الجهر والصراخ لأنه رجل يعرف للحق قوة
لا ترجحها قوى العدوان مجتمعة ومضعة آلاف الأضعاف . . . وكان
شعوره دائما وما أوصاه به ذات يوم رسول الله :

« لا تخش فى الله تعالى لومة لائم »

وبحسبهم أن كان فيهم أيضا عمار . . ابن سمية التى استشهدت
فى سبيل الاستمسك بالاسلام وهو واقف يشهد ولا يستطيع دفع
الأذى عنها ، ولا عن أبيه ، ولا عن نفسه وقد أحاط به بنو مخزوم
الطفاة يلبسونه محمى الحديد ، ويتولونه بما وسعهم من ايذاء وهو
صابر أمام سوط العذاب ، وفى أذنيه يتردد نصيح رسول الله :

« صبرا ابا اليقظان » .

... وبحسبهم ان كان فيهم الفارسي سلمان .. ذلك الشريف الذي خلف قصره وهجر بلده يريد ان يلتمس الحق ويظفر به اينما يكون . وارتحل يجوب الآفاق تاركا وراءه اصبهان بعد ان خلع فيها رداء المجوسية . ويم أَرْض الشام يطوف بها ويبحث عن الهدى بين نواحيها . واعتنق المسيحية . وراح يعاود التنقل والترحال بين البلدان يستوعب المعرفة من افواه اساقفة ذلك الدين . وكلما تعلم ما لدى واحد منهم تركه الى آخر حتى انتهى به المطاف الى عمورية حيث حدثه اسقفها ان الحق المنشود انما ينطق به لسان رجل يظهر في أرض العرب لا يزال يدعو الى الهدى قومه حتى يخرجوه ظلما فيهجروهم الى أرض بين حرتين بينهما نخل .

ويدفع الحق سلمان الى أن يغد السير الى منبع الهداية المنشودة . ويلقى في الطريق ما يلقي من عناء فيفقد ماله ، ويفقد حريته ، اذ يسترقه اقوام يبيعونه بيع العبيد ، ولكنه لا يابه لهذا الأسار الجسمي ما دامت الحرية الروحية لن تلبث ان تطلع شمسها عليه . ولا يخيب الله رجاء عبده المؤمن ، الساعي جهده الى ابتغاء رضاه ، بل يهيء له آخر الأمر لقاء محمد رسول الله .

ويقول سلمان وقد استوثق من شأن العربي الكريم :

« يا رسول الله .. اني رجل فارسي ، خرجت من بلادى فلما حدثا ابغى دين الحق . ولكن يشغلني عنك الرق .. »
فيتفكر هنيهة ثم يقول له :

« كاتب يا سلمان »

« نعم اكتب صاحبي اليهودي على نخل احييه له ، اذ لا مال عندي »

فيوافق رسول الله ويقول لصاحبه الآخرين :

« اعينوا اخاكم »

ويستجيب المسلمون لدعوة رسول الله فيعاونون سلمان بالعمل معه في النخل كي يشتري نفسه من سيده . ولا يحجم رسول الله عن العون بل يساهم فيه بنصيب - هو اوفى نصيب لان الله يهب البركة كل ما يعبد رسوله يدا اليه . يقول لسلمان :

« اذهب يا سلمان فققر لها ، فاذا فرغت فأتني اكن انا اضعها
بيدي » .

بحسب العصابة المجتمعة هذه الليلة بفضاء بنى بياضة ان يكون
فيهم هؤلاء الذين وهبوا دائما جهودهم للحق ، وبذلوا ما استطاعوا في
سبيل اعزازه ليعرف البراء عدل القضية التي ود بقلبه أن ينصرها .
فاذا اجتمع اليه هؤلاء ، واجتمع اليهم المقداد بن عمرو ، وحذيفة
ابن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابو الهيثم بن التيهان وغيرهم من
خيرة صحب رسول الله الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر اقتناعا منهم
بأن في الناس سواه أولى منه بالبيعة ومن كل الناس ، اذا اجتمع
كل هؤلاء ، وأجمعوا الكلمة ، فلقد آن ان يعود الحق أخيرا الى
ذويه ...

٩

التأم الجمع في فضاء بنى بياضة تحت الليل ، أقبل اصحابه
على الأمر يحصونه ليروا له أنسب الحلول .
قال عمار بن ياسر :
« ما لتيمة وهذا الأمر ؟ .. انه قد كان لرسول الله ، وهو من
بعده في خير الناس بعد رسول الله .. اما لقد ظلمت الأنصار ! »
فأجابه البراء :
« يا ابا اليقظان .. انما انتزعه الرجل بحق فريش وعاونه
صاحبه » .

« ما لبيعة لم يشهدا المهاجرون الأولون صحة ! »
وقال حذيفة بن اليمان يدلي بالنبا الذي ينير امامهم الطريق :
« وان الانصار لتريد ان تنقض ما كان منها ! »
« افتعلم حقا ! »

« والله ما كذبت وما كذبت ، ثم والله ليكونن ما أخبرتكم به .. »
فقال المقداد بن عمرو :

« فهذا والله خير ، وليردن الحق الى صاحبه من بعد » .
وتسائل سلمان :

« فان أبى الرجل ؟ »
فأجابه أبو ذر :

« فدعوه !.. انه ليس ولا صاحبه الا ثلاثة من المهاجرين . أما
حجته فهي عليه .. »

ثم التفت الى البراء يوجه له الحديث :
« أو لست سمعته يا بن عازب يقول فى السقيفة ما تقول ؟ .. »
« نعم »

« فلفيره والله — بحجته — الامر دونه !.. والله لا يرانى أبدا
أبايع ابن أبى قحافة وفى الناس ابن أبى طالب !.. »
قال عمار :

« وما الراى ؟ »

فرد المقداد :

« الراى ان نعيد الامر شورى بين المهاجرين »
« أصبت »

« وهذه الأنصار تهم ان تنقض امر السقيفة ... »
فشنى حذيفة بن اليمان :

« نعم . وهلموا الى أبى بن كعب فقد علم كما علمت »

وانطلقوا من مكنهم ذاك وقد انتهى رأيهم الى اعادة الامر شورى
بين المهاجرين ينظرون فيه ، ما دامت بيعة السقيفة قد تمت بغير
علمهم هم الأولى بأن يكونوا أصحاب الراى الأول فى اختيار خليفة
الرسول ، وما دام الانصار قد انجلت عنهم الآن غاشية المفاجأة وعرفوا
انهم لم يكونوا محقين حين سلموا الامر لآبى بكر ، حتى راحوا
يتهامسون بأنه جدير بهم أن يستردوا بيعتهم .

انطلق الصحاب المجتمعون الى دار أبى بن كعب يضربون عليه
بابه ، فجاءهم صوته يقول :

« من ذاك ؟ »

« المفداد وقوم .. يا أبى ، افتح بابك فان الأمر اعظم من ان
يجرى من وراء حجاب »
فأجاب :

« لقد عرفت ما جئتم له .. »

ثم أتم حين بدا لهم ، قال :

« كأنى بكم قد أردتم النظر فى هذا العقد ! »

أجل كان هذا هو الذى أرادوه ، والذى سعوا اليه ، والذى
أجمعوا أمرهم عليه ، ثم كادت أن تعينهم على اتمامه الأحداث لولا
ما سبقت به الأقدار من سطور التاريخ ...

ولعله يحسن بالمرء فى هذا المقام أن يتساءل ان رجال من شيعة
شيخ بنى تيم قد نافقوا وبدوا امام هذه العصابة كالناصرين ثم مشوا
من بعد بأخبارها اليه ... ولعله قد شاع فى الناس اعتزام الانصار
نقض ما سلف من بيعتها للشيخ فأخذ حذره وأعد للأمر عدته قبل
أن يفجأه وقوعه ... اهل هذا أو ذاك هو ما قدر له الحدوث وان كان
الذى لا يرتاب فيه انسان ان أبا بكر كان حريا بأن يكون بارعا ، كما
عهدنا فى بنى ساعدة ، ولا يدع عمله رهينا بما تجيء به الاخبار
أو ينتظر ثم يرى كيف تلهمه العمل ظروف الحال ، واحسبه بات ليلته
تلك وفى همه ألا يصبح الصباح حتى يكون هو صاحب الرمية الثانية
كما سدد اولى رمياته الصائبة فى نهار الأمس !

هكذا كان الرجل ، وهكذا طلعت علينا صورته من خلال تسيج
التاريخ فلم يكن عجبا ، اذن ، أن يسارع ، وضياء الشمس ينتشر فى
الآفاق ، الى مسجد المدينة ومعه صاحبا . ونادى فى الناس مناديه
فاجتمعوا له ... وبقيت عصابة الليل تلك فى غفلة عن هذا التدبير
الذى لم يطف بخواطيرهم بل سبق كل ما احكموا من تدبير ..!

ووقف عمر بن الخطاب بين الناس يتحدث انهم :

« ... انى قد قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدتها فى

كتاب الله . ولا كانت عهدا عهدا الى رسول الله . ولكنى قد كنت

أرى ان رسول الله سيدبر أمرنا ، ويبقى ليكون آخرنا . »

وأجمل بهذه الكلمات اعتذاره عما بدر من دفعته حين تهدد بسيفه

من قال ان محمدا قد مات ، ثم مضى قدما الى الغاية التى من أجلها

كان جمع الناس ، فقال :

« أيها الناس : ان الله قد جمع امركم على خيركم : صاحب رسول الله ، ثانی اثنين اذ هما في الفار . فقوموا فبايعوا ... »

فماذا عسى كان عمر مستطيما قوله في مثل هذا المقام لو كان أبو عبيدة قد قبل البيعة منه حين مد اليه كفه وهو يريد أن يفسد ما كان من اجتماع كلمة أصحاب السقيفة على صاحبهم ؟ .. أفكان ينطق لهم بنفس هذا الكلام أم كان يزوى مقالا غيره للمقام ؟ ان الذي لا يثبت الريب أمامه مطلقا هو ان صاحبه الذي وقع عليه الاختيار لم يستطع أن يزعم لنفسه ما اضيف عليه ابن الخطاب .. بل رقى المنبر في هدوء وقال :

« أما بعد أيها الناس ... فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم »

فان يكن حقا ما قال أبو بكر فهو اعتراف بالفضل لغيره ممن هو له اهل ! . وكفى ابن الخطاب أن اختار أولا فردة من كان محور هذا الاختيار اذ رآه لم يحسن حين اختار .. وأن قدم في الثانية وقال فردة من قيل فيه المقال ! ...



على أن البيعة ، مع هذا ، تمت على الوجه الذي اراده الثلاثة الرفاق ، وبذيع اليوم لأبي بكر من لم يكن بايع من عامة الناس . وراح الذين لم يبايعوا أهون شأننا مما كانوا عليه بالأمس وأقل رجاء في التفاف القوم حول الدعوة التي دبروا لها كل تدبير ، والذين كانوا قد آلوا على تقض البيعة آثروا البقاء في جانب الرجحان لأن النقض بعد هذا كفيل بأن يصيبه الوار والخسران ! ..

وهكذا اجتمعت كلمة أكثر الانصار ثم من بعدهم أكثر المهاجرين علم اختيار أبي بكر وبقي ولي الرسول : حيثما كان الى جوار الجثمان الطاهر ، تمر به الأحداث ولا يرى أن يتابعها لان رسول الله أحق باهتمامه من كل سلطان . وتفرق الناس بعد البيعة الثانية مجمعين على رجل وكانوا قبل السقيفة - وهم متفرقون - قد اوشكوا أن يجمعوا على سواه .. تفرقوا وان ساروا زمرا تؤلف الشكل على الشكل : فيهم من رضى فراح يهتف ويهلل معبرا عن رضاه . وفيهم

من خالف فراح يهمس ويدلل على اصابة رايه ودعواه . وفيهم اناس بين هؤلاء وهؤلاء ... تابعوا الكثرة لانهم لا تدلهم على الحق فراسة ولا استقرار بقاء ما تدلهم وجهة الجمهور . فانطلقوا هكذا مع الكثرة ، وفي حساباتهم مقياس الصواب وفصل الخطاب ...

اما الذين قد غابوا عن البيعتين ، فان آراءهم تفرقت بين هؤلاء الطوائف الثلاث كلما اشرقوا على الحشود التي اخذت تغادر المسجد ويسبقها الهمس والهتاف ، تأسر بعضهم حجة من هنا وتأسر البعض حجة من هناك ، ويقبلون متسائلين ثم يرتدون مؤيدين او معارضين ، ولكل منهم سند من فضل الرجل او فضل ذاك المنافس الغائب عن العين المائل في الخاطر ... وما اظنك ، لو كنت هناك ذلك اليوم ، الا انحزت الى هذا الفريق او ذاك . ولكنك كنت على اى حال قمينا بأن نسمع نوعا آخر من الآراء ، فريدا فذا لو استطعت ان تقفوا اثر هذا الشيخ الكبير ... انك لتراه سائرا هونا على الأرض ، رافع الرأس رغم وقر الأعوام ، محدد البصر الى ما امامه وان نصب من عينيه المعين وغاب لمع النور ، قد اصاب مسمعه لفظ الجمهور فسار على هدى الأصوات . وان الناس ليلمحونه من بعيد مقبلا فتخطف في غيوتهم نظرات اكبار ... وانهم لينفرجون له اذ يقبل حتى تضمه الجموع .. فاذا أنصت له كما أنصتوا سمعته يقول :

« فيم يا قوم هذا الضجيج ؟ »

فيجيبه بعض الناس :

« قد ولى ابنك الخلافة »

ويروح الشيخ عند هذا يهز رأسه وهو يتلو في هدوء بعض آي

القرآن :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء .. »

ويعاود الالتفات ، بوجهه ، الى محدثه يسأله ثانية :

« فلم ولوه ؟ »

« لسنه » ...

« فانا أسن منه ! »

ويمضي باسمه من بين الناس وهو يمسح بكفه على لحيته

البضاء ...

١٠

لو أنصف الناس حق الانصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم
مؤازاة جثمان الرسول . كان هذا أدنى الى التزامهم جانب التدبر
واحسان التفكير قبل الافدام على الاختيار . فلقد كان حريا ، حين
طارت نفوسهم هلعاً اذ سمعوا بوفاة محمد ، ألا يملكوا ضبط الميزان . .
والنفوس دائماً - عند ما ندهم النزالات - لا تستطيع أن تلتزم الجادة ،
بل تنحرف الى يمين أو الى يسار .

كان الأدنى الى الصواب ، أن لم يكن هو الصواب ، أن يترى
القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ومحمد
ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مشواذ . . . فاذا تعجل
الأنصار أمر البيعة ، وراحوا يهتبلون من هلع النفوس على نبينا
فرصة للفوز بالسلطان ، فلقد وجب على أهل الحكمة من المهاجرين أن
يردوهم عن هذه العجلة التي لم تكن تدعو اليها دواعى الحال . . . أن
الاسلام كان حقاً موشكاً أن يجتاز محنة مصيبة أوقعته فيها قبائل
المرتدين ، وأنصار الكذبة من المتنبئين وجموع الخالعين فرض الزكاة .
ولكن هذا كله لم يقع فى لحظات ، ولا دفعة واحدة ، بل كان كقطع
السحاب المتناثرة فى نواحي السماء ، تدفعها الريح من هنا ، وتسيرها
من هناك حتى تجتمع فوق مكان ثم تبادره بالوابل الهطال . . . ولقد
أخذت نتف الأحداث التي تألفت منها المحنة التي واجهها أبو بكر
تجتمع الى بعضها فى أيام وفى أيام ، فلم يتناولها الرجل غب بيعته
الأولى ، ولا غب بيعته الثانية بالعلاج لأنها لم تكن - بادئ الأمر -
جديرة منه بأدنى التفات . بل بقى مكفوف اليد عنها ، ولو علم لها
فى البدء خطرها الذى صار لها فيما بعد لادخر لها جيش أسامة
ابن زيد ولم يسيره الى الشام .

كان أولى أذن بالأنصار أن يترشوا يوماً وبعض اليوم حتى يوارى
جثمان الرسول ، ويستريح فى مشواه . ولكنهم تعجلوا ، وكان
المهاجرون - فيما يبدو - أميل الى القصد فى العجلة ، لولا أن نما

الى سمع عمر من أنباء السقيفة ما دفعه وصاحبيه الى بنى ساعدة ،
يبادرون العجلة بمثلها ولا يأخذونها بالتريث والارجاء . . . ولو استطاع
فريقا الاسلام أن يصطنعوا الأناة لسار الأمر فى أفوم سبيل ، لأنه
كان سيلقى نفوسا ذهب عنها الروح ، وقلوبا نقضت الهول ، تقبل
على تمحيص الآراء وعجم عود الأشخاص ، ثم تختار فلا يفوتها احسان
الاختيار .

ولكنه كان قدرا مقدورا ليس يبدله حدس ولا افتراض ، واختير
الرجل الذى لم تسبق اليه مشيئة الناس بقدر ما كان اختياره غرس
الصدفة التى حركت باسمه لسان ابن الجراح شئ مسمع من ابن
الخطاب ، وبقدر ما ساهم فى هذا الاختيار اختلاف حزبي الأنصار ،
وبقدر ما هيا الرزء الداهم نفوس القوم للرضا والاقرار ! .

وكذلك سكن الناس ، ولم يثر منهم ثائر ، ولم يجهر بالخلاف
من لم تلق بيعة أبى بكر فى نفسه موضع قبول ، بل استوى فى البدء
الراضى والمخالف والتزموا الهدوء لأن الأحزان لم تتح لهم فرصة
للتفكير فى غير مشار الأحزان - أو تركت ثم أبى عليهم الثورة انشغالهم
بأمر الرسول . حتى العباس نفسه ، وهو من رأينا مدى حرصه على
إبقاء سلطان ابن أخيه فى ذويه ، قر لا يطلع على الناس مناديا بنصرة
أو محرضا على خلاف .

ولكن المشاعر المكبونة تحت غطاء الأحزان لن تلبث ان تنطلق من
عقالها بعد دفن محمد ، ويثوب الناس الى الماضى يتناولونه بالتحليل
كما تملئ ميولهم أو تملئ عليهم مقاييس الأوضاع والأشخاص . ثم
تجمعوا فرقا فرقا ، وأخذوا - كما وسعهم - يتحدثون بأرائهم ،
خفية آوئة وعلائية آونات ، لأن سلطان الخليفة لم يكن قد آن أن
يثبت فى قرارة النفوس كل الثبات . . .

وكان آل الرسول اثناء البيعة الثانية فى داره كما كانوا حين بيعة
السقيفة . لا يأبهون أن مال عنهم القوم خاذلين أو مالوا نحوهم
ناصرين ، جمعهم جثمانه الكريم وشغلهم عن دنيا الناس بما فيها من
غرض ومن سعى الى السطوة والجاه وامتلاك سيف السلطان . وليس
من شك فى أن رجالا منهم عز على نفوسهم أن تسير الأمور بغير

مشورة منهم وعلى غير ما يشتهون . ولكنهم - رغم هذا - لم يملكوا الافصاح عما جاشت به صدورهم على ملا من الناس ، لأن صاحب الامر وقودتهم فى الميدان لو أرادوا تأليب الجماهير التزم جانب السكون فى وقت كان يراه حقيقا منه بالهدوء والسكون .

ولكن ابا بكر لم يعرف القرار والسكون !.. كان صاحب سلطان طرى العود هش البنيان فكان لزاما عليه ان يصطنع له دعامات توطد اركانه . ولم يكن الشيخ قد نسى نبأ فضاء بنى بيضة وما جرى فيه من اجتماع خيرة المهاجرين على تقض بيعته لولا مبادرته بالبيعة الثانية الى افساد ما سبقوا اليه من تدبير . ولم يكن قد نسى أن عليا والعباس ومن لاذ بهما من آل محمد وصحبه الاقربين قد غابوا عن المسجد هذا الصباح حتى جرت اللسن تغض من شأن بيعة المسجد اذ لم تقرها هذه الصفوة المختارة من رجال الاسلام . وكان الشيخ يعلم أنه لا يأمن - أن دعاهم الى البيعة له - أن يعصوه امام الناس . وكان يعلم انهم حريون بهذا العصيان وان رأوا اعناقهم تحت ذوائب السيوف . ثم كان يعلم ، افوق هذا وذاك ، أن رايهم جميعا رهين برأى ابن أبى طالب ان شاء عصى وعصوا أو شاء رضى ورضوا وما لرضائه فى هذا المقام سبيل !..

وقلب الرجل الأمر على وجوهه مرات ومرات . انه اذن قمين الا يقر لحكمه قرار لو بقيت هذه الحال ، قمين أن يجتمع هذا الحزب المناوىء ، بعد اليوم ، بألف فضاء وفضاء ... قمين أن تخرج من يده كرها كما دخلتها كرها بيعة الانصار !..

وجمع اليه صاحبيه يشاورهما ويتحدثون ...
قال له عمر :

« يا خليفة رسول الله ألزمهم طاعتك . »

« فان أبوا ؟ »

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء . »

وقال أبو عبيدة اللين المداور :

« بل ابعث الى المغيرة فاته صاحب رأى ... »

وجاء المغيرة بن شعبة بالرأى الذى كان منذ القدم وسيلة الحاكمين الى قهر المحكومين ... تفكر الرجل هنيهة ثم قال :

« ما أرى الا تمزيق جماعة هذه الناس . »

« وكيف ؟ » .

« امض الى العباس فألق اليه انك جاعل الامرة نصيبا له ولولده » .

« قد قلت ! »

« ثم لا يضريك بعدها من على شيء أبدا . »

وعلى هذا الرأي مضى أبو بكر يتبعه عمر الى عم رسول الله .
وبدا الخليفة الحديث فقال :

« يا أبا الفضل . . ان الناس اختاروني عليهم واليا ، وما أنفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجا . فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس . أو صرفتموهم عما مالوا اليه . »

فقال شيخ بنى هاشم الداهية الأريب يرد على كلام الخليفة :
« يا أبا بكر . . . انك طلبت ثم اخذت . فان كنت برسول الله طلبت فحقنا اخذت ! . . . وان كنت بالمؤمنين فنحن منهم ! . . . وان كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين ! . . . وما أبعد قولك ان الناس طعنوا عليك من قولك انهم مالوا اليك ! . . . »
فتدخل عمر في الحديث يحتد كالمعهود منه :

« انا لم نأتكم لحاجة اليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم وعامتهم . »

وخشى أبو بكر أن يغضب هذا الكلام العباس من حيث اراد ان يترضاه ، فأسرح يقول :

« يا أبا الفضل . . . انك سيد هذا البيت . وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في أمرنا نصيبا ولمن بعدك من عقبك اذ كنت عم رسول الله - »

ولكن العباس لم يدعه يتم ، بل انبرى في التو يخاطبه ، ويرد عرضه :

« أفما تريد أن تعطيناه حقا ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟ .
يا أبا بكر ان يكن حقا فأمسكه عليك . . . وان يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه . . . وان يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض ! . . .
ولكني أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله ! »

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

فابتسم العباس ، واجاب وهو يهز كتفه بلا اكتراث :
« انى ما قلت الذى قلت اروم به صرفك عما دخلت فيه .. لا
والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان !... يا ابا بكر ، ان يك
رسول الله منا ومنكم فان رسول الله من شجرة ، نحن اغصانها ،
وانتم جيرانها ! »

١١

اتم على جهاز الرسول بعد ان اتم غسله . ووضع الجثمان الطاهر
على فراشه ، على شفة القبر فى الحجرة النبوية . ثم بدأ هو بالصلاة
وخلفه الرجال من آله ، حتى اذا فرغوا ادخل النساء .
وخلى بعد هذا بين الحجرة وبين جموع المسلمين ، يدخلونها ارسالا
ليتزودوا من محمد بنظرة الوداع الأخير ، وليسكبوا ما شأوا من
دموعهم حشرات على الرجل الذى اضاء للناس جوانب الحياة كما لم
تضيء نجوم ولا شمس ، وغرس النور فى هذه القلوب والارواح ثم
تركه من بعده للأيام ذخرا يفيضون منه على بقية الأنام .

ودخل ابو بكر ، خافض الرأس مضطرب الخطو من اساه ، يترقرق
الدمع بعينيه ثم ينطلق لا يفيض . واقترب من الجسد الطاهر الكريم
فحياه وكان صوته - من بين غمرات الحزن - لا يكاد ان يبين ، ويكاد
حلقه ان يشرق بالبكاء فلا يؤدى الكلمات . ولكنه اصطنع ، كما وسعه ،
الاصطبار ، وتذرع بالجلد والاحتمال ، ثم راح يتكلم بصوته الخفيض
الرقيق :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... »

فردد بعده المسلمون ، وما فتئوا يرددون :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »

« اللهم انا نشهد ان قد بلغ ما أنزل عليه ، ونصح لأمته ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وتمت كلماته فأمن به وحده لا شريك له ... »

« اللهم انا نشهد . »

« فاجعلنا يا الهنا ممن اتبع القول الذى انزل معه ... »

« آمين »

« واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا فانه كان بالمؤمنين رءوفا

رحيما .. »

« آمين ! ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« ولا نشترى به ثمنا ابدا ... يا رب العالمين . »

وانقضى النهار - بعد هذا - وبعض المساء ، يودع الرجال والنساء

والأطفال نبيهم الكريم .. كلما خلت الدار من فوج منهم جاءها

فوج ، حديثهم سلام ، وتحيتهم صلاة وقيام .



ولعل أقسى محنة اجتازتها نفس بشرية كانت تلك التى المت بعلى

اذ وقف ، جوف ذلك الليل ، على حافة قبر الرسول بعد ان وسد

الجثمان الكريم مرقده وخرج من القبر ليهيلوا التراب ... هذه لحظة

لا تحسب بمقياس الزمان ، استحالت فيها الوحدة الزمنية الى طاقة

شعورية من اللوعة الطاغية والحسرة العاتية ، كان القلب ساعتها

الدقاقة ، وكانت خفقاته دقاتها وثوانها التى تلكأت فى المسير

وسارت ، فى حساب الشعور ، الأجيال والدهور ! ... وقف على -

وما نستطيع أن نقول انه كان سوى عين دامية تدمع استجابة لاحساس

نفس ولهى وقلب تصدع - ثابت البصر على هذه الرقعة الصغيرة من

الأرض التى أصبحت لمحمد وطاء وغطاء ... قد برح به الشجن

لغياب هذا الشاوى البعيد القريب ، وبرح به ما يعرف من عسر اللقاء

غيب فراق لم يسبقه فراق ، وبين يلقي منه مثل ما تلقى الأم تشهد

على حجرها مصرع وليد وحيد ، أنجبته بعد طول تلهف ثم نكلته بعد

حلول عقم ! ..

وقف على الى جوار القبر ، شاخص العين ، لا يطرف له هذب ،

ولا يهدأ له قلب ولا يثوب لب ، كالرائى وليس براء .. حتى تعود به الى انتباه اصوات المساحى تنطلق فى جوف الليل وهى تهيل التراب على المثوى ، كأنها تعلن عن دفن محمد ، وتخبر الناس أن شخصه الحبيب أصبح الآن من كيان الماضى ، عصيا على العيون والأذان ، حيا فى الخواطر والأذهان .. طواه القبر وان نشره الذكر ، ومضى جسما ليعيش اسما مع الأحقاب ، مسطورا على كل قلب .

هنا ثابت الى على نفسه هنية . تم اكب على القبر بوجهه يرويه بماء عينيه . وازدخرت فى صدره لواعج حزنه وثكله ، فود لو استطاع أن يتنفس عنها بلسان لم يخنه قبل لحظته هذه فى مقام . ولكن بيانه المستفيض نبا عنه فيضه ، ولم يخلف سوى كلمات قصار ندت عن شفتيه كمثل تردد أنفاس الذى يعانى الاحتضار :

« ان الصبر لجميل ، الا عنك يا رسول الله . وان الجزع لقبيح ، الا عليك . وان المصاب بك لجليل . وانه قبلك وبعدك للجلل .. »

ثم قوم عوده وسار متمهلا من وقر الهم ، يتبعه آله .

الا من ذا يعلم كيف مرت عليه البيلة ؟ .. وكيف اختلى فيها يفكره ؟ وكيف أصاب منها وأصاب منه ! . لو كان قد تمكن أن ينفرد بنفسه لهان وقعها نوعا . ولكنه لحق بداره ليلقى هناك فاطمة الحزينة قد استعادت ما كان ولى من أحزانها القديمة ... على أمها ، وعلى عمها ، وعلى أخواتها وأخوتها الذين عانت من أجل فقدانهم ضعف ما كان حريا بغيرها أن يعانى . هذه الرقيقة البنيان الرقيقة القلب كانت تحزن دائما للمصاب حزينين ، مرة لقلبها الجريح وثانية لقلب أبيها اذ يصيبه كلم الحزن . وانها الآن لتحضرها صور شتى من أساها الماضى ، فلا تعرف أبها تزيد حزنا ام اللوعة على هذا الأب الحدوب الرحيم لم تترك بقلبها فراغا لغير الأسى عليه ؟ .. الى كم يا ترى يحتمل الجلد وتتسع رقعة الصبر ، ولغير هذا الرزء النازل كان الجلد وكان الصبر ؟ .. أفى العين من الدمع بقية ، وفى القلب ناحية لم يخضبها سلاح الهموم ؟ .. هى جائمة من الحجرة بركن أدنى الى قبر أبيها وان حال بينها وبينه جدار . ولكنها كانت أدنى الى هيئة جثمان

صامت منها بمن تسير فيه الحياة .. أوهى قوة واوهم بناء ، ساكنة من ذهول ، قد لون الشحوب وجهها وكساه .

تلك فاطمة كما لم يرها على مطلقا من قبل . كان يعلم انها ترق أمام الحادثات كأنها تسيل . ولكنها الآن قد ذهبت بددا ، غادرها العزم وغادرتها القدرة على اصطناع الاحتمال ، حتى ليعلم أن جزعه على النبی بداية وجزعها فی ميقاس الاحزان هو الغاية التي لا تبلغ شأوها غاية ..



تم رآها أخيرا تتحرك في مكانها متمهلة من جهد ، تهم أن تنهض فتنوء ، ثم تنوء كلما همت مرة ومرات . وتستطيع أن تقف فيسرع إليها . ويتبعها صامتا إذ تسير ، وهو يأبى - ترفقا بها - أن يردها أو يعكر الصمت الذي التزمته وفرضه على كيائها هول ما تحسه . وانها لتمشى الى الباب فتنفذ منه ، فيعلم فيم خروجها هذه الساعة .. لم يعد لها بالبقاء بعيدا عن مثوى أبيها طاقة ، وقد فرقت بينها وبين هذا الحبيب الراحل فترة من الزمان جاوزت - في حساباتها - آمادا . وخرج على خلفها الى القبر ، فاذا النهار قد انتشر ، والشمس يملأ ضوءها الفضاء ..

وأقبلت هي على المثنوى الطاهر تطوف به حيرى كأنها تلتمس في جوانبه المنفذ الى محمد . وراحت أنفاسها تتردد كالهمس ، وقلبها يخفق في صدرها كمثل طائر حبيس . أما عيناها فقد صنعت لهما من الدموع أهدابا .

واكبت بوجهها على القبر تمسح خديها على تربه ، وقبضت بكفيها على حفتين من ثراه الرطيب فرفعتهما الى شفتيها وعينيها تقبل وتبلل . ولم يستطع راء شهدها في تلك الآونة أن يظل يشهد ، بل مال عنها ببصره رفقا بنفسه أن تذهب أسي ، وبقلبه أن يقضى حرة ، ولكن الأصوات علت بالبكاء ، وملأت الزفرات المكان حتى اختلطت بهمساتها الخافتات التي راحت بها ترثى أباه . وبلغ الموقف الحد الذي يعز فيه الصبر وينوء به الجلد ، فتقدم زوجها نحوها ، مترفقا

بها ما استطاع ، حتى ألقت اله القياد ، واهنة لا تكاد تقوى على المسير من اعياء .

وتلفتت ناحية القبر تشخص برهة قبل أن تغادر المكان . فما أسرع أن تبينت من قريب رجلا يهم أن يسعى الى المتوى الطاهر ، ناكس الرأس خافض النظرات . ولكنها عرفت فيه ذاك الذى وسد رسول الله مقره الأخير ، فوقفت برهة تتلث به ، حتى اذا صار منها على مبعدة خطوات قليلات . هتفت به فى صوت راعش النبرات :

« أنس بن مالك ! »

فأسرع الرجل اليها ، مضطرب الخطو ، غامت على عينيه دموعه ، وهمس يجيب :

« لبيك يا بنت رسول الله ! »

فما زادت على أن قتلت له وهى تغادر المكان :

« كيف امكنتك يا أنس قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ . »

وخلفت الحجرة غارقة فى الشئون والمدامع . .

١٢

آثر أبو بكر هذه المرة أن يقتحم على الأسد عرينه ! .

لم يكد يطلع النهار حتى كان الشيخ قد أجال فى ذهنه احتمالات الأمر . ان العباس ، بلا ريب ، لن يخفى عن ابن أخيه من مساومة الأمس شيئا . وتحقيق بعلى بعد هذا أن يفضب لحقه ، ويفضب أكثر من هذا لاهمالهم المسير اليه ، ثم لعله بعدها يرتب قواه ويقدم على المناجزة والكفاح .

وكانت المدينة اذ ذاك قد بدأت نشوب الى نفسها ، وبدأ ينجاب عن الناس فيها ذهول الحزن فيقدرون ويصيبون بعد أن كانوا فى غمرة الأسى لا يقدرون ، وان قدروا أن يميلوا الى الاستسلام والاقرار ، وكان لفظ اللسن حريا بأن يصل الى اسماع على ، وأسف الناس على ضياع حق الرسول يسرى حديثا هامسا فى المحافل . وليس عجيبا من بعد

أن يقدم من لم يقر بالبيعة على الدعوة الآخرين الى نقضها ، والعمل على تنفيذ ما تم فى قضاء بنى بياضة من اتفاق ..

ولم يكن على من جانبه يعير الأمر التفاتا لأن حكم الناس كان ابغض الأمور الى قلبه الا أن يؤدى فيه حق الله . وكانت الخلافة فى ذاتها وسيلة يتوسل بها لغاية يرتجئها . وقد آمن دائما أنها حقه ، وأنه الأولى بها فى الناس . ولكنه آمن كذلك أنها لا تكون الا عن مشيئة الناس ، فاذا هم خرجوا بالحق الى غير أهله فهذا خطأ منهم عليهم وزره ، حسابهم عنه عند الله .

لذلك نراه يرقب الأحداث من كثب ولا يدلى فيها بدلو ، بل يدع القوم الى عقولهم وضمائرهم غير محاول أن يردهم عن بغيهم عليه أو يدعوهم الى الانتصار له . وليست هذه حال طالب السلطان ، الساعى اليه ، بل هى أخرى بالزاهد فيه النائى عنه .

ولكن أبا بكر أتى عليه يوم وفاة النبى وهو من الناس كأحدهم ، لا يساوى فيهم الا مقدار ما يستوعب قلبه من الايمان .. ثم مر عليه اليوم فاذا هو منهم الحاكم صاحب الأمر والسلطان . قلب بصره فعرف موطن قدميه فكان أولى به أن يحرص على الأرض من تحته أن تنهار !



ما كان أبو بكر حقا بالذى استهواه حب التملك أو التآمر على الناس . ولكن الأيام نصبتة فى مقام فكان لزاما عليه أن يرعى حق هذا المقام . ولقد دفعته لهذا الحرص وحدة الأمة أن تتشقق ويذهب بريحتها تناحر الأحزاب ، وقوة الدين الناشئة أن يميل الناس عن الجهاد فى سبيله الى الجهاد فى سبيل الأشخاص . وكان الرجل عالما تمام العلم أنه قد بلغ بالبيعة الحد الذى يحسن بعده الاقدام وتسوء عقبى التردد والنكوص ، وهو حقا ليس بخير الناس - كما قال بلسانه ليكون منهم الأمير السود . ولكنه كان أدنى الى اصابة جانب الخير فى الحكم لو أنهم عملوا على المنهج الذى ارتسمه لنفسه حين خطبهم بالأمس فقال :

« أما بعد ، أيها الناس ، اتى قد وليت عليكم ولست بخيركم ،

فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ... »

ولكنه اليوم لا يستطيع أن يرسم الخطا التى عاهد الله أن يسير
وفق نهجها الواضح العلوم . وهو أن يستطيع هذا بحال حتى يحرص
على الأرض تحت قدميه أن تنهار ! ..
وهكذا نراه يعاود ما كان أخفق فيه بالأمس عساه يقىء برضاء
على ومن بعده آل محمد وصحبه المخلصين ، ثم من بعدهم حشود
مخالفه من المسلمين ..

ذهب فدخل عليه داره وقد حف به صاحباه عمر وابن الجراح :
وتوسل ما وسعه باللين ورقة الحديث . ولكن عليا ظل الثابت على
حقه ، المستمسك به ، لا يسلم وإن كان لم يتذرع بالعنف أو تأليب
الناس للفوز بهذا الحق المسلوب .

وقال أبو بكر محاولا أن يصل الى اقناع غريمه باثارة الخوف
فى قلبه على وحدة الاسلام :
« ابن عم رسول الله ، وختنه على ابنته ، يريد أن يشق عصا
المسلمين ؟ »

فأسرع العباس يقول ، وكان حاضرا :
« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه ! »
وقال على ، رابط الجأش ثابت الجنان :
« أنا أحق بهذا الأمر منكم ، فلا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى .. »
« فهل كانت بيعتى عن غير رضا من الناس ؟ »
« ولكنكم زعمتم للأنصار أنكم أولى بها منهم ، إذ كان محمد منكم ،
فاعطوكم المقادة . ولست احتج عليكم الا بمثل ما سلف لكم من الحجة
على الأنصار . »
قال عمر :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »
فالتفت على نحوه ، غاضبا . يقول :
« نحن أولى برسول الله حيا وميتا ! .. يا عمر ، انا آله ، موضع
سره ، ولجأ أمره . وعيبة علمه ، وموئل حكمه ... لا يقاس بال
محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه
أبدا ! .. »

هنا عاود ابن الخطاب عنفه ، فاندفع يقول :
« أنك أذن لست متروكا حتى تبائع »

فصاح به على :

« افتلزمنى البيعة يا بن الخطاب ! »

وقال أبو بكر بهدوئه المعروف :

« يا أبا الحسن ، ان الناس قد اختارونى عليهم . وانى احب لك

ان تدخل فيما دخل فيه الناس ... »

وعقب عمر :

« يا خليفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك اذ بايعك الناس ... »

فثار ثائر على ، وهتف به يزار ، وفى صوته رنة سخرية وتهكم :

« يا عمر ! .. احلب حلبا لك شطره ، وشد نه اليوم يردده عليك

غدا ! ... »

ثم التفت الى أبى بكر يقول :

« اما والله لقد تقمصتها وانك لتعلم ان محلى منها محل القطب

من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى الى الطير ! ... »

وهم عمر ان يتكلم فأسرع أبو بكر يحول دون ذلك خشية ان يصل

الأمر الى ما لا تحمد عقباه . قال له :

« على رسلك يا عمر ! »

ثم أقبل يتلطف بعلى ويقول ، وهو يسير الى الباب :

« لا عليك يا أبا الحسن . فان لم تبائع فلا اكرهك . »

وخرج يتبعه صاحبه . ونقى أبو عبيدة لا يبرح عساه ان يبلغ

من على بلين كلامه ما لم يبلغه رفيقاه .

أجل فقد راح ابن الجراح يحاول ان يفوز للخليفة بالبيعة من آل

الرسول ، فيتحدث اليهم عن عروة الاسلام ، وعن وحدته ، وعن الرجل

الذى شاءه الناس لهم واليا كيف اجتمعت له صفات تؤهله لما هو

فيه من مقام . وكان على جالسا ينصت وحوله اهله ، لا يتعجل لحظة

الجواب على هذا الداعية الذى كانت له اليد الطولى في تنصيب

أبى بكر قبل ان تخطر الخلافة فى بال أبى بكر ! ...

قال أبو عبيدة اخبرا بلفظ ناعم بحسب ان يستطيع به تأليف

على :

« يا ابن عم ... انك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك

ليس لك مثل تجربتهم بالأمور ... »

فرد على وهو يبدى له الهدوء وقلة الاكتراث :

« اما السن فما ازمع لى بها على الرجل قدم ! »
« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ ... انى ارى ابا بكر أقوى على الامر

منك »

فما اسرع ان القى على اليه جواب السؤال فى سؤال :
« افأنتم خير أم رسول الله خير ؟ »
« بل رسول الله »

« لقد كان رسول الله بعث أسامة بن يزيد على جيش فيه مشيخة
قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه انه صبي ! »

فلم يحر أبو عبيدة خطابا . ان شأن أسامة ليس بخاف عليه
اذ امره رسول الله على جيش الشام ، وأسلمه بيده الراية . وكان
من بين جنوده أبو بكر وعمر وغيرهما من صحب محمد الأقربين اليه
اعلاهم سنا ، فساء قوما منهم ان يتقدمهم فى القيادة غلام لما يبلغ
عامه العشرين . ومشوا يجعلون من حدائته تقيصة يطعنون بها فى
امرته ، حتى خرج اليهم الرسول قبيل موته يهتف بهم مغضبا ويقول :
« أيها الناس . انفذوا جيش أسامة . ان تطعنوا فى امارته فقد
كنتم تطعنون فى أبيه من قبله ... وايم الله انه لمن أحب الناس الى
بعده »

كان أبو عبيدة يعلم هذا . ويعلم ان حديث الرسول قد حد من
ثورة الناس . ثم هو يعلم الآن انهم قد عادوا بعد وفاة محمد الى ماكانوا
عليه لا يريدون الاقرار للفلام بالامرة عليهم ، ويودون لو انه استبدل
بأمير شيخ ... لقد أخذ هذا العصيان يملك ناحية من فكر أبى بكر
بعد ان آل اليه أمر الناس ومشى اليه الكثيرون بطلبون خلع الأمير
الصغير . ولكن الذى يعلمه أبو عبيدة تمام العلم هو ان خليفة الرسول
لم يقبل مطلقا أن يغير ما اقره الرسول ، لأن السن ليست مقياس
القدرة على الاضطلاع بالأمور ...

كان أبو عبيدة يعلم هذا فعلم كيف عاداه التوفيق اذ حاول ، أمام
على ، ان يجعل للحدائثة وتقدم العمر شأنا فى الخسران أو ترجيح
الميزان ... ولكن لسانه كان قد كبا ولا يستطيع بعد هذا أن يملك
ما ند عنه . فما له الآن - وقد جاء داعية - لا يحاول منحى آخر من
الحديث لا يتكلف فيه سوق الحجة حتى يأمن أن ترتد الحجة عليه ! ...

قال أخيراً ، وهو يضيف على حديثه رقة ، وبميل به الى التلطف والمداجاة :

« أنى ، يا بن عم ، انما عنيت أنك حديث السن . انك ان تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليك ، وبه حقيق ، فى فضلك ، ودينك ، وعلمك وفهمك .. ونسيك .. وصهرك »

ولكن هذا الكلام اللين الرقيق أثار من نفس على ما لم يثرها من قبل ، فصاح به :

« الله الله يا معسر المهاجرين ! .. تخرجون سلطان محمد فى العرب من داره أبى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس ؟ ... اما والله لنحن - أهل البيت - أحق منكم بالأمر ، ما دام فىنا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ... »
وتريث هنية ثم عاد يقول بلهجة المطمئن الواصل :

« وانه والله لفينا يا أباب عبيدة !. انه لقينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعدا ... »
وقطع بهذا الجواب على الرجل كل خطاب !

١٣

كان أدنى الى اتساق الأمر لأبى بكر الا يشئ الى العباس . وكان أدنى الى هذا الاتساق من بعد الا يطلب طاعة على بلسانه هو فضلا عن جفوة الخطاب على لسان ابن الخطاب .
ولكن الرجل شاور وعمل بالمشورة ، فدلّت العاقبة على خطأ المشير وخطأ المستشار !.

كان على عازفا عن السلطان ما لم يات به حتى الباب ... وكان العباس أسفا على ذهاب السلطان ، ولكنه لم يملك طلبه لأن الأولى به فى الناس اعتزل الناس وقد ساءه أنهم عدلوا عنه ولم يقدموه .
اما وقد مشى الخليفة ، كمشورة المغيرة ، الى العباس يترضاه فقد مشى الى من لا تعدله الكثرة من الساسة الدهاة ، ولا تنفع فى

سلبه حق ذويه مداراة ولا مداجاة . وبحسبنا ان سمعناه يوجز فيفهم ، ثم لا يثبت أمام حججه القاطعة دليل ولا برهان .

فاذا نحن ضمنا الحجة في كلامه الى الحجة بنى كلام ابن أخيه ، فقد وضع كيف خسر أبو بكر حيث ظن النجاح ، لأنه دخل دار العباس ودار على وفي يقينه ان يعود منهما بالرضا والوفاق ، فما تركهما الا بعد أن أثار في النفوس مكامن الخلاف والشقاق .

فالعباس الذي كان مستمسكا بالصمت على كره ، اقتداء منه بعلي ، ساءه ان يكون ابن أخيه هدفا للدس والوقيعة يمشى بهما خصومه بينه وبين عمه وذويه . . . وعلى الصابر على الحيف ، المنطوى على نفسه ، الساكن الى ركن داره ، ملأه بالأسى والغضب أن يرى سالبه حقه لا يقرون حتى يركبوه بالعنت والاعتساف ، وقد كان لهم في سكونه وكفه عنهم مندوحة عما نوسلوا به من قطعه آونة بالعنف . وكان هو قبل هذا لا يبتغي عن الصمت سبيلا ، ولا يروم - بعد بيعة أبي بكر - أن يتوسل الى استرداد حقه المفصوب بالقوة ، أو بعنف الأسلوب . ولم يكن هذا لينا منه مال الى الضعف أو رفقا جنح الى التخاذل ، ولكنه كان منطق الرجل الذي يرى الأمور من خلال الواقع الملموس ، ولا يراها بعيني حالم نزع الى الخيال .

جاءه أبو سفيان بن حرب ، ثانية . بعد مجيئه يوم وفاة الرسول يعاود ما كان منه قبل ، ويعرض أن يبايعه بالخلافة . ولكن عليا يأبى ، ولا يقبل ، بل يقول :

« يا أبا حنظلة . . انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » .

وهو يعنى بهذا ما سوف تقود اليه خلافة رجلين فى آن من ثورة تتهدد كيان الاسلام .

ويهتف أبو سفيان ، مقاطعا محرضا :

« مهلا يا أبا الحسن ! . . فأنت والله - » .

ولكنه لا يدعه وما يقول ، ويرده ردا حتى يذهب الشيخ شاكيا الى العباس . ويظن أبو سفيان أن تراث الرسول ، بعد رفض علي ، قد صار لشيخ بنى هاشم ، أو هو أولى بأن يصير اليه فيمد نحوه كفه ويقول :

« فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

« تبايعنى ؟ » .

« نعم ، وانتك والله لها لاهل ، واحق بميراث ابن اخيك » .
فلا يخفى العباس بسمة تنطق بمرارة قلبه ، ويجيب :
« يا ابا سفيان ؛ ايدفعها على ويطلبها العباس !.. »

ويجتمع الناس مرة الى هذا ومرة الى ذاك من قطبي آل هاشم ،
يحرصونهما على استرداد هذا الحق المسلوب فلا يجدون لذيهما سمعا .
وتمتلئ المدينة بالحديث ، وما من رجل فيها غير زار عليهما ان تركا
تراث النبي يخرج من بيته الى غير اهله ممن لم يبلغ شأوهما نسبا
او علو منزل ، ولكن عليا كان لا يابه لهذا لانه كان يعلم ان هذا النسب
الحري برفعه على رقاب الناس هو الذي اتخذه قريش ذريعة الى
خذلانه . لقد كرهت من بنى هاشم أحقابا أن استطالوا عليها ، فقامت
تنافسهم حتى ردها عنهم القصور . ثم كرهت فيهم أن تكون بينهم
— من دونها — نبوة ، فحصدت صاحب الدعوة السماوية وقد أحققها
عليه أن جاءها بما لاتستطيع أن تباريه في ميدانه لو أرادت المباراة ..
وهذه كلمات الحكم بن هشام — أبى جهل — ما زالت تفصح عما ملا
قلوب قريش من حقد لآل على ولال الرسول ، وانها لكلمات تتخذ شعارا
للحسد عند أكثر الحساد حقدا !..

قال الرجل اذ سمع أن محمدا قام يدعو قومه لدين جديد :
« واللات هذا لن يكون !.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى اذا تحاذينا
على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحي من السماء !..
فمئى ندرك مثل هذه ؟.. واللات لا تؤمن به أبدا ولا نصدقها !.. » .
كان على يعلم هذا من قريش ، ويعلم أن علو آله عليها هو سبب
خذلانها اياه كما سعت من قبل الى خذلان محمد لولا ان قهرها على
الالتفاف حوله . أما وقد أصبحت اليوم تستطيع ان تنصر وتستطيع
أن تخلد ، فقد سارعت تمد اكفها الى شيخ بنى تيم مؤيدة وتلوى
رقابها عن الاولى منه بيسط الاكف واجتماع الآراء .

كرهت قريش اذن أن يذهب بشرف السلطان عليها رجل من الالى
باءوا في العصور بمر حقدها عليهم . وأبت أن تجمع لدار هاشم شرفين :

شرف النبوة وشرف الخلافة . ولو كانت استطاعت أن تخلع عن رقابها هذا الشرف الأول لما توانت كما سارعت الى التانى تنفضه عنها . . بل هى حقا حاولت أن تتحرر منه .

وكأنها كانت تتلبث بالزمن الذى قهرها على أن تدين للاسلام كرها حتى جاءها النبأ بوفاء رسول الاسلام . . وما كان أعجب هذه النفوس التى بدت من قبل كأن قد ملأها الايمان ثم تكشف اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الايمان ! لقد قامت تهم أن تخذل محمدا فى مماته بعد اذ أعياها أن تخذله أبان حياته . ونهضت تجيش شراذمها بمكة . داعية لخلع رداء الاسلام . وانتشرت الفتنة هناك . وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد ، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففر منها يتلمس النجاة . ولكن الله أبى الا أن يعز دينه ويعلى كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الاسلام كما ضربهم فى حياة محمد ، عليه . فاذا سهيل بن عمرو - رجلهم يوم الحديبية - يقف بينهم ، بعد فرار عتاب ، محذرا متوعدا يقول :

« يا اهل مكة ! . . كنتم آخر من أسلم فى الناس فلا تكونوا اول من ارتد من الناس . يا اهل مكة . . والله ليتن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله . ومن رانا ضربنا عنقه ! . . »
فخشيت الرقاب ، وعاود العقول الصواب ! .

* * *

عرف على هذا كله فى قريش ، ونظره رأى الواقع لا بعين الخيال فآثر أن ينطوى على نفسه ويقر فى داره ، لا يدعو الى خلاف ولا تأييد . ولئن كنا شهدنا قوما من أصحابه يجتمعون فيدبرون ليستعيدوا حقه من يدى من ابتزوه ، فلقد ساقهم الى هذا صدق ولائهم لايمانهم بمقامه فى الناس بعد مقام الرسول . ولقد سمع على ، وهو قائم على جهاز محمد ، بما تم من بيعة أبى بكر فى السقيفة فلم يترك ما هو فيه ، ولا أسرع يؤلب الانصار أو يعتب عليهم . . ثم جاءت أنباء البيعة الثانية ثانى صباح فوقف منها موقفه الاول ، يكتب فى نفسه مرارة ما لقى من خذلان الناس ولا يرى الا أن يعزل الناس .

ولكن أبا بكر - فيما يبدو - خشي منه هذا السكون والاعتزال ، فقام يسعى سعيه إلى العباس عساه أن يقطع بين العم وبين ابن أخيه . ثم قام من بعدها بتوسل بليته مرة ، وبعنف ابن الخطاب ثانية ، وبرقة أبي عبيدة أخرى لينتزع الرضا من على عن بيعة يرى هذا فيها عدوانا على حقه أى عدوان ، فهل من رأى رجلا ينظر بعينه إلى حقه يضع فيقر لسانه هذا التضييع ؟ كان لسان على دائما ترجمان قلبه ، بجري أحاسيسه مجرى الكلام فلبس بعجيب إلا يخرج عن عهده في هذا المقام . وما أحسب نفسا بشرية لها قيمتها ، ولها قدرها على صاحبها ، تقبل - إذ تغضى عن الضيم - أن يردف منافسوها الضيم بالضم ولا تنهض إلى استنكاره ، ثم إلى دفعه ، ثم إلى استعداد من تستطيع على موقعه ما وسعها دفع العادين واستعداد المناصرين . . . وكذلك غضب على لحقه الهضم ، وقد أغضبه التواء الأسلوب الذى تذرعه به خصومه للنيل منه - وكفى بالوقية التى مشوا بها بينه وبين العباس أسلوبا ملتويا وسلاحا غادرا لم تدع إلى سلم أياه دواعى الحال . وكذلك خرج عما كان قد التزم نفسه من سكون وعزلة يلتمس النصرة فى قوم غير قريش الشائنة له الحاقدة عليه فيم ناحية الأنصار . وراح مع الليل يدور بهم وإلى جواره زوج أبت أن تدعه يستقبل الأمر وحده إذ كان أمرها مرتين . . أن الزهراء لا تبرح دارها ولا تغادر مجثمها ذاك بجوار رسول الله لغير هدف يطفو بنفسها الولهى فوق لجة الأحزان وكان تراث أبيها ذلك الهدف ثم من بعده حق على فيه .

لعبت فاطمة دورها وهى شديدة الإيمان بأنه لزام عليها أن تفعل ، وأن تدعو ، وأن تكافح غير وانية . ووقفت إلى جوار زوجها المظلوم تنضح عنه باللسان وليس لها سدة سواه . . فكانها بفعلها قد ارتدت « خديجة أخرى » ، لا يقعدنها خذلان القوم زوجها عن الكفاح ، بل راحت ترسم نفسها بلون الماضى لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء ، واضحة الملم ، نابضة بالحياة ، عاشت فيها الأم فى الفتاة .

ولكن الذين بايعوا أباهما على الموت وناصروه لم يستطيعوا لها نصرا . صحا فيهم خلق العربى واستمسكه بكلمته وشدة وفاته بعهد . . ولم يخفوا عنها هذا ، بل كانوا يقولون ، خافى الردوس كاسفين :

« يا بنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا للرجل »

وتجيبهم هي مستنكرة :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ »

فلا يجدون لهذا الاستنكار ردا سوى الأسف على ما سلف منهم ،

والاعتذار عنه :

« يا بنت رسول الله .. لو أن زوجك سبق إلينا قبل أبى بكر

لما عدلنا به .. »

فيقول على :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم اخرج انازع الناس

سلطانه ؟ .. »

ولكنها حجة لا تغنى فى حساب السياسة النهازة العادية وان اغنت

فى حساب الاخلاق القويمة الصافية .. وان فاطمة لتعبر عن هذا

فى أوجز بيان فتجيب القوم وهى تنهض عنهم ، نافضة يدها من

تأييدهم المأمول .

« ما صنع والله أبو الحسن الا ما كان ينبغى له .. وقد صنعوا

ما الله حسيبهم عليه ! »

١٤

انف على بعد هذا أن يعاود الكلام فى شأن البيعة التى سبقه إليها

شيخ بنى تيم أو يختلف فى أمرها الى الناس . وانطوى ثانية على

نفسه فى داره ، رفيقه فيها كتاب الله يعمل ما وسعه فى جمع شتاته

ان يغيب عنه . وقد وجد فى القرآن خير مسلاة له عما هو فيه ،

فأقبل عليه بكل ذهنه يجمعه ويضم آياته الكريمة واحدها الى الأخرى .

ولكن بيته لم يزل الكعبة التى يؤمها الذين آثروا الانحياز اليه

وأبوا ان تميل قلوبهم عنه الى أبى بكر ، فلم يخل يوما من الزبير أو أبى ذر

أو المقداد ومن تابعهم من صحابهم على الراى ، يجتمعون ثم ينفضون

فلا يدفعه اجتماعهم الى الامام خطوة ولا يرده انفضاضهم خطوة ، بل

ظل مقيما على ما اخذ به نفسه من اعتزال الناس واعتزال الامر كله

بعد ما أصبح لأبى بكر وبعد ما شاهد من حيرة النفوس بين حقه وبين ما سلف منها الى غريمه من الادلاء بالسلطان . ولقد كانت الانبياء تاتيه ترى من الخارج عما اخذ يفور يصدور الأنصار من الندم لانهم لم ينصروه فكان لا يحرك لها ساكنا ولا يلقي اليها بالا ، ولا يعنى بأن يتقصاها أو يعمل على اذكاء الندم لينقلب فتنة 'و ينقلب بورة يفيد من ورائها ما فاتته . ولقد مشى اليه أناس يحاولون حمله على المطالبة بحقه المسلوب ويعرضون أن يؤازروه فى الدعوة اليه أو فى نصره فما كانوا يصيبون منه نلبية النداء وأن اصابوا حسن الاصفاء .. قدم خالد بن سعيد ، أمير رسول الله على اليمن ، الى المدينة فلقى عثمان ابن عفان ، وراح يعيره أن قعد وآله على الهضم ، . ثم انفلت عنه بعد قليل فدخل دار على وهو فيها جالس بين ذويه ، وراح يوجه اليهم جميعا الخطاب وان عنى بحدثه هذا الساكن المظلوم :

« يا بنى عبد مناف !.. طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ »
فما فعلت كلمته المثيرة فى نفس الشاب فعلها المنشود ، بل جاءه الرد من لدنه فى هدوء :

« يا خالد .. هذا أمرنا أبت قريش أن تؤتيناها »
« يا ويح قريش !.. وهل فى الناس أحد أولى بمقام محمد منك ؟ »
لا أحد والله !.. ولكنه الحسد والغل والضغن القديم !.. ولئن أبت قريش هذا على خير رجالها اليوم ، فلقد أبت مثله من قبل على سيد البشر وخير الناس أجمعين . ولكنها كانت موكولة برى الاحقاد والغليل من ذلك الغريم المظلوم ، الذى وترها آله من قديم بنباهة الذكر ورفعة المقام ، وترها هو فى الاسلام بحد الحسام !.. وما اصدق قولا فى هذا المعنى من الفضل ابن العباس ، حين طلع على القوم ذات يوم يقول على الملاء منهم ، مترجما بحروف بيانه عما خامر نياتهم واختلط منهم بدماء القلوب :

« يا معشر قريش .. يا بنى تيم !.. انما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دوتكم : ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهية الناس لنا أعظم من كراهيتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا !.. »

تلك كانت مشاعر قريش قبل على وقبل آله في ذلك الحين ، فلم يروا في خذلانه أو في قعودهم عن نصرته ، وهم يستطيعون النصر ، إلا أمرا وافق منهم هوى النفوس مع ما كانوا يعلمون من حقه ، وأنه أولى بأن يتقدم على كل ولى وكل أمير ، ولكنهم حقدوا وغالوا ، وحسدوا فاغتالوا .

وامام هذه المشاعر المعادية كان الأنصار في عسكر آخر .. اقبلوا على بعضهم وقد راحت غمرة الحزن على وفاة الرسول ثم راحت من بعدها غمرة النخوة التي تركتهم يستمسكون بما سلف من كلمتهم ببعة أبى بكر - اقبلوا يتلاومون ، ولا يلقى الرجل منهم أخاه إلا معابا ففيم كان اذن عدوانهم على صاحبهم سعد بن عبادة يوم السقيفة يسلبونه السلطان الذى كادت أن تتقبض أصابعه عليه ؟ - فيم كان وقد نقلوا به الامرة من قريب الى غريب ؟ .. فيم كان وقد أخرجوا به الحق من أهله ووضعوه في غير أهله ؟ . فيم كان وقد أضاعوا الولاية من قرشي هو أولى الناس بتراث محمد ثم هو اذنى الناس فرابة من الأنصار ، اذ كان حفيد عبد المطلب صهر بنى النجار ! ..

ندم الأنصار اذن على ما سلف منهم حتى سال الأسف بنفوسهم كل مسيل . وأخذ الندم يتجمع في القلوب حتى امتلأت به ففاض يتلمس متنفسا له على الألسنة ومن بين الشفاه . وكانت قريش صاحبة الأحقاد فوقفت لعواطف القوم بالمرصاد ، لاتنى تحصى عليهم الحروف قبل الألفاظ ، وتعدده خروج عن طاعة السلطان أن يتحدث الناس بسجايها سواء . وبدا الحديث مديحا بقابله مديح وثناء امام ثناء . ثم سار جدلا حال الى ملاحاة حتى ترددت كلمات السيف والقتال والقتل بين فريق الحاسدين البغاة . وكانت الأنباء لا تفتأ تأتى عليا بما يدور بين الحزبين فيزيد انطواء على نفسه . وكان الأنصار يودون لو أنه طلع عليهم فأصابوا بظهوره بينهم قوة تؤلب حوله الرجال وتدفع بقضيته الى الامام . ولكنه ظل ، كما اعتزم ، مؤثرا أن يبقى بعيدا عن المعترك خشيية أن يفتتن به الناس وما يجيء في أعقاب هذا الافتتان من انقسام الأمة في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام . ولم يغير من مسلكه أن جاءت جموعهم اليه ذات يوم تحيط بداره ، وتهتف باسمه داعية اليه ، منادية اياه أن يبرز لها تبايعه وتعيد له ما ضاع من حقه المسلوب .

فى هذه الآونة كنت الثمرة ناضجة أيما نضوج ، دانية القطاف لمن أراد ، حتى حسب الأكثرون أن امر أبى بكر لن يلبث أن يولى مع النهار ، وتهاى الناس لما أو شك أن يصير . وامتلات قلوب آمالا وقلوب أحقادا وموجدة حسبما كان كل فريق يميل . ومن عجب أن تكون قریش هى أكثر النافخين فى نار هذه الفتنة لأنها - وقد نصبت نفسها قوامه على السنة الأنصار - أثارت فى نفوسهم طبيعة العناد والاصرار ...

واستبق أبو سفيان الى دار على وهو يحسب أن قد جاءت اخيرا اللحظة التى ارتجاها وأوشك أن يتحقق حلمه فى أن يفوز احد آله الأقربين بالسلطان . وراح يكرر العرض الذى القاه امام ابن أبى طالب مرتين من قبل ، ويعاود التحريض ...

قال شيخ بنى أمية وقد فرغ من الثناء وبقي عليه أن يفضى بما جاء فيه :

« اما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فضيل خيلا ورجلا ، ولأسدننها عليه من أقطارها !... »

فابتسم له على وقال :

« يا ابا سفيان ... هذا ماء آجن ، ولقمة يفص بها أكلها . »

« ماء آجن !!. أتراث ابن عمك يا ابا الحسن تدعه نهبا ؟ »

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزراع بغير أرضه . »

فراح الشيخ يوالى التحريض :

« يا عجبا ! . رضيتم يا بنى عبد مناف ان يغلبكم عليها اذل

بيت فى قریش ؟ »

قال على بهدوء ما بنفسه :

« ما رضيت ، بل صبرت وفى العين قذى ، وفى الخلق شجا .. »

« اذن يتحدث الناس .. »

وفهم الشاب مارمى اليه شيخ بنى أمية من وراء كلماته هذه ،

فتلهب وجهه غضبا وقال :

« ويح الناس !... ان اقل يقولوا حرص على الملك ، وان اسكت

يقولوا جزع من الموت ؟ ... اما والله لابن أبى طالب آتس بالموت من

الطفل بشدى أمه ! »

وصمت برهة حتى هدأت سورة غضبه ، ثم عاد يتم بصوت هادئ ، فى نبراته حزم وتوكيد :
« يا أبا حنظلة . انى سدت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ورأيت ان الصبر على هذا احجى . . »

١٥

ما اشد ما نال عليا من عسف قريش !. انها لترى فيه « هاشما » وترى « عبد المطلب » وترى « محمدا » قبل ان يقهرها على اعتناق دين الله ، فتضم الى حسدها لابن ابي طالب حسدها لأولئك الأعلام أجمعين . حسدته علما مرفوعا على هام الناس ، اذا ذكر العلم ، وذكر الفضل ، وذكرت شجاعة القلب واللسان ، فأرادت له غير ما هيأته له مواهبه الفذة ونسبه العلى وشرفه العريض . وقامت تناوئه محاربة فيه البيت الهاشمى الكريم ، وتحشده حول منافسه صفوفا حتى تم له الانتصار وباء بصفقة المغبون من كان أولى الناس بهذا الانتصار . ثم حسدته مخذولا بعد اعتزاله الأمر ، لانها أبت عليه أن تزار العاصفة فيتجنبها لتمر بسلام وهى لا ترضى له بالسلام وانها لتألف الآن وتصطف جموعا محاولة ان تثير عليه النفوس حتى يظل ما عاش بعيدا عن عطف الناس .

وقف سهيل بن عمرو عقب مجيئه الى المدينة بعد فتنة مكة ، وقد هاله ما بدا من حب الانتصار وندمهم على خروج تراث النبى من كف ابن عمه الى سواه . وقف يحف به اعيان قريش يخطب القوم ويقول :

« يا معشر قريش . . . ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى على بن ابي طالب ، وعلى فى بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته ، فان أجابوكم ، والا فاقتلوهم ! . . فوالله انى لأرجو الله ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم »

افراى هذا الشائء القرشى خير ام كان الذى التزمه على هو الخير ؟ .

ما احسب سهيلا كان جادا او موفيا على الصواب وهو يعلم
أن ظهور على امام الناس كان كفيلا بأن ينير فيهم من الحماس لقضيته
ما لا تحمد معه مغبة انتقاضهم وثورتهم على الخليفة ، مهما جاهد
ابن ابي طالب فى تسكينهم وجاهد معه لهذا الغرض آلاف سواه ...
ولكنها كانت « حكمة » قرشية قمينة بأن تغيب عن خاطر على وان
سارعت الى خاطر سهيل وغيره من طغمة الحاسدين البغاة !..

ثم تلاه من بعد الحرث بن هشام ، احد بنى مخزوم آل ابي جهل
يقول :

« ايها الناس ... ان يكن الانصار قد تبواوا الدار والايمان
من قبل ، ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا فأووا ونصروا ،
فانهم قد لهجوا بأمر - ان نبتوا عليه فانهم قد خرجوا مما وسموا
به . وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف !... »

وقال عكرمة بن ابي جهل :

« لولا قول رسول الله ، الأئمة من قریش ، ما انكرنا امرة
الانصار ... اعذروا القوم فان ابوا فاقتلوهم ! »

فهلا ذكر عكرمة أنه قد فات اوان الحديث فى امرة الانصار ،
وانهم ما دعوا من بعد الا الى امرة قرشى هو من قریش امامها وامام
بغية المسلمين ؟.. ولكن ابن ابي جهل - فيما يبدو - اراد ان يقابل
« حكمة » سهيل « بشجاعة » لسان لا يستطيع ان يلهج باسم
ابن ابي طالب فى محال حساب او عتاب !... .

اولئك كانوا دعاة التخذيل عن على ، والمناوأة عليه ، وهم من
عرف الناس لهم دائما السبق الى حرب الحق وعداء محمد ، ومن
عرف لآبائهم قبلهم امتلاء قلوبهم على بيت هاشم بالحقد والبغضاء .
ولقد غضبت الانصار وحميت نفوسهم حتى قام فيهم ثابت بن قيس
يهدىء من سورتهم ويقول :

« يا معشر الانصار . انما كان يكبر عليكم هذا القول لو قاله

اهل الدين من قریش ... »

وكفى بها كلمة ألغ اثرا وأصدق قولا من ألف بيان وبيان !...

ولكن الحسد ، وان كان بلا نهاية ، فان طاقة الحلم تنفذ عند غاية ... أمنت قريش نى فيها ما شاءت ، وركت الأنصار بالعنت وسلطنة اللسان ما وسعها أن تفعل ، ثم ظلت دائبة على هذه السياسة حتى لم يعد فى طوق رجال المدينة أن يملكوا السنتهم منها . وانقلب الناس بهذه المعركة الكلامية الى عسكرين متناجزين ، كلاهما يدعو لرجله ويخذل عن الآخر ما استطاع التخاذيل .

وكانت الأخبار لا تزال ترد بنماء شوكة المنبئين ، والتفاف أجلاف الأعراب حوالىهم هنا وهناك ، فى أطراف الجزيرة ، ثم لايزال يزيد هذا الالتفاف حتى يتسع نطاق الرقاع التى تمسك بزمامها جحافل المرتدين . أما عاصمة الاسلام فقد غدت عورة مكشوفة لأعدائها هؤلاء ، ولسواهم من جموع مانعى الزكاة لو شاءوا لاقتحموها وبى عزلاء خاوية الوفاض من الرجال والسلاح بعد أن خرج أسامة بجند المسلمين قاصدا الى الشام .

فى هذه الفترة العصبية كانت وحدة الأمة الاسلامية هى غابة كل مسلم سليم البصيرة يحسن النظر فى عواقب الأمور . كانت حلم أبى بكر الذى لا يفتأ يراوده فى اليقظة وفى المنام ، ثم لا يبرح لحظة واحدة ذهنه المشغول بالتبعات الجسام ... وكانت رجاء عمر الذى أقامت منه الظروف مشيرا للخليفة ووزير صدق يحمل عن كاهله من العبء ما استطاع ... وكانت الأمنية التى لا يبخل على فى سبيل تحقيقها بكل ثمن من أمانيه أو ترائه أو نظائر ما بذله من قبل من أجل الاسلام .

كانت الوحدة اذن شاغل عمر بن الخطاب فيما صدر عنه من سلوك ، عنف سلوكه أو وافق ما ترضاه النفوس من رقة ولين . وقد نظر الى الأحداث السياسية التى تلاحقت فى هذا الوقت العصب من هذه الزاوية ونسى أمام شاغله بقية الاعتبارات . وكان الرجل محققا فى نظراته حتى الغاية ، مخلصا لهدفه تمام الاخلاص .

وكانت نظرة على - هو الآخر - الى الأمور لا تخالف نظرة ابن الخطاب ولا تتجه الى مرمى سوى مرماه ، فلم يتوان المرة بعد المرة عن إباء أخذ البيعة لنفسه من الناس اذ علم أنها حرية بأن تشق صفوف المسلمين وتتركهم حزينين بتلاحيان ويختصمان فيخرجون

جميعا عن الاعتصام لرفع شأن الاسلام ، الى الخلاف والكفاح من أجل هذا أو ذاك .

ولكن أول الرجلين رأى وغضب فحاد به غضبه العنيف عن التزام الطريق المثلى للوصول الى ما اراده من صواب . وغضب الثانى فكبح جماح نفسه ، وطوى حقه الشخصى وهدفه السياسى من أجل الهدف الأعلى وهو اقرار الخير العام .

رأى عمر - فى البدء - كيف ظهر الخلاف بين المسلمين أول ظهوره فى سقيفة بنى ساعدة بحى الأنصار والقوم هناك يدعون الى ابن عبادة دون صحب الرسول ... ثم يدعون - وقد أبى هو عليهم مطلبهم وأبى صاحباه - بأمر منهم وأمر من المهاجرين : فلما شاعت الظروف أن يختلف الأنصار فيما بينهم ، وتم لأبى بكر الأمر بهذا الخلاف ، لم ترايل عمر الخشية على وحدة الاسلام ، فكان أن قام بهم بقتل الرجل الذى أجمع عليه من قليل رأى الأنصار ، لأنه رأى فى حياته عودة للفتنة وعودة بعدها الى الانقسام .

ثم رأى من بعده ، أن أولئك الذين ناصروا سعدا ، ثم عادوا فخذلوه ، قاموا ثانية الى رجل خذلوه يحاولون أن ينصروه ... واجتمعت جموعهم - آونة فى الخفاء وأخرى على ملا - يدعون الى ابن أبى طالب لأنهم رأوه أولى الناس بأن يلى أمور الناس ، ثم تألبوا حول داره يهتفون باسمه ويدعون أنه يخرج اليهم ليردوا عليه ترائه المسلوب ... فاذا بالمسلمين أمام هذا الحدث مخالف أو نصير . واذا بالمدينة حزبان ، واذا بالوحدة المرجوة شقان أو شكا على انفصال ، ثم لا يعرف غير الله ما سوف تؤول اليه بعد هذه الحال .. فهلا كان على - كابن عبادة - حريا فى نظر ابن الخطاب بالقتل حتى لا تكون فتنة ولا يكون انقسام ؟.

كان هذا أولى بعنف عمر الى جانب غيرته على وحدة الاسلام . وبه تحدث الناس ولهجت اللسان كاشفة عن خلجات خواطر جرت فيها الظنون مجرى اليقين ، فما كان لرجل أن يجزم أو يعلم سريرة ابن الخطاب ، ولكنهم جميعا ساروا وراء الخيال ، ولهم سند مما عرف عن الرجل دائما من عنف ومن دفعات . ولعل فيهم من سبق بذهنه الحوادث على متن الاستقراء قرأى بعين الخيال ، قبل رأى العيون ، ثبات على أمام وعيد عمر لو تقدم هذا منه يطلب رضاه

واقرارہ لابی بکر بحقہ فی الخلافة ، ولعلہ تمادی قليلا فی تصور نتائج هذا الموقف وتخیل عقباه فعاد بنتیجة لازمة لا معدی عنها ، هی خروج عمر عن الجادة ، وأخذہ هذا « المخالف » العنید بالعنف والشدة !.

وكذلك سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب ذلك النهار ، وهو یسير فی جمع من صحبه ومعاونیه الى دار فاطمة ، وفي باله أن یحمل ابن عم رسول الله - أن طوعا وان کرها - على اقرار ما أباه حتی الآن . وتحدث أناس بأن السیف سیکون وحده متن الطاعة !.. وتحدث آخرون بأن السیف سوف یلقى السیف !.. ثم تحدث غیر هؤلاء* وهؤلاء بأن « النار » هی الوسيلة المثلی الى حفظ الوحدة والی « الرضا » والاقرار !.. وهل على السنة الناس عقاب یمنعها أن تروی قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة ، وفيها على وصحبہ ، لیکون عدة الاقناع أو عدة الإيقاع ؟..

على ان هذه الأحادیث جمیعها ومعها الخطط المدبرة أو المرتجلة كانت کمثل الزبد ، أسرع الى ذهاب ومعها دفعة ابن الخطاب !.. أقبل الرجل ، محنقا مندلع الثورة ، على دار على وقد ظاهره معاونوه ومن جاء بهم فاقترحوها أو أوشکوا على اقتحام . فاذا وجه کوجه رسول الله یبدو بالباب - حائلا من حزن ، على قسماته خطوط آلام وفي عینیه لمعات دمع ، وفوق جبینہ عیسة غضب فائر وحقق ثائر ...

وتوقف عمر من خشية وراحت دفعته شعاعا . وتوقف خلفه - أمام الباب - صحبه الذین جاء بهم ، أذ رأوا حیالهم صورة الرسول تطالعهم من خلال وجه حبیبته الزهراء . وغضوا الأبصار ، من خزی أو من استحياء : ثم ولت عنهم عزمات القلوب وهم یشهدون فاطمة تتحرك كالخیال ، وثیدا وثیدا ، بخطرات المحزونة الشکلی ، فتقترب من ناحية قبر أبيها .. وشخصت منهم الانتظار وأرهفت الأسماع إليها ، وهی ترفع صوتها الرقیق الحزین النبرات تهتف بمحمد الثلوی بقربها تنادیه باکیة مریر البكاء :

« یا أبت رسول الله .. یا أبت رسول الله !.. »

فکأنما زلزلت الأرض تحت هذا الجمع الباغی ، من رهبة النداء .

وراحت الزهراء ، وهى تستقبل المئوى الطاهر ، تستنجد بهذا
الفائب الحاضر :

« يا أبت رسول الله .. ماذا لقينا بعدك من اين الخطاب ، وابن
ابى قحافة !؟ » .

فما تركت كلماتها الا قلوبا صدعها الحزن ، وعيوننا جرت دمعاً ،
ورجالا ودوا لو استطاعوا أن يشقوا مواطىء أقدامهم ، ليذهبوا فى
طوايا الترى مغيبين .

١٦

بكى أبو بكر حين أتته قصة شكوى الزهراء . وبكى عمر وقت
الحادث ثم عاد ثانية الى البكاء وهو يرى ما كان . وكانت فى الرجل رقة
خافية وراء غلظته البادية . فثاب الى الدمع عساه يفىء على نفسه
بعض الراحة بعد اذ صعدت الشكوى منه الى اسماع الرسول .

واقبل على صاحبه يتوسل ويقول :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نرضاه ،
فانا قد اغضبناها .. »

فأجابه أبو بكر لتوه :

« انى منطلق .. »

لقد لقيت هذه الدعوة مكانها من قلب الخليفة اذ كان يحن الى لقاء
فاطمة ، والى رؤيتها ، والى رضاء هذه السيدة التى لم يحب
رسول الله مثلها انسانا ولم يحبه مثلها انسان . وهو الى هذه الرغبة
التى ما فتئت تراوده على هذا اللقاء كان يدفعه - غير استرضائها
عما سلف من صاحبه - أمله فى أن يمحو ما لعله علق بنفسها يوم
أبى عليها أن يكون لها نصيب فى أرض فداء ، التى مات عنها الرسول ،
وكان يدفعه أيضا حبه أن يلقي عليها ، بعد هذه القطيعة - التى فرضتها
ظروف الحال - ولم تفرضها موجدة أو ضغن قديم .

أجل ، قد كان أبو بكر حنانا الى لقاء الرجل الذى خالفه فى الراى
ونازعه مقاليد السلطان ، وان لم يتوسل مطلقا فى نزاعه بغربة أو وقية

أو سقطت لسان ، بل ظل أبدا عفا لا يلج في الخصومة ، نبيل لا يتذرع بكيد ، صافي القلب يتحرج أن تند منه الكلمة نابية تخدش شعور خصمه . بل عسى أن يكون على هو الأول والآخر بين الناس الذي أبى على انصاره أن يتحدثوا عن غريمهم بما يسىء إليه ويجرح كرامته ويحط من قدره ، حتى لقد أنكر على ابنه - قبل كل الناس - أن يجبه أيا بكر على الملاء بكلمة حق أفلتتها شفتاه ، ثم لم يكفه أن يبدى الاستنكار بل قفاه بالاعتذار - لم يقعه عنه أن الحسن كان إذ ذاك صبيا لا يجيد الخصام وإن أجاد الكلام !.

حدث هذا ذات يوم قريب ، وقد قف أبو بكر على منبر المسجد يخطب الناس ، فبينما الجميع قد القوا إليه الأسماع ، وسكنت حركة المكان حتى ليسمع فيه تردد الأنفاس ، إذا صوت رفيع حاد يأتي من طرف المسجد صائحا بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبى !.. »

فوقفت الكلمات بحلق أبى بكر ، وبهت الناس ، وتطلعت أبصارهم إلى ناحية الصوت مشدوهين .

ولكن أبا بكر لم يلبث حتى استرد خاطره ، وسكن جأشه ، ولعبت بسمة هادئة على شفتيه وهو يلتفت إلى هذا الصائح الصغير : الحسن سبط الرسول ، ويقول له فى حنو ورفق :

« ابن بنت رسول الله ؟ . صدقت والله . وانه لمنبر أبيك لا منبر أبى »
ووصل الخبر إلى على فأسف وأنكره على ابنه أشد الانكار ، ثم لم يهدأ باله وتطب نفسه حتى بعث رسولا من لدنه إلى أبى بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث .. ولم تأمره »

فكان جواب الخليفة :

« انى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

كان أبو بكر حنانا إلى لقاء على ، وإلى لقاء فاطمة حينه إلى رضائها ، فما أبدى عمر له رغبته حتى صادفت لدبه القبول .

وانطلقا . واستأذنا على فاطمة فأبت ، ثم استأذنا فأبت . فما كان أعجب من سيرهما إلى على فى الاستئذان لهما عليها الا رضاه أن

يمنحهما من لدنه الاذن ، فيدخل بهما ويقبل على زوجه يرجوها ان تحدثهما كأنه كان وليا لهما ولم يكن الخصم الغريم .

ودخلا . وقرأها السلام فلم تجب . وتقدما فقعدا امامها فولت وجهها عنهما الى الحائط . وراحا يلحقان في الرجاء ان تسمع لهما أو يظلا لا يبرحان ما أبت عليهما الانصات أو الاذن بالكلام . وقال لهما أبو بكر ، أخيراً ، وقد اذنت له :

« يا حبيبة رسول الله .. والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك اني مت ولا أبقي بعده .. أفتراني أعرفك وأعرف فضاك وشرفك وأمنعك حقلك وميراثك من رسول الله ؟. الا اني سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

ما أحسب ان ميراث فذك كان كفيلاً بأن يشير الى هذا الحد غضبها على أبي بكر ، بل هي أولى أن تعلم هذا الحديث عن أبيها . وأولى أن تنهج نهجه وقد عاشت معه مطبوعة بطباعه ، ناسجة على منواله في العزوف عن عرض الدنيا ونسب الحياة . ولكنها كانت سارت الى الخليفة في أمر فذك لأن رسول الله - كما أعلمتها أم سلمة - قد أوصى لها بهذه الأرض نحلة . فلما رأت أبا بكر لا يعلم بهذه الوصية ، ثم يابى أن يترك لها فذك وان شهدت أم سلمة ، ما دامت الشهادة في الاسلام لا تصح الا اذا أداها رجلان أو رجل وامرأتان .. لما راته يابى عليها هذا الميراث ، ويبدو كالمتشكك في شهادة سيدة قمين بابى بكر ان يسمو بها عن التشكك ، نفضت فاطمة يدها من الأمر ولم تراجع الخليفة فيه . ولئن ظنها هو واجدة عليه من أجل هذا المرض الضئيل ، فقد جاء ردها عليه لا يشير الى الميراث من قريب ولا من بعيد ، لأن حب المال - كما أحسب - لم يكن أدنى الى طبعها ، والى خلقها ، سيما وهي تعلم عن أبيها انها لن تمكث في هذه الحياة الدنيا بعده الا اقل القليل . قالت تخاطبه وهي تشرك عمر في الخطاب :

« أرايتكما ان حدثتكما حديثنا عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به؟ »

أجابها وصاحبه :

« نعم .. »

« نشدتكما الله .. ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من

رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ »

« قد سمعناه من رسول الله » .

فرفعت وجهها وكفيها الى السماء ، وراحت تقول في حرارة :

« فاني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ..

ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ! .. »

فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف ! .. مادت

الأرض تحتها ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيتا يترنحان .

وغادرا الدار وقد خبا أملها في رضا زهراء الرسول ، وعلمتا مدى

الغضب الذي أثاراه عليهما في قلبها ومدى السخط الذي باءا به ..

أما عمر فقد عاوده ثانية ندمه على ما فرط منه في حقها فثاب الى الدمع

يلوذ به عساه أن يلهمه الراحة .. وأما أبو بكر فقد أحس كأنما الدنيا

ضاقت عليه حتى لا يرى له فيها مقاما ، وكره ، بعد ذلك الموقف ،

أن يصيب من الحياة أو تصيب منه . وبحسبه أن يستطيع الانطواء

على نفسه في دأره يعالج همه بعد اذ أبت عليه فاطمة رضائها الذي

كان نفحة عاطرة من رضا محمد رسول الله . ولكن أمانة الحكم في

عنقه ، ولن يخلص بنفسه الى ما يريده من عزلة حتى يسلم الناس

أمانتهم ويرد عليهم بيعتهم التي أدلوا بها اليه .. كان هذا أمله ،

فأسرع الى الناس مهموما يطلب اليهم أن يقيلوه ويرجوهم أشد رجاء .

غير أن الأحداث عادت ثانية تلعب دورها كما لعبته من قبل ..

إن جيوش مانع الزكاة قد أصبحت اليوم على قيد البصر تحاصر

المدينة ، وتتربص بها ، وعاصمة الاسلام قد غدت عورة مكشوفة أمام

الأعداء ليس بحميها منهم عتاد ولا رجال الا القليل الذي ليس فيه

غناء في ذلك الوقت الذي كانت فيه جنود المسلمين بامرة أسامة

بها زالت غائبة على حدود الشام .

وتدبر المسلمون الأمر ، وتفكروا فيما يطلبه منهم الخليفة في هذه

اللحظة العصيبة فما رأوا أمامهم من الوقت فسحة تتسع لاقالة تتبعها

بيعة مع ما يتصل بهذه وتلك من خلاف قد تسوء معه العقبي ويتحين فيه العدو سانشته التي تلبث ينتظرها منذ حين ..

لذلك أبى المسلمون ، أو أبى اكابر من بايعوه ، ان يجيبوا الخليفة الى ما يطلب ، وأبوا ان يقللوه ، وزاد المسلمون فى هذه الآونة الحرجة حول أبى بكر التفافا رغبة منهم فى حفظ كيان الاسلام ، ولقد كان على أسرع الناس الى نصره الرجل فى هذه المحنة ، لأنه رأى فى الانتظار له ابقاء على دين الله وابقاء على الأمة المحمدية الناشئة التي كانت قد بدأت أولى خطواتها الى المجد . وتقدم عاريا من الخصومة ، خاليا من الخلاف يعرض على الشيخ نفسه وسيفه يستعملهما فى كشف الغمة الوشبكة الوقوع كيف يشاء .

تلك شيمة ليس يتصف بها اكثر من الرجال ، ولكنها شيمة نفس نقية من الشوائب وقلب ناصع ، شيمة مثلى لرجل أمثل ، اذ كان ابن أبى طالب خلال فترات حياته جميعا معنيا دائما بالتماس الكمال ، واخذ نفسه باحتدائه ، وان قام بناء هذا الكمال على انقراض غاياته الشخصية وأهدافه السياسية . ولئن خالف من قبل ابا بكر ، وقام ينازعه السلطان فلغير صولة الحكم كان الخلاف ، ولكن لأنه كان مؤمنا أشد الايمان أنه أقوى من خصمه هذا ومن غيره من الناس على اعزاز شأن الاسلام .

١٧

« يا ابن العاص ، انك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية وفى الاسلام .. »

« فما تريدون ؟ »

« ارايت الى الانصار كيف تفضلوا علينا ؟ »

« قد فعلوا . »

« فقم اليهم فلا تدعهم وما قالوا .. »

كان عجبا ان يدور مثل هذا الحديث بين بعض قريش بعد سكون الفتنة ونوم نوازي الشر .. ولكن دعاة قريش كانوا اناسا فيهم عصبية،

وفيهم حمية الجاهلية ، وليس يرضيهم أن يفاخرهم غيرهم ولو بالحق !.

ولذلك انطلق عمرو الى مسجد المدينة يتناول بلسانه ما كان من الأنصار اذ ارادوا أن ينصروا عليا بعد خذلان ، فيفيض في تقديمهم ويمعن .

قال وهو قائم يخطب الناس :

« والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم .. كادوا أن يحلوا جبل الاسلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منه كما ادخلوا فيه » ..

ثم لا يلبث أن يتطرق به الحديث الى ما كان منهم يوم السقيفة ، وان عفى الزمن على آثار ما كان !.. ولكنه الحديث الذي يستطيع من خلاله أن يضع فخر الأنصار ويرفع هام قومه مفاخرا ما استطاع .. « لئن كانوا سمعوا قول رسول الله : « الأئمة من قریش » ثم ادعوها فقد هلكوا وأهلكوا . وان كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين ، ولا سعد كأبي بكر ، ولا المدينة كمكة ... »

ويزدهيه الفخر ، بعد هذا ، فرفع الصوت معتزا ويقول :
« الا أنهم قاتلونا امس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة !.. »

فماذا كان يريد الا أن يستعلى بحديثه هذا على الناس ؟ وماذا وراء هذا الاستعلاء - بعد أن سكن ثائر الأنصار - الا اثارة حفيظة القوم وبعث الفتنة من مرقدتها في وقت أولى بالجميع فيه أن يفلقوا الأفواه ويصطفوا على وفاق ؟ ..

ولكن عمرو بن العاص قبل كل اعتبار من قریش التي غلبها !الأنصار - في البدء كما قال - وقهروها على اعتناق دين الله . ولعل الرجل ، اذ قال ما قال ، قد عني أن يقتص لقومه كيفما كانت ذريعته الى القصاص ؟ ومع ذلك فان لسانه لاقى في هذا الميدان لسانا أقول ، كما لاقى ذهنه ذهنا أنقى وأشد بديهة . فلم تكد كلماته تشيع بين الناس حتى انفرجت صفوفهم عن رجل قصير احمر ، لا يكاد أن يملأ العين منظره ، وان لم يغب خطره عن الرائيين .. انفرجت الصفوف عن شاعر الأنصار النعمان بن العجلان يتقدم الى « لسان » قریش في هدوء ويقول :

« يا بن العاص .. دع العاقبة ودع البدء ، فما كان الله ليخرجكم من الاسلام بمن أدخلكم فيه !.. »

وكان الفضل بن العباس قد أم بالمكان وسمع ، فسارع مغضبا يقول لعمره :

« يا عمرو !.. انه ليس لنا ان نكتم ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة الا أن يأمرنا .. »

وذهب بالخبر الى ابن عمه عساة أن يحسم ما كان من نزاع بعد أن كادت النفوس أن تسكن عن النزاع .. أما ابن العاص فقد خشي اللقاء فأسرع يختفي من بين الناس . وأما على فما القى اليه نبأ ما كان حتى غضب وقال :

« ويح ابن العاص !.. آذى الله وآذى رسوله .. »

ثم انطلق من توه الى المسجد فدعا اليه الناس حتى اجتمعوا ، وقام فيهم يقول :

« يا معشر قريش . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق .. ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق ! ولقد قضا ما عليهم وبقي ما عليكم » .

وأصغى اليه القوم . وهو يهيب بهم ويسترسل :

« يا معشر قريش .. ان الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله الى المدينة . وكره له قريشا فنقله الى الأنصار .. يا معشر قريش ، انا قدمنا على الأنصار دارهم فقاسمونا الأموال ، وكفونا العمل ، حاربنا الناس بهم ، وانتصرنا ببذل غنيهم وإيثار فقيرهم .. يا معشر قريش . اذكروا أن الله تعالى أنزل آية من القرآن جمع فيها للأنصار خمس نعم اذ قال : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » . وتريت قليلا يجول ببصره في الناس عساة أن يقع على من كاد أن يعيد الفتنة ثانية الى الحياة ، ثم راح يقول :

« ألا أيها الناس أن عمرو بن العاص قام مقاما آذى فيه الميت والحي ، ساء به الواتر وسر الموثور ، فاستحق من الحاضر الجواب ، ومن الغائب المقت ، فمن أحب الله ورسوله أحب الأنصار .. وليكفف عنا ابن العاص نفسه .. »

فكان لهذا الخطاب من بعد ابلغ الأثر فى قلوب الجميع ، اذ ارضى
الانصار وأفاء على ارواحهم السكينة وحفز قريشا على تجنب اغصاب
أبى الحسن ، فمشت الى عمرو بن العاص تقول :
« أما وقد غضب على فحسبك واكفف ! »

وكانت هذه خاتمة النزاع بين فريقى الاسلام ونهاية التراشق
بالألفاظ الذى كاد يؤدى الى تحكيم الحسام . وفرغ المسلمون الى
تسطير مجد الدولة الناشئة فى سجل التاريخ . وراحوا يبدؤون بخضد
شجرة المرتدين ويقصفونها شوكة بعد شوكة ، وبقي على - بعد ان
ذاد عن المدينة جموع مانعى الزكاة هو ومن عينهم أبو بكر لهذا الأمر -
منطويا على نفسه ، لأن الخليفة ضن به على الحروب كما ضن به قبله
رسول الله ، فعاد يشغل نفسه بجمع القرآن .

وكأنما ابت الأيام أن تسالم الرجل الذى طالت أساءتها اليه
أو تهادنه . فما لبث فى عزلته تلك الا قليلا حتى فدحته باعته مصاب
بعد رزئه فى الرسول . وانه لتحضره اليوم ، وهو قائم على فراش زوجه
التي برحت بها آلام المرض ، ما كن من نبوءة محمد لها فلا يملك الا ان
يتملكه الأسى وينشب الحزن بقلبه اذ يرى الفجيعة المخوقة باتت على
مبعدة ساعات . لقد حان أخيرا موعد اللقاء بين الأب الحبيب وزهرائه
فى دار سوى الدار وهذه فاطمة ، وهى لا تقوى على قلب جنيها
من وهن وأعياء ، تجاهد حتى تستطيع أن ترسم بسمة خافتة اللون
على شفتيها الذابلتين . فاذا سارع اليها زوجها ، مدت كفها الناحلة
فلمست بها منكبه . وهمست له :

« صدق رسول الله ! »

فلا ينطق ، لانه لا يأمن أن تند من فمه أنة حزن مع الكلام .
ولكنه يفهم ما تعنى . وتحضره الصورة القديمة - كما ذكرتها هى
له - يوم عادت رسول الله فى بيت عائشة ذات يوم فحدثها بما
ابكاها ثم حدثها بما أضحكها فكان هذا كان بالأمس لا من شهور .
ويطلق على بصرا غائما الى الفراش . ثم الى جانبه حيث وقف
الحسن ووقف الحسين ، صامتين أمام رهبة ما يريان ، قد جمدت

فى ماقيهما الأدمع رفقا بأمهما أن يؤذيها البكاء . وتنتقل النظرة الى زينب الصغيرة .. الطفلة التى لم تنهل تماما من حنان الأم ، لأن الأيام لم توسع لها ولم تترفق بحدائثها . وان قلبها الصغير ليشعر بفداحة المصير فتجثو على الفراش الى جوار فاطمة تتأملها برهة فيعييها أن تحتفظ بالسكون ، ونطلق عبراتها فترتمى كعادتها على صدر والدتها كما تفعل كلما حزبها امر من امور عالمها المحدود ، وتدفن وجهها فى الصدر الحنون ثم تذهب فى نسيج مكتوم .. وتلوح على وجه فاطمة سحابة رقيقة من الرثاء للطفلة وللغلامين ولكنها تحاول أن تبدو متجلدة ، وان رات الحسين يسعى الى جانبها ويسعى اخوه الى الآخر يتناولان كفيها بالتقبيل واللثم فى خشوع ... فاذا استطاعت بعد هذا أن تثوب الى نفسها وقد ترفق الاب بالأطفال حتى خلفوا المكان ، عاودت تتم حديثها فى خفوت :

« هل صنعت ما أردت ؟ »

فيجاهد وسعه لجيب :

« نعم »

« فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ »

« نعم »

« فانى انشدك الله الا يصليا على جنازتى ... ولا يقوما على

قبرى .. »

فيميل بوجهه عنها ناحية حتى لا ترى فى عينيه الدمع .. انه ليبكى الآن أسى كما يبكى رحمة . وان أساه لعلى هذه الزوج التى كان يتنسم من اردائها طيب رسول الله وكانت عزاء له بعده ... وانه لعلى شبابها الغض الالهاف الذى عاش فى الدنيا كعمر الزهور .. وانه لعلى حديها عليه وحرصها على حقه حرصا ناق حرصه هو على هذا الحق مرات ومرات ، حتى لقد ظلت ابدا غاضبة لا يفتح قلبها عن الرضا على من سلبوه اياه . وكانت الرحمة التى شاركت الأسى فى دمع عينيه من أجل ذينك الرجلين اللذين أغلقت قلبها دونهما مع ما بدلاه من استرضائها ما وسعهما البذل ..

أجل ، بكى على رحمة من أجل أبى بكر ومن أجل عمر لفرط ما بكى الشيخان تأثرا وندما .. ولقد شيعهما من قليل الى الباب وهو لا يدري كيف يسوق اليهما كلمة ترفيه . جاءا يعودان فاطمة

فأبت عليهما والحا ، فكان ردها دائما هو الإباء ؛ وتقدم زوجها اليها بالرجاء تلو الرجاء ان تكف عن إباطها ، حتى اذا رضخت كان اذنها باللقاء أمعن فى قلبيهما وخزا من الرد والإباء .. دخلا فأعرضت وسلمتا فأشاحت بوجهها عنهما ناحية وبعثتاها فلم تعن بالجواب كأن غيرها المعنى بالخطاب !.. ثم ها هي الآن ، وقد خرجا تأخذ على زوجها الميثاق ان يرضن عليهما بالصلاة عليها رهي جثمان فارقتة الحياة !.

ولكن هذه الضاوية التى أشفت على نهاية ، أتت عليها لحظة بدت فيها كأن قد فارقتها الأوصاب وتشبثت بها الحياة وان كانت هي - بقلبها - تغالب تشبث الحياة ... وكان على قد آمن من القدر فجاءته ذلك اليوم الموسوم بنزول الخطب ، ففادر الدار وفى نفسه بعض الطمأنينة ، ووكل شأن فاطمة الى سلمى زوج أبى رافع مولى رسول الله ، تقوم عليه ...

وكانت المرأة جالسة فى هدوء وقد سربلتها الفرحة ان وجدت بنت رسول الله على خير ما ترجو لها اذ ذاك من حال حين اتاها صوت فاطمة هادئا يقول :

« يا أمه ... »

« لبيك يا حبيبة رسول الله » .

« اسكبي لى غسلا يا أمه » .

فقامت فأنت لها بما طلبته من ماء ، حتى اذا اغتسلت كما كانت تفعل ابان العافية ، هتفت ثانية :

« ايتينى بشيأى الجدد » .

ففعلت سلمى .

وعادت فاطمة مرة اخرى تقول :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فكأنما قدت سكين من قلب المرأة شطرا ... نهضت المرأة عجلى اليها تحوطها بذراعيها وتذرف عندها الدمع .

« بأى أنت وأمى يا حبيبة رسول الله ؟ .. »

فابتسمت فاطمة ، ولم تزد على ان تعيد فى هدوء حديثها المغرى بكل نقيض للهدوء والابتسام :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فأذعنت سلمى ودماء قلبها تنزف من عينيها . وقامت فاطمة الى الفراش فاضطجعت عليه . واستقبلت القبلة ، ثم التفتت الى المرأة تقول :

« يا امه ... انى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لى كتفا ... »

أما سلمى فلم تدر كيف مضى بها الوقت الا ان كانت عينا ممدودة ويذا مقبوضة ، كلاهما لا تستطيع دفعا ، لا اولاهما تدفع البكاء ، ولا أخراهما تدفع أنكى الأرزاء ... وقضت فاطمة فكانت يومها ذاك بآخر ضجعة على آخر فراش لها فى الدنيا التى دفعتها الى ظهرها زهرة ، ثم أخذتها زهرة ما زالت على ما كان لها من النظرة وحسن الرواء .

هكذا فارقت حبيبة رسول الله هذه الأرض لتلحق بأبيها الكريم فى السماء ... وخرجت من الدنيا آخر عهدا بها مع الليل ، يشيعها الى مثواها الأخير حفنة من الرجال ، ومضت الى ربها ، بقلبها الممرور ، فانقطع بيمضيها آخر من كان على قيد الحياة من نسل رسول الله .

وعلى القير الكريم تحت النجوم ، بناحية من البقيع ، وقف زوجها الشاكل المحزون يناجى رسول الله وهو يرنو الى زهرائه الطاهر البتول ، ويصوغ من الحشرات كلمات :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة للحاق بك ... قل يا رسول الله عن مصيبتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ... الا ان لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، واقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرك نفسك ... انا لله وانا اليه راجعون ، لقد استرجعت

الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ،
إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر
أمتك على هضمها ، فأحفظها السؤال واستخبرها الحال - هذا ولم
يطل بك العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع
لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء
ظن بما وعد الله الصائرين ... »

أَشْوَاقٌ

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ، تَزِدْ لَهُ
فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
نُؤِثِرْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ »

١

آده الصمت والوحشة وبعد الرفيق . لم يعد عمره الآن يقاس
بمألوف ما اعتاده الناس من سنين وأعوام ، لا ولا بشهور عام تتعاقب
فى زرقائه الأهله . . انما خواطره مقاييس جريان الفلك واختلاف
علائم الزمان ، وانه ليشعر ان قد طفر الى الكهولة من شبابه الريان
فى دفعة . وان اكادسا من الأجيال حطت على كاهليه . وأن الصورة
البادية للعيون من جسمه وملامح محياه لم تعد تعكس بأمانة
ما يملأ قلبه .

ولكنه بقى فى محنته القوى الصابر . لا يسلم قياده لحزنه . .
ولا يدع اليأس يوصد دونه باب الحياة . . كان علم بالدنيا من راغب
فيها ، أبصر بخباياها من راغب عنها ، فلم يغره منها المظهر ، ولم
يغب عنه الجوهر ، وبقيت له مكشوفة بناحيتهما ، وبقى لها كما
كان ابدا ، سيدها المسك بزمامها ، يرخيه بحساب ويجذبه بحساب .
قد يتمهل بها آونة ، او ينحرف اخرى الى شمال او يميل ثالثة الى
يمين ، ولكنه كان حريصا على أن يسدد على الدوام خطاها الى
هدف واحد لم يبرح مطلقا مرمى بصره .

وحتى فى هذه الأيام التى طالعت فيها الآلام ، وقفزت به
خواطره الدكن بعيدا عن نطاق عمره ، لم ينس أن له فى دنياه رسالة ،
وأن حياته فى الأرض مركب الأداء ، وأن الحزن الفياض لا يفرق
عزما ، وأن أهواء النفوس الحرة ومطامح القلوب الكبيرة أخرى بها
أن تكون وسيلة وأجمل الا تكون غابة . وذوو المثل فى الدنيا شعل
تضىء للناس ، ولا يضرها أن تبنى ما دامت قد أفاءت على الجموع
الضياء .



مضت به الأيام وثيدة حتى تكاملت فى حساب الزمان الوافى
شهورا ، وفى حساب الفكر العانى قرونا ودهورا ، وهو فى غرفته
من الناس كمن فى حصن غلقت أبوابه ، يرى من الكوى ولا يشارك .

وكان هذا على نفسه الوثابة عبثا ، ولكنه كان أيضا الضريبة الفادحة التي اقتضاها الحزن . ومن لاتی فی دهره كمثل همه لا یلام جرحه تجلد وصبر ، ولا يجد نجاء من أساه بغير قبر . اما هو فقد قدم فی باله الألم والصراع قبل أن يقدم الراحة والمتاع ، فلم تأت له دنياه بجديد ممرور لا يستطيع ذوقه ، بل جاءت بما كان منها اشكل بطبيعتها ، وادعى ان يعلم به قبل أن يجرع صايه ..

كل أولئك الذين عرفوه جحدوه ، وكل أولئك الذين سبقهم حسدوه فلم يغير هذا شيئا من بياض قلبه . ولكن غاية الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان .. لكأنما البوا دهرهم حربا عليه ، او لكأنما صفهم زمنهم عليه جندا ... وكأى من حال لبسوها جميعا ، فلم يعرف قلبه طعم الحقد . تحلب حقا مر الهزيمة وشرق به حلقه . ولكنها هزيمة أصابت العرض ، ووقفت أمام الجواهر مكتوفة الأيدي . وهل عسى يضره أن تعدوه الخلافة الى سواه من أصحاب الرسول بقدر ما يضره هؤلاء الصحاب ان تعدوه ؟ .. وماذا كان مأربه من وراء حكم الناس الا أن يحملهم على الخير او يحمل اليهم الخير ؟ .. وياترى لم تعد له من الأيام بقية يدخرها الأجل لتحقيق الأمل ؟ .. الا فليكن عند قول أبى عبيدة بن الجراح ، وليطوين فى نفسه الطموح حتى يشب او يشيب لأنه بعد صغير والأمر له ان طال به بقاء ! .. وانفرجت ثنياه فتبسم عن كره ، ذلك الصباح الندى الوضاء .. ان رسوله قطع الطريق الى المسجد وهم ان يحيى الشيخ . وانه ليكاد يراه الآن من وراء المسافات يسر الى أبى بكر ما ارسله فيه ، ثم يقرأ على صفحة الوجه المشرق الجليل سطور دهشة مازجها رضاء ، ثم يتوسم فيمن حضر نظرات تشوق وفضول أو خشية واشفاق . ولقد يفضى الشيخ لمن حوله بفحوى الحديث . ولقد يثنيه عن استجابة الدعوة قليلون او يحفزه على تلبيتها كثيرون . ولقد يهم وزيره ان يسير فى أعقابه اكبارا لشانه أو تخونا عليه . ولكن الشيخ كان قميئا بأن يلبى ، وبأن يلتزم فى التلبية نص الدعوة حرفا بحرف . وبأن يقطع الدروب وحده الى دار على يهرول مشوقا ليلقى ، بعد قطيعة شهور ، ذلك الشاب الفريد فى الرجال .

الصراع الذى فات بين خصمه وبينه لم يغير مطلقا من بياض قلبه ، وانما ثمالة الألم ذاقها من نحالف الناس والزمان : ولقد كان قويا على ذنب الناس فعفا ووسعهم غفرانه . ولكن كلم الزمان فى قلبه كان غائرا يدمى . وبحسبه بعد وفاة رسول الله أن ينكب بوفاة فاطمة فتغيب عن حياته أسطح السُُموس ، وأن تنضم غرفته على وجوه ، لا يفتأ كلما وقع عليها بصره ، أن يرى فيها اطيافا من الراحلين الكريمين . وأن يذكر - اذ يرى - هول النكبة التى أصابته بهذا الرحيل . وأن يرود خاطره بعد لحظات نهاره وتوانى ليله ، حذب الأم الذى فقده الصغار ، وعطف الجد الرفيق البار . فبأى من تلك العواطف الغائبة السخية يستطيع قلبه الآن أن يجود ؟.. وهل تثبت عينه فلا تسخو وهى لا تنى تقرا على قسّمات الأطفال أساهم نديا ؟.. وكيف يقصر وجهه على اصطناع السكون امامهم وكان دائما لقلبه مرآة ؟..

أن تلك الشهور قادرة وحدها على التحدث لو نحلت اللسان وأوتيت البيان . وقوى على ذهنه أن يغلب ذكراها ، عصى على قلبه أن ينساها ، فكلما نطقت زينب وخطرت أم كلثوم ، سمع فاطمة ورآها ، وكلما مشى الحسين وبدا الحسن تبين فى مشية أولهما خطوات رسول الله ، وفى ملامح الثانى قسّمات محياه . ومن وراء هذا كله صور تتداعى امام عينيه متواترة تختلف فى تتابع لكلا حبيبه ... اما هو فقد كمن فى جوفه قلبان ، ينزع به قلب أن يغمض بصره ويسد أذنيه حتى لا يقع على مثار حزنه ، ثم يهتف به قلب أن يرهف أداتى الرؤية والاصفاء فلا يغيب عنه صوت الحبيبة او صورة الحبيب .

وكذلك عاش على مع قلبه فى صراع : لا شىء يلهيه عما هو فيه الا أن يصطنع شاغلا عن عواطفه فى أوقات . وفى عالمه الذى يحده من كل جانب جدار - فى تلك الغرفة التى انطوت على اطفاله وعليه ، لم يكن شاغله سوى أمر أولئك . خلال مسافات من سنّى عمره بدا هذا الأرملة الصغير فى عيون مريديه كمن قد صيغ من روح ، وفى عيون شائثيه كأنه فولاذ !. ولكنه حقا جمع الرايين فكان الرخاء والمضاء . ولكليهما سار فى الحياة وأفاء على اطفاله ما أفاء ، فاذا الصغار تتشكل نفوسهم ، مع الزمن ، بشاكلة كلما نهلوا من دينه

وعلمه أو قبسوا من شجاعته وعزمه . وقد يسر لهم أن يجيدوا عن أبيهم الأخذ بكل ما ورثوا عن أسلافهم وجرى في عروقهم من كريم الخلال .

وكانت هذه ناحية من رسالة على في هذا الوجود ، بل قد كانت منها - اذ ذاك - أبرز النواحي . فلقد ظل دائما معنيا بالتماس الكمال في المعرفة حتى بدا فيها الرجل الزاهد العزوف عن الطعام والمال ، منهوما غاية النهم لا يتسبع من حكمة وعلم ، لا يننى بجيع بطنه ويشبع ذهنه ، وكان بثروته هذه كالكريم المضياف يمد أطايب موائده أمام قاصديه ليصيبوا من ذخرفانه كما يشاءون . ولقد بلغ من هذا الأمر المدى الذي لم يبلغه سواه حتى أصبح المرجع في مستعصيات المسائل ، وتسئم مقعد المعلم الأول في ذلك الحين مع ما كان من حدانة سنه ، يأخذ عنه الملتفون به من صحب الرسول ، ويستهدون بأرائه يذيعونها في المجالس لنفع الناس ، وحرى بمن نهل الحكمة من نبع النبوة أن يكون كما كان .

ولكن الزمن أبى أن يدع له طويلا هذه المتعة الروحية ينعم بها في إبان محنة حزنه ، فلقد أخذت حلقات الصحاب تضر وتقل جموعهم عنده وتتفرق شراذمهم الملتفة به كلما دعاهم داعى الجهاد بمكان . ولم يلبثوا ، بعد أن استعرت الفتنة في جانب من الجزيرة ، أن يتركه الواحد بعد الآخر حتى أمسى وليس له من تلاميذه الا بعض أهله وأولئك الأربعة الصغار .

والى جانب هذه المتعة الروحية التى انتقصتها الحرب ، ظلت الناحية الأخرى من نشاط على معطلة مذ اعتزل الناس . ولكنها - مع ذلك - بقيت كالسيف المجلو بتارا قاطعا وان احتواه قراب . ولطالما رمى بناظريه خارج داره فرأى جموعا تذهب وجموعا تجيء دارعة تدج في السلاح ، فكان يطوى قلبه على هم جديد فوق ما طوى من هموم ، ثم يرد طرفه اليه في حسرة . كان مشوقا الى ما هم فيه ، حنانا الى عالمهم الصخاب بصليل السيوف ، وقعقة الرماح وأزير القسى عند انطلاق النبال . فلمثل هذه الحياة الحافلة بالدماء عاش . ولمثل يومهم هذا هياه طبعه . وللغاية التى من أجلها يخوضون اليوم غمار القتال كان يرتو ببصره وهو بعد طفل صغير يقف الى جوار ابن عمه العظيم ويقول غير آبه بمن حضره من كبار أهله في ذلك الحين :

« لا يحزنك والله اعانت القوم فعليهم ضلالتهم ، واني
انا يا رسول الله عونك ! انا حرب على من حاربت !.. »

اجل قد كان هذا شعاره في الحياة وكان هدفه الذي لم تمل عنه
عيناه . نصره محمد كانت هدفه ، فمن ورائها انتصار دين الله . وعند
ما طوى اللحد ذلك الاتى الى العالمين بالنور ، قام على من بعده يتهيأ
لقيادة الناس على النهج الواضح المرسوم . وكان قد وجد في قلبه
القدرة على الاضطلاع بالأمر ومجادلة الاحداث - التي اخذت تجتمع
في الافاق محاولة ان تحجب هذا النور - فنذر نفسه شابا ، كما
نذرهما من قبل صبيا ، ووهبها لغايتها المثلى .. فأما وقد افلت من بين
يديه حكم الناس ، فان اداته لنصرة دين الله واعلاء شأنه ما زالت بعد
تحت يده : مجلوة بتارة وان احتواها قراب !..

والقى ببصره الى جانب من الغرفة فعلق فيه بسيفه الذي اهداه
محمد اياه . وامتلأ قلبه زهوا وهو يرمقه اذ كان كبضعة منه . واكتسى
وجهه بلون من الرضا المشوب بالعزم ، وهمت يده ان تمتد فتسله
وتداعب نصله لولا ان نما الى سمعه صوت قال :

« ابو بكر !.. »

فتلفت ناحية الباب ليرى الشيخ الجليل مقبلا عليه ، في ناظره
ابتسام ، وعلى محياه هدوء وسلام ، وقد سار نحوه مشوقا يهتف به
في صوت رقيق النبرات :

« السلام عليك يا ابا الحسن .. »

ولكن عواطف القلوب كانت ابلغ من كل تحية وكلام . فما ان تقايل
الحظان حتى اعتنق الصاحبان القديمان ، وراحت قطرات من الدمع
تترقرق في ماقي الشيخ ثم تنثال في رفق بين شعيرات لحيته البيض .
وبدا الصمت لهما هنيهة خيرا من الف حديث .. وتقبل على بالرضا
وراحة الفؤاد هذا البياض الذي تكشف عنه قلب ابي بكر في دقائق
اللقاء ، فقد ظل كعهده نقاوة وصفاء ولم تغيره قطيعة ولا خلاف .
لكان قلبيهما كانا شطرى قلب .. أما الشيخ فلعل الاريحية التي بدت
له في هذه اللحظة من صاحبه والتسامح الذي بلغ الى حد تكران
الذات ، كان بعض ما حرك قلبه وأرسل الدمع صيبا من عينيه ..

وأما الشاب فلغير مثل هذه العوامل الشخصية وجه دعوته
يستقدم خليفة الاسلام ، وان كان قد اتخذ التسامح والارحية مطايا
لبلوغ ما اراد . . وما كان له من مأرب الا ان يرأب صدعا . او يهيء
رشدا ، او يهز سيفا في سبيل مجد الاسلام .

٢

حتى في هذا الموقف الذي تهيم فيه المجاملة ، ولا تدع سبيلا
لسواها من خلجات الشعور الى النفس الانسانية ، لم ينس على
صراحته ، ولم تخنه شجاعة الراى الطليق الحر . . كان مخلصا غاية
الاخلاص أمينا غاية الأمانة لنفسه ولصاحبه على السواء ، فلم يغمط
الأولى حقا آمن انه لها ، ولم يخف عن الثانى لهذه الخاطرة التى لو شاء
لتركها من قلبه فى قرار سحيق . ولكنه أبى ان يدع بهذا القلب
جانبا غير مكشوف لعين الشيخ ، او ان يظهر له الناحية الملساء ويطوى
الأخرى عنه ، بل أثر ان يبدو امامه بناحيته كليهما بلا مواربة
ولا اخفاء . .

قال وقد انتهى حديث العاطفة بينهما على خير انتهاء :

« يا أبا بكر . . انه لم يمنعنا من أن نباعك انكار لفضيلتك ،
ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا فى هذا
الأمر حقا فاستبددتم به علينا به . . »

وبهذه الكلمات القصار لخص الشاب قضيته التى أبت لها الأيام
الا الخسران . ونفض يده من خلاف لم يكن هو أول مشيريه وان كان
أول مناجزيه .

وكأنما مى كلامه وترا فى القلب الكبير الرفيق ، فانبرى أبو بكر
يجيب :

« والذى نفسى بيده يا أبا الحسن . . لقراءة رسول الله احب الى ان
اصل من قرأبتى ، وأما الذى شجر بينكم فى هذه الأموال فانى لم آل
فيها عن الخير ، ولم أترك أمرا صنعه رسول الله الا صنعته . . »
وصدق الرجل فيما أجاب وان لم يتناول كل اطراف القضية بهذا

الجواب !. ولكنه أعاد فقط ما كان من أمر فذك الى الأذهان وشأنها كله لا يكاد أن يخسر أو يزيد في الميزان ، غير أن عليا لم يكن اليوم في مجال حساب فاكتفى بالعتاب ، واسدل بالصمت على الماضي سترًا ثم سارت به أريحته الى المسجد ليعلن في الملاء الحاشد بكلمات جلية رسمت حقه ورسمت فضيل منافسه ، أنه أصبح على رأى الناس فلا قطيعة ولا خلاف . حتى اذا انتهى غادر المنبر يشق الجموع الى حيث افضى الى أبى بكر فبايعه ويدعو على الأثر آله ومن تخلف من انصاره عن البيعة أن يتابعوه .

ودخل بهذا في الحياة العامة . واخذت المدينة تشهده ثانياً انين يلازمان خليفة المسلمين . ولكنه مع ذلك لم يحظ بأمنيته في الجهاد ، بل بقى جليس المسجد بعد أن كان حبيس الدار تطوف به الأحداث حديثاً .

على أنه استطاع أن يجد متنفساً لطاقته العلمية في مجتمع اقل ما يقال عن أفرادهم أنهم كانوا من العلم أمم طراز جديد . وعن له أن يدلى بآرائه الصائبة كلما اشكل أمر من الأمور على اصحاب الراى البرزين .. وفى تلك الأيام الأولى من صدر الاسلام والدين جديد على قلوب معتنقيه ، ومشكلات نواميسه وأحكامه عصية على أذهان القوم بعد وفاة المذهب الأول للكون . في تلك الأيام التى غاب عن آفاقها حامل شعلة الهدى ، وجد الناس لدى سليل هاشم الصغير اقباساً من النور تضىء لهم أحناء حياتهم الروحية والمدنية كلما تشعبت الآراء أو أصابها حسر . ولم يكن على يفتى فيما يعرض له من المسائل والقضايا الا عن رأى صائب مسنده القرآن أو سنة رسول الله أو ما جرى من العرف المأثور . وله بعد هذا الاجتهاد بالقياس أو الترجيح أن أعوزه الوقوع على النص الصريح .

فى هذه الآونة وما بعدها من عهود خلفاء محمد كان على ميزان القضاء والافتاء ، ذخيرته حكمة قبسها من نبع النبوة واتساع أفق وعلم فياض ، لا يباريه فى ميدانه صاحب ولا رفيق حتى أصبح فى المستعصيات ذا الراى الحاسم الأخير . وكتب بأحكامه الفذة اصول التشريع الاسلامى فى كل نواحيه . وألقى أضواء لامعة من ذخيرة معرفته على مشكلات الحياة ومسائل القضاء حتى كان اس الخطاب - وهو صاحب القضاء على عهد أبى بكر - يقول فيه :

« لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن !.. »

وقنع على من دنياه بنصيبه هذ من تفقيه الناس . وترك سيفه مغمدا الى حين ، لأن خليفة الرسول التزم ما كان قد التزمه رسول الله في أخريات أيامه من الضن بابن أبي طالب على الحروب . ولكنه كان دائما لأبي بكر الناصح الأمين كلما حزب الأمر ودعا ان يتقدم بمشورة . واتصلت بين الرجلين ألفة غذاها ما كان يملأ قلبه من الوفاء دائما لصحبه وان سبقوا اليه بحيف أو بعدوان . وان الذي يساير الأحداث هونا ، ليرى هذا الوفاء لامع الصفحة حين يلمح هذا الشاب متقدما على استحياء الى أسماء بنت عميس يطلبها لنفسه زوجا ، بعد ان مات عنها أبو بكر ، ويضم محمدا اينها الى داره كأحد بنيه . ثم يرى هذا الوفاء باديا على خير وجوهه ، اذ يلمحه منطلقا ، واله النفس ، مصدوع القلب ، الى دار الخليفة ، يبكى ويقول :

« رحمك الله يا أبا بكر !.. كنت والله أول القوم اسلاما ، واخلصهم ايمانا ، وأشداهم يقينا . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخل الناس ، وقمت معه حين قعد الناس . كنت والله للاسلام حصنا وللكاافرين ناكبا . لم تغفل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف . كنت والله كما قال الرسول فيك : ضعيفا في بدنك ، قويا في دينك ، متواضعا في نفسك ، فلا حرمننا الله أجرك ، ولا اضلنا بعدك » .

وكفى بهذا الشاب نقاوة قلب وصفاء نفس ، ان ينسى في هذه الملة ما سلف من الشيخ اليه ، وان ينبذ وراء ظهره ما كان من خلاف بينهما وحيف عليه ، كفيل بأن يوغر صدر سواه ، فلا يذكر لهذا الراقد الا فضله وحسنه . وان يسمو على انسانيته سموا يتزع به عن بني البشر فلا ينطق الا بلسان البررة الأطهار من سكان السماء ، في آوثة اضاف قبيلها أبو بكر حيفا جديدا الى حيفه القديم على حق هذا الغريم المظلوم . ان طاقة النفس البشرية لا تتسع في عصر من العصور ، كما اتسعت نفس على ، لمثل هذا التسامح وهذه الأريحية وهذا السخاء في انكار الذات ، وذكر اجمل النعوت والصفات لواتر لا يعز على خصمه ان يذكر له الاخطاء والهنات . فلقد نسى على الماضي ورماه دبر ظهره ، ثم نسى الحاضر وهو ما زال يسير على مثل شوك القتاد أو قطع الحجر من هذا الحاضر . وليس أمسه عليه بعيد ، لا ولا يومه الذي لم تكد

تغرب شمسه الا منذ قليل ، وكلاهما شهد لأبى بكر موففا كان كفيلا بأن ينطق عليا بغير منطقته هذا لو أنه سائر ما جبلت عليه نفس الانسان ولكنه سما على انسانيته بنحو فريد . وشهد وأغمض عينيه عما شهد ، وسمع ثم سد أذنيه دون ما سمع . . شهد هذا اليوم أبا بكر موعوكا الح عليه داؤه واشتد به برحاؤه ، نكاد امراته اسماء ان تحميه لفرط وهنه وهو يشرف على الناس من داره ليقول :

« ايها الناس . . انرضون بمن استخلف عليكم ؟ انى والله ما الموت من جهد فى الراى . ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد استخلفت عمر ابن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا . . . »

وكان هذا حريا بأن يفعم بالغضب قلب على لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف . ولكنه كظم وصبر ، ولم يضره ان يأخذ مقعده فى ذيل الناس ما دام صاحب رسول الله قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته . ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجيبا غاية العجب من الشيخ الجليل بعد ان استوت بينه وبين على الأمور ، فلم تعد خافية على أبى بكر مكانة الشاب وأثره فى حياة الجماعة الاسلامية من توضحيات وبذل عند ولادة الدين ، ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال . . وكان عجيبا غاية العجب منه ، وهو الملتزم دائما السير على منهاج الرسول ، ان يخرج على هذا المنهاج فيوصى لصاحبه بعده وكان أولى به لو ترك للناس أمرهم نسورى - كما فعل محمد - يختارون الذى يشاءون . ولئن بدا أبو بكر يوم السقيفة مدفوعا تسوقه الأحداث امامها ولا تدع له الا أحد سبيلين : هما الخلافة لنفسه ولقريش فى شخصه ، او فوز الأنصار بها دون المهاجرين ، فانه اليوم لم تدفعه الأحداث ولم يبدر من المسلمين تنافس او خلاف يسوقانه مكرها الى الاستخلاف .

. . وبلا معارضة او ابقاء ، قابل على الحيف الجديد على حقه يصدر رجب ، وارتضى ان يرتد ثانية عن الصدارة الى ذيل الناس . ولكن صمت لسانه لم يعف جنانه من ان يلوك خاطرا مر بباله ، فذكر بلسان الحال ما نطقه بعد أعوام بلسان المقال :

« أرى ترأى نهبا ، فياعجبا ! . . بينا هو يسبقها فى حياته اذ هقدتها لآخر بعد وفاته . . لشد ما تشطرا ضرعها ! . . »

٣

لا ريب ان ابا بكر رأى لعمر عليه حقا حين استخلفه ، كما رأى للمؤمنين صلاح حالهم بهذا الاستخلاف . ولكن الأسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهفات والأخطاء . فان الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدا كأنه اضمر التبييت وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول . ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة النبى اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بنى ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج .

وكذلك أسقط أبو بكر من حسابه عليا الذى كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه . وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه وان لم تكن المشورة - فيما يبدو - بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، ولكن الذى كان احرى بخلقه الكريم لم يفعله ، كأنه خشى - لو أدخل عليا فى الراى - أن يلويه عنه او يخالفه . ومع ذلك فماذا كان على بمستطيعه بالمعارضة وقد عزم الشيخ امره وانتهى الى قراره قبل ان يشاور ويستطلع الآراء ؟ . . . واى الناس فى العرب كان يفضل ابن عم رسول الله أو يقوم مقامه حتى يفضى أبو بكر عن دعوته ليشاوره فى الأمر ؟ . . . وكم من رأى لصحب محمد يعلو رأى هذا الشاب فى شأن من الشئون ؟ . . . ان العجب كل العجب ان يلتمس الخليفة الصواب عند على كلما اختلفت الآراء فى مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاوره اذا اراد البت فى مصير دولة جمعت رعاياه ! . .

كان هذا عجبا حقا من رجل خلف دنياه وهو على غير يقين اكان هو صاحب الامر من بعد رسول الله ام كان الاولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف :

« لوددت انى كنت سألت رسول الله عن هذا الامر فلا ينازعه احد » ولكنه ، مع ذلك ، شاور صحبه قبل ان يدلى بهذا الامر لعمر ولم يشاور اولاهم بالمشورة وبسط الراى . ودعا اليه عبد الرحمن ابن عوف يسأله :

« أخبرني عن عمر .. »

قال عبد الرحمن :

« يا خليفة رسول الله . هو والله افضل من رايك فيه من رجل

ولكن فيه غلظة .. »

« ذلك لانه يراني رفيقا ، ولو افضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو

عليه . يا ابا محمد ، اني قد رمقته فرايتني اذا غضبت على الرجل في

شيء اراني الرضا عنه ، واذا لنت له اراني الشدة عليه .. »

وهم ان يقوم ابن عوف فقال له الخليفة محذرا :

« يا ابا محمد .. لا تذكر مما قلت لك شيء .. »

ثم دعا اليه عثمان بن عفان يسأله :

« يا ابا عبد الله . أخبرني عن عمر .. »

« انت اخبر به يا خليفة رسول الله . »

« فأخبرني .. »

فقال عثمان :

« اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله »

فتفرجت أسارير الشيخ وهو يقول :

« رحمك الله يا ابا عبد الله ! .. ولو تركت عمر لما عدوتك »

ثم أوصاه أن يكتم ما دار بينهما من الحديث .

واشتد فيما بعد بالشيخ وصبه . وخشى ان يموت قبل ان يوصي

ويسجل وصاته هذه في كتاب ، فبعث الى عثمان يستكتبه العهد ،

فلما جاء راح يملئ عليه :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .. »

واخذ صاحبه يكتب .

« ... هذا ما عهد عبد الله بن عثمان الى المسنمين ، آخر عهده

بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، في الساعة التي يبر فيها الفاجر ويسلم

فيها الكافر . »

ثم وهن منه الصوت قبل ان يتم املاءه ، واضمى عليه :

ودفع ابن عفان عن الصحيفة عينا يتطلع بها قلقا نحو صاحبه ،

فاذا الرجفة تأخذه اذ يراه مهبطا . وكأنما خشى ان يكون الخليفة

قد فارقت الحياة قبل ان يتم عهده ، وخاف من الناس ان يختلفوا على

الأمير بعده ، فسارع يكتب متمما الوصية :

« .. اما بعد ، فانى قد استخلفت عليكم ابن الخطاب .. »
وافاق الشيخ بعد قليل من غشيته فاطمان عثمان ، وقرا عليه
ما كتب قال له ابو بكر :
« انى لك هذا ! .. »
« ما كنت لتعدوه .. »
« اراك خفت ان يختلف الناس ان افلتت نفسى فى غشيتى »
« نعم يا خليفة رسول الله »
« الله اكبر !. اصببت ، فجزأك الله خيرا عن الاسلام . اتمم
كتابك »

وعاود الاملاء .

وابرم بعد قليل العهد الذى اراده ابو بكر فتم لعمر الامر .
ودخل طلحة بن عبيد الله على الخليفة وهو بين بعض صحبه
حين نما اليه خبر الوصية .. وقال معارضا :
« ما انت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه
النفوس وتنفض عنه القلوب ؟ .. »
فبدا الغضب فى عينى الشيخ ، وصاح بابن عمه :
« ابالله تخوفنى يا طلحة ؟. اذا قال لى غدا ذلك قلت له : وليت
عليهم خير اهلك »

« اعر خير الناس يا خليفة رسول الله ؟ »

فاشتدت ثورة حنقه واجاب :

« اى والله !. هو خيرهم وانت شرهم !. اما والله لو وليتك
لجعلت انفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله
هو الذى يضعها ، قم عني ! .. »

والتفت الى ابن عوف يقول له ، ولما يزايله غضبه :

« استخلفت عليكم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم لذلك انفه
يريد ان يكون الامر له دونه لما رايتم الدنيا قد جاءت !. اما والله
لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج ، ولتألمن الاضطجاع على
الصوف الاذرى كما يألم احدكم ان ينام على حسك .. ووالله لان
يقدم احدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من ان يخوض فى
غمرة الدنيا .. »

فكأنما جلت سكرات الموت للشيخ بصيرته فنفذت الى المستقبل حتى لاح امامه مبسوطا وتكشف عن صحبه الباقيين قد اكتنفهم الترف ومالوا الى رفاهة العيش بعدما كان من نزوعهم عن الدنيا ونأى عن اوطارها وعن مآرب الحياة .. ولعل هذه النبوءة قد طافت من قبل بخيال ابى بكر ، وملأت قلبه بالخوف من المستقبل الذى رسمته ، لانا نجده ، حين احس دنو أجله ، يسارع الى رجل عرفت فيه الزهادة فيختاره اميرا للناس حتى يجنبهم المصير الذى يخشاه ... ولقد اصاب باختياره -د التوفيق فاستطاع ان يمد فى أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام ، ولكننا نراه ، حتى فى هذا الصواب قد افتات ثانية حق على الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما فى هذا الطريق . وإفتات ثالثة حق على بمنطق اللسان حين سمعناه من قليل يقدم عليه ابن عفان اذ يقول :

« لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله »

فمن فى الزاهدين كان عثمان ؟ .. واية ميزة تفرد بها دون ابن ابى طالب واستحق معها التقديم ؟ .. وبأى لسان نطق ابو بكر هذا البيان ؟ .. اكان حديثه يا ترى بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم فى حكمه قواعد الحساب الدقيق ؟ .. هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجيء عليه الجواب .. وللأحداث من بعد الحكم وفصل الخطاب ؟ ...

٤

المبدأ الذى التزمته قريش فى اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ، ونزعها عنهم من أيديهم ... هذه حقيقة أيديها دائما وقائع الحال ، كانت فى البدء يحجبها - حديثا - فى حلق أصحابها ستار وان بدت فى الأفعال ، ثم أخذت على الأيام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ... ذلك بدا جليا غاية الجلاء ، ولو لم تتخرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر بعده لأبى بكر ، لوسعها أن نقول لبنى هاشم فى أصرح بيان وبأعلى صوت :

« كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت ... »

ولقد أمرت عليها - انفاذا لمبدئها المرسوم - شيخا من تيم لا ريب كان له مثل رأيها ذاك ولكنه كان فطنا ، فيه كياسة وحذق فلم يجار بالذى كانوا يسرون ، وجرى أحيانا بينهم مجرى الهمس بعد جربانه كالعقيدة فى الأخلاق والظنون . وبقي طاويا فى نفسه شعور قومه تجاه آل الرسول وان لفطت اللسان رويدا رويدا بأنهم أصابوا الجادة حين اختاروا خليفتهم من غير بيت النبى ، رغبة فى البعد بخلاف الاسلام عن التشيع للعصبة التى نهى عنها الاسلام . الا أنه منطق يعوزه السداد وان بدا كالسداد ، فما كانت العصبة جرما الا أن تمنع صاحب حق حقا يستقيم له غيرها ، أما الاعتذار بها فهو الجرم كله ان منع حقا يستقيم لصاحبه بها كما يستقيم له بدونها على سواء .

ولكنه الاعتذار الوحيد الذى انتحلته قريش لتدرا الشبهات عن حيفها وركوبها آل محمد بالعدوان . وما كان لها أن تلجأ الى سواء وهو ذريعتها لتبدى - فى صورة غير واضحة الظلال والالوان - ما طوت عليه جوانحها للبيت الهاشمى من حسد مكتوم وحقد مكظوم .

وبالبحث وراء هذه الأحقاد يستطيع أن يردّها الى أصولها القديمة فى أحداث التاريخ ، كما يستطيع أن يحس عواطفها المنبعثة

عنها في قلوب القوم كلما آنت لحظة يقفون بها في موقف الحكم امام هذا البيت الكريم ، ثم لا يستعصى عليه بعد هذا ان يعلل احكامهم التعليل الصحيح . كذلك تألبت قريش على محمد وهي على ضلالتها ، وهو يحمل اليها ناموس الهدى والنور . وكذلك فعلت من بعده حين تجيشت بقضها على ابن عمه ولم تنصفه وجاء النصف من جانب قوم من غير قبيله هم الأنصار . وكذلك مدت في طغيانها عليه يوم الاستخلاف ، وان صدر عن شيخ بنى تيم لأنه لم يكن سوى المعبر عما يحس به قومه ويبتغونه كثرة أو يبتغونه وهم على اجماع .. وفيما اتى بعد هذا من فرص النصف ظلت كدأبها من على في المعسكر المنحرف عنه التحيف عليه ، وليس من سبب واحد اقصاه عن مقعد الحكم الذى هو به جدير سوى هذه العاطفة ، وان لاح تعدد الذرائع والأسباب . ومن احس الريب وخالجت الشكوك في أثر هذا المانع الوحيد الاصيل ، فبحسبه ان يسمعه عن لسان ابن الخطاب .. فلقد وسعه ان يعتذر مرة عن حيف قريش بسبب مطروق سلف اليه قبله رأى ابى عبيدة ابن الجراح .. وثانية بسبب واه كان ظنا خالصا لم يؤيده فيما بعد منطق الأحداث ... لكنه في الثالثة تكلم بوحى قلبه فأجاد التأويل واصاب التعليل ..

... اما الاولى فكان يحادث فيها ابن العباس فقال فيما قال :

« ما ارى ، يا بن عباس ، صاحبك الا مظلوما .. »

« فأردد اليه ظلامته يا أمير المؤمنين »

فوقف الشيخ هنيهة بهمهم كأنما يحدث نفسه ، ثم عاد يقول :

« ما اظن القوم منعهم منه الا أن استصغروه ... »

... وأما الثانية فمر فيها بعلى ، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ،

ذات ليلة فالتقى عليهما السلام ، ولما هم أن يسير الخليفة لشانه هتف

به ابن أبى طالب :

« أين تريد ؟ »

« البقيع »

« أفلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ »

فوافق ، وأشار على لابن عمه أن يصحب عنه أمير المؤمنين .

ومضى الرجلان في جوف الليل ، الأمير صامت كأنما قد شغله

التفكير ، ورفيقه لا يحب ان يقطع عليه فكره بالحديث . حتى اذا

جاوزا البقيع بقليل التفت عمر الى صاحبه وقال :
« يا بن عباس ... اما والله ان صاحبك لاولى الناس بالامر بعد
رسول الله ، الا اننا خفناه على اثنين ... »
« فما هما يا امير المؤمنين ؟ »
قال عمر :

« خفناه على حذائفة سبه ، وحبه بنى عبد المطلب »
... واما الثالثة ففي بعض مجالس امير المؤمنين وقد جلس
اليه نفر يتذكرون الشعر والشعراء . ومربهم اذ ذاك عبد الله
ابن عباس ، فقال عمر للذين حوله وهو يدعوه :
« قد جاءكم الخير ... »
ثم التفت اليه يسأله :
« من اشعر الناس يا عبد الله ؟ »
« زهير بن ابي سلمى يا امير المؤمنين »
« فانشدني بعض ما تستجيده له ... »
قال ابن عباس :
« مدح قوما من عطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| لو كان فوق الشمس من كرم | قوم بأولهم او مجدهم قعدوا |
| قوم سنان ابوهم حين تنسبهم | طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا |
| انس اذا امنوا ، جن اذا فرعوا | مرزعون بهاليل اذا جهدوا |
| محسدون على ما كان من نعم | لا ينزع الله منهم ماله حسدوا » |

فقال عمر :

« والله لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من
هاشم لقرابتهم من رسول الله ... »
« وفقك الله يا امير المؤمنين فلم تزل موقفا »
وكان عمر اراد ان يوائم بين رايه هذا وبين ما سلف من قريش
في حق هذا البيت الكريم فراح يقول :
« اتدري يا بن عباس ما منع الناس منكم ؟ »
« لا ... يا امير المؤمنين »
« لكنني ادري »
« فما هو ؟ »

« كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً ، فنظرت لأنفسها فاخترت ، ووفقت فأصابني »
ويبدو أن ابن عباس لم يكن متهيئاً لهذه الآونة للسكوت فبادر إلى الجراب الذي ظل أعواماً يكتبه في ذات نفسه ولا يفصح عنه ..
قال لابن الخطاب :

« أيما طير أمير المؤمنين عنى غضبه ؟ »

فأمنه عمر قائلاً :

« قل ما تشاء »

« أما قولك أن قريشاً كرهت ، فإن الله تعالى قال لقوم : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ... » وأما قولك أنا كنا نجحف ، فلو جحفنا بالخلافة جحفاً بالقرابة ، ولكننا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله الذي قال ربه فيه : « واثق لعل خلق عظيم ... » وقال له : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ... وأما قولك أن قريشاً اختارت ، فإن الله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت وأصابني ! ... »

فتفكر عمر هنيهة ، ثم قال وقد آذاه بن ابن عباس هذا الحديث الصريح :

« على رسلك يا ابن عباس ! ابت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشا في أمر قريش لا يزول ، وحقداً عليها لا يحول »

« مهلاً يا أمير المؤمنين ! ... لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش فهي من قلب رسول الله الذي طهره وزكاه . وإنهم لأهل البيت الذي قال لهم الله (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ... وأما الحق فكيف لا يحقد من غضب شيئه ويراه في يد غيره ؟ .. »

فغضب عمر ، وصاح وقد حضره في هذه الآونة أمر كان يكتبه :
« ما أنت يا ابن عباس ؟ ... اني قد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي ... »

« وما هو يا أمير المؤمنين ؟ ... أخبرني به ، فإن بك باطلاً فمثلي

اماط الباطل عن نفسه ، وان يك حقا فان منزلتي عندك لا تزول به ... »

« بلغني أنك لا تزال تقول : أخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما »

فلم ينكص ابن عباس . ولم يتزحزح عن مواطيء قدميه ، بل قال :

« نعم حسدا ! وفد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة . ونعم ظلما !... وانك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحق من هو ... يا أمير المؤمنين ، ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ؟ فنحن احق برسول الله من سائر قريش »

وبدرت اذ ذاك من الشيخ بإدرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذى لا يعييه ان يمتلك نواصي الحديث بالحجة وقوة الجدل ، فلم ير عبد الله بدا من ترك المجلس . فلما رآه عمر قائما يريد ان يبرح ، خشى ان يكون قد اساء اليه فأسرع يقول متلطفا به :

« أيها المنصرف ! ابنى - على ماكان منك - نراع حقا »

فالتفت الفتى اليه يقول ولم يزايله جده :

« ان لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقا برسول الله . فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع !... »

ومضى عنه وفي اعقابه كلمات تقدير وانصاف قالها الأمير للجالسين :

« واها لابن عباس !.. واها له .. فما رآته لاحى احدا قط

الا خصمه » .

جرت السياسة العمرية على ان يظل صحاب رسول الله الاقربين حبيسي جدران الحجاز .. لم يبن الخليفة الثاني سورا ، ولم يفلق عليهم الابواب ولكن شكيمة كانت اقوى من الف سور وباب ، فوقف الصحابة حيث اراد لهم ، لا يبرحون الا باذن ولاجل موقوف ، ولا يتفرقون فيما فتح الله به على الامة الاسلامية من بلدان كلها خصوبة وخير - الذاهب اليها متعلق بها حتما ، مربوط بما تغله من ثروة ، تنادي كل ذي مطمع ان يتزود من دنياء بأوفى نصيب .. وأولئك الذين بعث بهم عمر في الافاق لم تغمض مطلقا عنهم عينه ، ولم ينأوا عن ياعه ، بل كانوا قيد بصره اليقظ النفاذ ، وكفه القوية الباطشة . وهم بعد هذا احد رجلين : زاهد في المتاع ، له من نفسه وازع يعصمه من الزلل ، لانه لا يستطيب الدنيا فلا يستطيب الاشتها . وطامح يتدفع بالحذر ولا يخطو الا بحساب لانه لا يأمن العقاب وعنف الجزاء . وكانت هذه السياسة خطة أبي بكر أيضا ، ووصاته لخليفته من بعده ترسمها وهي في ذاتها حكمة أيدتها الاحداث التي اصابته بناء الدولة الفتية في عهد لاحق بصدوع نشأت عن التهاون في الأخذ بها حيناً ، ثم باهمالها جملة ، وهي في نفس عمر لاقت صدى من شعوره الصادق وبصيرته التي طالما نفذت الى بعيد ، ولاقت هوى كذلك لانها اتفقت والمعروف عنه من الشدة وكبح الجماح فيه وفي الآخرين . وقد ظل طوال عهده تتردد في أذنيه كلمات سلفه :

« احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله ، الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم » .

وهو في تأثره خطي صاحبه كان يخشى ، ان تفرقت رعوس قریش في الأمصار ، ان تشتد سواعدهم ثم تسول لهم النفوس ان يستقلوا بدويلات تنتقض على أمها الحجاز . أو يركنوا الى ثرف ينسيهم خشونة الصحراء ، تنبرى به الأجساد وتهن العزائم . ولقد طالما اخذ عمر الواحد منهم بالشبهة فخلعه من ولاية كان ولاه اياه ، أو اخذه بالهنة فحرم عليه ما يملك من مال ومتاع وردده الى بيت المال ، فاما الذين

لم يستعملهم على البلاد فأولئك الذين كانوا أدنى من الآخرين الى رسول الله وارسخهم مكانة وطيب سمعة في قلوب الناس . ذلك لانهم كانوا اقرب الى السلطان لو ارادوه ونامت عنهم عين عمر .. ولكنه كان دائم اليقظة موصون الحذر حتى ليأتيه الرجل منهم يستأذنه في الخروج للجهاد فيمنعه ويقول :

« اقمدا ! .. قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك ! .. »

تم اشتد عمر غاية الشدة في تطبيق هذا المبدأ ، فراحت حلقة الحصار يوما بعد يوم تضيق على هذه الفئة حتى حبسهم في نطاق مدينة الرسول .. قد كان حقا علم بنفوسهم وأبصر بما تنطوى عليه .. لو امتد به الأجل لتكشفوا لعينيه على الشاكلة التي بدوا بها في عهد عثمان ، ولو اطاعهم لقربوا عهد الفتن والخلاف . ولكنه عصاهم غاية العصيان ، واطاع فيهم حق الدولة في النماء على حسابهم وعلى انقراض اهوائهم ، فباء منهم بالثورة التي تكتمها خشيتهم منه ، وبالسخط عليه يضمرونه وان اظهروا الرضاء عنه ، ولعله علم منهم هذا ، ولمحه فيما بدت به سحنهم أمامه فقام فيهم مرة وقال :

« ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة . الا فاما وابن الخطاب حي فلا ! .. »

وقطع عليهم بهذه الصراحة الحاسمة كل سبيل . ثم النفث الى الوجوه المشرئية والعيون الشاخصة ، يبصر أصحابها بحكمة رايه ، ومدى ما فيه من الخير المؤجل لهم في حياتهم الآجلة ، دون ما تهوى انفسهم من الكسب المعجل في هذه الآجلة . كم بدا الرجل ماردا جبارا في تلك اللحظة ! .. شامخا كالجبل الاشم يخز السحب ويصد الريح ، اذ يقول :

« انى قائم دون شرب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار ! .. »



وكذلك - في هذه الحقبة من الزمان - عاش على المشرع الحكيم العالم دون بقية نواحيه ومزاياه . لم يتح للشباب ان يفيض على امة الاسلام بكل ما عنده ، فأطلق من لدنه هذه الطاقة التي لا يحدها قيد

من السياسة التي التزمها الخليفة الثاني . . اما على الحاكم وعلى الجندى ، فقد ظلا كالنصل لا يسئل عن قرأب . ولم يكن قيامه بالتشريع عن تكليف ، ولكنه تقدم به طواعية لا يمنعه عن الادلاء برأيه أن فاز عمر دونه بالخلافة ، ولا يوغر صدره أنه يرى حقه مسلوبا منه مباحا لغيره . فقد تعلم أن يسائر لاحداث بسجية المسالم الذي ينأى عن الفتنة ، الصاير ما كان الحيف مصيبا من ذات نفسه هو دون اصابة المجموع ، لأن خير الأمة وحده كان ديدنه وان جاء على يد سواه . .

ساهم على اذن فى الحياة العامة ، كما وسعه ، وكما لم تشل من طاقته حدود ولا قيود . وأفاء عدله وعلمه وحكمته ، كدوره فى عهد أبى بكر وعلى مدى أوسع . بل كان نصيبه من المساهمة إبان حكم عمر تنمة لما كان منه فى العهد السابق . . ثم هو ، قبل هذا ، نصيب تطلبت منه الظروف نفسها ومقتضيات الأحوال . والمتغفل فى ادراك الخليفتين الأولين وفى دنيا علمهما ، يعلم أن ابن الخطاب كان أفقر من سلفه الى علم أين أبى طالب وأشد حاجة . .

ان العدل العمرى موسوم بأنه قمة العدل ، وان الشدة العمرية كانت دائما ضمان اقامته بين الناس . ولكن الذى لا يرقى اليه الخلاف ، هو أن الفقه العمرى - بمحصول عمر وحده - لم يكن قاعدة مكيئة غاية المكانة تقوى على احتمال هذا العدل الأمثل . وليس يطعن على المرء بأنه لم تكتمل له كل نواحيه . وليس يضير عمر فى شيء أن يكون به ضعف هنا أو ضعف هناك ، اما القوة كل القوة أن يعرف الرجل نفسه - وقد عرفها ابن الخطاب حقا - ثم يكمل نقصها بما اتيح للآخرين . .

ولعل آفة عمر كانت دفعته ، تلك التي أوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فانت آونتها ، واتسع امامه مجال التفكير . . ومن كان على شاكلته تلك ، جدير به أن يلتمس له من اصحابه ومعاصريه العون الذى يحول بينه وبين عثار الاندفاع . وكان الرجل يعرف هذا الضعف فى نفسه . وقد طالما أنتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى ، وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة التي يظنها كفيفة بما يريد ، فاذا بها لا تلبث أن تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره . . اراد أن يقف بمهور النساء عند حد معلوم لا تتعداه فقال :

« لا يبلغنى ان امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبى الا ارتجعت ذلك منها .. »

فاذا امرأة تنبرى له تقاطعه :

« ما جعل الله ذلك يا عمر ! .. انه تعالى قال : وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ؟ .. »
فعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الآية الكريمة كما غابت من قبلها اخت لها يوم وفاة رسول الله . ولم يستطع بعد هذا الا ان يسحب شرعته ، ويجيب صاحبة الحجة بما هو ابلغ من الاعتذار :

« كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال ! .. الا تعجبون من امام اخطأ وامراه أصابت . فاضلت امامكم ففضلته ؟ .. »

ولكننا ، مع هذا ، لا يجدر بنا ان نعجب ، لأن الخطأ والصواب متلازمان فى اعمال الانسان . ولسنا أيضا نعيبه عليه ، لأن طاقته الشخصية الآدمية اضيق من أن تتسع للكمال . ولو انه أقر ان يستبد برأيه لكان هذا منه جديرا بكل مذمة وعيب ، وان اتى رايه بالمعجز الذى لا يفد اليه ريب . ولكنه كان رجلا حرا لا يأبى الحرية لغيره ، هضم عقله الشورى - ذلك المبدأ الاسلامى أس الحكم ، وافر بحكمته وفضله . وانطلق يتزود منه ويسد به نقصه ليكون حاكما أمثل . وعجم الأعواد جميعا فنخير من بين صحب رسول الله أصلها ليتوكأ عليه ، اذ يسير طوال اعوام خلافته ..

اجل ، لم يكن له معدى عن ابن أبى طالب فى هذه الناحية وهو من عرفه علما وفقها ، وحصافة رأى . فلم ينس له ان قال رسول الله ذات يوم فيه :

« اقضاكم على » .

ولم ينس له ان محمدا بعثه على قضاء اليمن فى اواخر أيامه ، وانطلق لسانه المبارك بالدعوة المباركة له :

« اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

لقد كانت هذه الدعوة خير ضامن اعلى يعدل قضائه وما يند عن شفتيه من آراء واحكام - والا فأي الدعوات اولى بأن يستجيب لها الله من دعوات نبى الله ؟ .. وحتى على نفسه زودته هذه الكلمات الطاهرة بثقة فى الوقوع على الصواب حتى لطالما كان يقول فى معرض الحديث عنها :

« ما شككت بعدها فى قضاء بين اثنين .. »

وكذلك شاء الله لهذا الشاب أن يسد نقصا فى ناحية من خصمه
السياسى الثانى لم يكن يستطيع أن يسده سواه .. ولندع لابن الخطاب
بيان خطر المهمة التى اضطلع بها عنه خصمه بأن نسمعه يقول كلماته
البعيدة المعنى القليلة الالفاظ :
« لولا على لهلك عمر » ..

٦

« لولا على لهلك عمر » ..

هذا جماع رأى رجل يدين بمستقبله الروحى كله لآخر ، أو هكذا
نطقت الفاظه . وهو مع هذا بين الرجال ذو رأى ليس بنقصه النضج ،
يلم أحيانا بأطراف الالهام .
لم يكن عمر بالذى يلقى القول لأنه يجامل ، ولو جامل لأبعد عن
نطاق لين الفاظه مثل ابن أبى طالب ، فان كلا خلق الخليفة وماضيه
بهذا ينطقان .

ولكنه فى خلال زمان قصير من صدر خلافته علم من على ما لم يكن
قد علمه أو أقر له به بعد كتمان ، فعرف له بعد تجربة أى نوع قد فى
الرجال كان .. واتسع مكان الصدارة من مجلسه لذلك الذى كاد
فى ذات يوم أن يشعل عليه داره ويجعله وآله للحطب طعاما ! ..
أجل قد كان يعنى القول ويعلمه حق علمه ، فقد أجنبه هذا الشاب
الذى افتات مع قريش على حقه ، كثيرا من مواطن الزلل فى أمور
دينه فضلا عن تسديده خطأه فى كثير من أمور دنياء .. واستطاع على
فى فترة قصيرة أن يكون الرائد الأول لابن الخطاب الى الحق الأبلج
كلما اشتبهت عليه الأمور وتعددت مسالك الآراء . وجلس منه
بحكمته المستقاة من نبي الله فى صدارة المشيرين عليه .. بل هو قد
غلب عليهم أجمعين ، وسلبهم الألسن اذا نطق وان لم يسلبهم السمع
وحسن الاصغاء وأصبحوا أمامه طلاب العلم الراغبين فى التزود من
نبعه ، لا ينطقون لانهم ينقصهم ان يوفوا مثله على الاحسان ، أو لانهم

يحرصون أمامه على التزام الصمت والانصات ، اذ هما طريق الصواب كما تبينوا من قول ابن الخطاب :

« لا يفتين أحد في المسجد وعلى حاضر » .

ذلك ان الخليفة كان يتحرز لدينه ويتوقى أشد التوقى أن تأتيه الفتيا من عويلم ، ثم لا تلبث ان تجره بخطمه الى مورد هلكة ، أو تزل به دفعته كما فعلت به من قبل فلا يستطيع أن يتجنب المهوى . انه لم ينس بعد كم كان قاب قوسين من التردى في خطئ لم يكن يأمن معه ان يسخط الله حتى اذا اوشك ان تنزلق به القدم بادر على فتلقاه . كان ذلك ذات يوم جلس فيه عمر الى الناس بمجلس القضاء . وتقدمت له امرأة ابى القوم الا ان يلحقوا بها الخزى .. سألهم فأجابوه :

« يا أمير المؤمنين .. انها ولدت لسته اشهر » .

فأحرقها بنظرته الغضبي ، وارتفع بصره الملهب منها الى الوليد الموسوم بميسم السفاح ، وارتعدت الأرض تحت قدمي الأم المتهمة حتى ودت لو انشقت عنها ، ثم اطبقت شقيها فاستراحت من عناء ما تلقى من هيبة الرجل ، وفي موقف كهذا اصاب امرأة حاملا من خوف عمر ماجعلها تلقى ما في بطنها وتجهض جنينا ميتا .. واغضى الخليفة عابسا برهة ينكت فيها الأرض بدرته ، فلما رفع ثانية راسه ، كانت الكلمة الرهيبة التي ندت عن شفثيه :

« أرجموها ! .. »

على انه لم يكذ يلفظ آخر حروف هذا القصاص الرهيب حتى أحس يدا على منكبيه تمسك به ، فتلفت صوب صاحبها يهمس :

« ما وراءك يا أبا الحسن ؟ »

قال له على في صوت ثبت وصين :

« يا أمير المؤمنين ، لا تفعل ! .. فلو خاصمتك المرأة يكتبك الله

لخصمتك .. »

فارتاع ، وارتد وجهه حالكا .

وراح على يتم حديثه :

« ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . ويقول

جل قائلا : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .. فاذا تمت المرأة الرضاعة ، وكان حمله وفصاله ثلاثين

شهرا ، كان الحمل ستة أشهر يا أمير المؤمنين » .

فخلع الخليفة سبيل المرأة في التو ، وصار هذا الحكم تشريعا باقيا على الزمان . وبمثل هذه البديهة اللماعة والذهن اليقظ كان على يهب عونه لعمر ويبصره في اكثر الاحايين بمواطن خطئه ، لا يقصر الارشاد على النواحي الفقهية التي لم يستوعبها مثله أحد من صحب رسول الله في اعلام الاسلام ، بل جرى شوطه في كل الميادين ، وادلى بآراء عقلت العقول عنها لولاه .

بعث عبد الله بن عبد الله بن غسان الى المدينة وعوس النصرارى من عرب اهل الجزيرة وقد اظهره الله عليهم وارنضوا الصلح ، فلما وقفوا بين يدى عمر قال لهم :
« أدوا الجزية وانطلقوا » .

فأبوها ترفعا أن يضاموا وهم عرب مثله ، وقالوا :
« بل ابلغنا مأمننا ، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لتدخلن ارض الروم . اتقضمتنا من بين العرب ؟ .. »

فأحنقه عليهم هذا الترفع بلا مزية ، وهذا التهديد بالفرار الى عدو يلتمسون عنده الملاذ ، فصاح بهم مغضبا :
« والله لتؤدن الجزية وانتم صغرة قمئة ! .. ولئن هربتم الى الروم لاكتبن فيكم ثم لأسبينكم » .

فاذا ابن أبى طالب تسارع بديهته بما يضع حدا للجدل والنقاش . . قال وهو يوجه الخطاب للخليفة :

« يا أمير المؤمنين ألم يضعف سعد بن مالك عليهم الصدقة ؟ .. »
« بلى ، قد فعل » .

واعجبته هذه اللفتة وحسن الراى فرضى بما لا كان من هؤلاء الأعراب .

ولئن ألم علم على بكل نواحي التفكير ، وفاض بآرائه السديدة في كثير من الأمور فان أبقى تلك الآراء على الدهور كان رأيه حين دعت الحاجة الى وضع التاريخ .

جاء رجل الى عمر يخاصم آخر بدين له عليه وكان معه صك مكتوب يحل به الأداء في شعبان ، فلمالقى الخليفة بصره عليه ، بادر يسأل الدائن :

« أى شعبان ؟ . امن هذه السنة ، ام التي قبلها ، ام التي بعدها ؟ .. »

فاجابه صاحب الصك ، ولكنه كان ينقصه البرهان ، فمن ذا يدري مدى الصدق فى قوله ما دامت الكتابة لم تنص صراحة على حقيقة تاريخ الأداء ..

وفى الحق لم يكن اهمال النص عن العام الذى يحدد الشهر يمكن القاء تبعته على صاحب الدين وحده ، لايه كان خطأ شائعا بين الناس اجمعين ما داموا لم يستنبطوا الوسيلة لتحديد الاعوام على وجه ثابت معلوم ، ولعل عمر وضع لعينيه اذ ذاك هذا النقص فالتفت الى صحبه يقول :

« ضعوا للناس شيئا يعرفون فيه حلول دينهم » .
قال احدهم :

« نفعل كما تفعل الفرس : فانهم يؤرخون بملوكهم ، كلما هلك ملك ارخوا بولاية من هو بعده » .
وقال آخر :

« تؤرخ بتاريخ الروم من زمان اسكندر » .
وقال ثالث :

« ارخوا من مولد رسول الله » .
« بل من مبعثه » .

وتضاربت هكذا الآراء ، ولم يستقر نقاشهم عند حد لولا ان جاء على بن ابي طالب من لدنه بالمعهد من الراى السديد ..
قال :

« يا امير اؤمنين .. تؤرخ من يوم هاجر رسول الله الى المدينة من ارض الشرك ، فانه اظهر من المولد والمبعث » .
فهتف عمر مصوبا معجبا :
« لا زلت موقفا يا ابا الحسن » .

وبدأت الاعوام من تلك اللحظة بأبرز أحداث هذه الدنيا وابلغها اثرا فى حياة البشر ، بهجرة محمد بن عبد الله سيد البشر ..



بدا الميل الى صحبة على بينا تتضح سماته كلما توالى على عمر الأيام . واخذت الجفوة فى خلق ابن الخطاب تتقلص رويدا لتحل مكانها الرقة له والاقبال عليه ، وكان الزمن قد علم الرجل خطأ ما كان من سوء ظنه بابن عم الرسول . وكلما مر الوقت تكشف له ناحية جديدة من خلق الشاب تهيب صاحبها لخير منزلة عنده ، ولأعلى مكانة بين صحبه اذا رأى الخليفة ان يتلقاهم جميعا بالمفاضلة ، ويعجم اعداؤهم عودا هودا . ولم يكن فضل على خفيا من قبل على كثيرين ، ولكن الحالة النفسية التى اعتورت عمر بعد البيعة لأبى بكر كانت حرة بأن تتركه نادر الرضا على أى منافس غريم ..!

على ان يد الزمان الآسية إبراته من الماضى !.. كذلك تغيرت نفسه ، وطاب قلبا لبنى هاشم ، وان طالعه من قومه الحقد عليهم . فلم تكن عينه لتخفى عليها خافية النفس التى تمت اليها نفسه ، وكانت كاحداها ، تشعر بشعورها ، وتنطوى مثلها على ما انطوت فى الغابر عليه ، ولكنه نفض عنه ماضيه ، ولم يعد يبصره الى الوراء بعد ان تفتحت امامه آفاق وآفاق من نفس فتى بنى هاشم السيد المحسود ! ... وظهر منه الوثوق فى على والركون اليه يتبعه الاقبال على اهل بيته حتى لم ير فى جمع الا صدره ابن أبى طالب ، ولا فى خلوة الا كان ثابته فيها ابن عباس . ولعله لقي عند هذا الفتى الصغير صفاء لم يشبه ما سبق هو اليه من حيف على حق ابن عمه ولم يؤثر الرير فيه فاتخذه نجيا ، والقى دائما اليه بما يخفى صدره ، وكان ينأى به عن أسمع غيره ... حتى ملابسات هذا الحدث التاريخى الذى أوقع بين الخليفة الثانى وبين الأسرة الهاشمية حاجزا من النفور لم تعد سرا يكتمه عمر عن عبد الله ...

فى خلوة جمعت الأمير والنجى اقبل عمر على صاحبه الصغير يقول :

« يا عبد الله ... ما تقول فى منع قومكم منكم ؟ ... »

قال ابن عباس ، وان علم خلاصة الاسباب قبل ان يسمع الجواب :

« لا اعلم يا امير المؤمنين » .

فاطرق عمر هنيهة يفكر ثم قال :

« اللهم اغفر ! .. ان قومكم كرهوا ان تجتمع لكم النبوة والخلافة

فتذهبون فى السماء بذخا وشمخا ... »

وتريث عن الكلام . ولم يكن هذا على اذنى عبد الله بجديد ، ولكن

الجديد حقا ، والسر الذى لم يكشف عمر عنه الغطاء قبل يومه ، هو

ما ذكره وهو يتم الحديث ويقول :

« لعلكم تقولون ان ابا بكر اراد الامرة عليكم وهضمكم - كلا ، ..

ولكنه حضره امر لم يكن عنده احزم له مما فعل ، ولولا رأى ابي بكر

فى عند موته لاعاد امركم اليكم . ولو فعل ما هناك مع قومكم .. »

ثم هز الرجل راسه كالأسف واردف :

« انهم لينظرون اليكم نظر الثور الى جازره يا عبد الله ! .. »

وقد أصاب التشبيه حق اصابة واصاب به حقيقة القوم ! اما الذى

جرى على لسانه معا هم ان يفعله الشيخ سالفه ، فانه ذهب مع قلب

ابى بكر سرا طواه لحده .. ولكن البين مما طالعنا به صحائف الحقبة

التى تلت وفاة رسول الله هو ان خليفته استقال الناس بيعتهم وكاد

ان يخلعها عن عنقه . ولو انه فعل اذ ذاك لارتد الى صاحبه الحق ،

ولجرت الخلافة مجراها الطبيعى فى دوحة الرسول . ولكن الاحداث

المتلاحقة وفتنة المرتدين ومانعى الزكاة وقفت حائلا دون رغبته ، فلما

ان حجاب هذه القمة التى امتحنت الاسلام فى مستهل حياته بافسى

محنة ، ولم يعد الشيخ - على الأرجح - قادرا على ان يحمل قريشا

الشائنة على النزول عن رايه الحبيس فى نفسه .. او هو خشى

- كالمفهوم من كلمات عمر - ان هو طالعها بهذا الرأى ان تجار بالخلاف

له تتبعه الفتنة والثورة عليه ما دامت تراه بهم ان يسلم اعناقها الى

سكين الجازر ! ..

هذه ناحية ظلت خافية فى نفس عمر ، لم يكشف عنها الا حين

تبين له الخافى من قلب على ، فاذا غضبه القديم يتوارى ، واذا شدته

تنقشع ، واذا تأويله الخاطيء للأسباب التى دعت ابن ابي طالب الى

السعى لمنافسة ابي بكر تبدو على حقيقتها النقبة فيعلم منها عمر

كم اخطأ من قبل فى حق الشاب .. وأصبح كلما انطوت من الزمن

ايام يجد نفسه مندفعاً الى هذا المشر الامين مقبلا عليه وعلى اهله

المظلومين واياه ، حتى لقد صار لهم العطوف الودود وصاروا له خير
اعوان . وفى كلا تقاوة قلب على ورجاحة عقله ، وجد ثانى الخلفاء
فيثا يظلل حبه له ، ويستمد منه بعض ما نقصه من نواحي القوة فى
العلم والتشريع . وربطت بين الرجلين رابطة وثيقة العرى اساسها
التقدير ، ودافعها اخلاص كليهما للواجب الموكل اليه ، وشدة حرصه
على الخير العام . ولكن عمر ظل ابدا يطوى فى قلبه املا عز على ماضيه
ان يهبه التوفيق فى اجتناء ثمرته .. انه حقا بلغ فى قومه الذروة
سلطانا وسطوة ، وخلف عليهم فى مكان تبواه منهم - الى قليل -
رسول الله وخير خلقه ، وبلغت هيئته من نفوس الناس ان خفض
اكابرهم الصوت فى مجالسه ، هو ابن الخطاب الذى قل
عمر بن العاص ذات يوم فيه :

« لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر ! .. والله لقد رايت وابه ،
على كل واحد منهما عباءة قطوانية ! تجاوز ما بضع ركبته ، وعلى عنقه
حزمة حطب ! .. ورايت العاص بن وائل فى مزررات الديباج .. »
بلغ السلطان والسطوة والهيبة ودانت له رقاع ممدودة من الأمصار
لا يبعد اقصاها عن طرف درته لو انه شاء ! .. ولكنه ، مع ذلك كان
مجدا دون المجد المأمول . فهو ان زهدت نفسه فى الكثير والقليل من
نشب الحياة لم يكن بمستطيع ان يقهرها على الزهادة فى مجد جدير
بان يجهد فى نواله وان يركب اليه الف سبيل وسبيل ! ..

فى حياته كلها لم يخفق قلبه كخفقه لمحمد . لو استطاع ان يموت
دونه لما احجم ، بل لعل اقصى ما مر به من لحظات الحياة تلك
التي تبين فيها ان محمدا فارقه الى جوار ربه ، فعر لقاءه الا فى غير
هذه الدار .. وفى حياته كلها لم ينعم بأمل احلى من ان يرتبط الى
محمد بأقوى رباط . وقد اسعده ان يزف حفصة اليه ، ولكن سعادته
كانت اخرى بان تكون اضعافا لو وفقه الله فجعل له عقبا من احدى
بنات رسول الله .. اما وقد حال بينه وبين فاطمة ان ادخرها محمد
لصفية وابن عمه : على ، فان الامل العذب بقى مع الزمن فى قلبه
لا يبلى ..

ولعله اليوم رأى ان اجتناء الثمرة جد قريب وهو يسير الى على ،
فلم يعد يفصل بينهما خلاف ، ولم تبق لمة وسيلة يقترب بها منه
ويتحجب اليه الا عالجها ، ثم هو قد رأى فى الشاب خير خدين

وخير ناصح أمين ، فاذا استطاع ان يصاهره ، فقد قضى على البقية
الباقية من غضب آل هاشم بسبب موقفه القديم منهم ، وأصاب المجد
الذى تهفو اليه مطامح النفوس ، وتهفو زهادتها على سواء ..

وكذلك اقبل على صاحبه يقول :

« ذكرت اليك أم كلثوم يا أبا الحسن » .

فتلفت على نحوه برهة ولم يجبه لتوه . قد كان فى خاطر الأب
امر جعله لا يبادره بالجواب .

ولكن عمر لم يقعه الصمت عن طلب الرضا عما جاء فيه . فأعاد
عليه الحديث ، فقال له على فى تردد وحياء :

« يا أمير المؤمنين .. انها صبية » .

فلم يقنعه هذا بل سارع يقول :

« انك والله ما بك ذلك .. ولكن قد علمنا ما بك » .

فابتسم على ولم ير بدا من مجاهرته بما كان يخفيه :

« انما حبست بناتى على بنى جعفر .. » .

ذلك انه كان يحب بنى أخيه حبه ولده ، ويؤثرهم بكل خير فلما
راى عمر ما كاد ان يعزم على عليه امره ، خشى أن يفوته اليوم ما فاته
يوم تقدم لرسول الله فراح يتألفه ويحاول أن يفوز برضاه .

قال وهو يصور له حاجته اليها وقد جرى العرف قبل هذه
الخطبة ان يصور الرجل حاجة المرأة اليه :

« أتكنيها يا على ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من

حسن صحابتها ما أرصد ؟ » .

فأطرق على وغلب فى هذه الآونة عليه طبعه الحى وسجيته
المجبولة على الا ترد حاجة أو طلبا .. وبانت فى عينيه الموافقة التى
جهد لها عمر ، فامتلا بالفرحة قلبه . وانطلق سن لدنه الى مجلس
ضحبه بالمسجد يسبقه بشره ثم لا يكاد أن يستقر به المقام بينهم حتى
يهتف :

« رفثونى .. رفثونى ! .. »

قالوا له يسألون :

« بمن يا أمير المؤمنين ؟ .. »

« بابنة على بن أبى طالب » .

فأقبلوا عليه جميعا يهنئونه وراح هو فى غمرة فرحه بتحقيق مبتغاه يقول :

« ان النبى قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة الا نسبى وسببى .. وكنت قد صحبته فاحببت ان يكون لى هذا ايضا » .
وكان له ما اراد من اللحاق بنسب رسول الله . فلم يكد يعود الى منزله حتى كان على قد امر ببرد فطواه وقال للصبية :

« انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين فقولى : ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه ، وان سخطته برده .. »
وسارت ام كلثوم كما امرها ابوها وهى لا تدرى المعنى الخفى فى رسالته .

واستأذنت فاذن لها ، فادخلت الى الخليفة والقت امامه بالكلمات التى لقنتها :

وقال لها عمر :

« بارك الله فيك وفى أبيك .. قد رصينا » .

فعادت من حيث أتت حتى اذا سألها ابوها سارعت تجيبه وقد غلبتها الدهشة :

« ما نشر البرد يا ابت ، ولا نظر الا الى ! .. »

فتبسم لها ضاحكا ، وراح يعد لها ما يهيئها لحياتها الجديدة .

٨

حق لقريش بهذا الزواج ان تتهيب موقفها .. فى خواطرها تجسم خطر بنى هاشم ثانية وفى أخلادها جرت ظنونها بعودة ما حسبته غاب عن حياتها فى قرار سحيق . وقد كان أولى بالاتساق مع تفكيرها ان ترى ان نجم على أخذ فى الاستعلاء بأفق السياسة من جديد ، وأن السحائب التى ظللته طوال الأعوام السالفة ليس تبديدها بعضى على اصابع ام كلثوم . ولئن برز ابوها فى الجامع بعلمه ، وسبق اكابر رجالها بأشواط ، فحوى بالنسب الجديد ان يوطد قدمه ، ويدفع بغيره من الطامعين فى الخلافة بعد عمر الى ما وراء الصفوف .

ولكنها فى الحق ظنون استحدثها الوهم ، وخواطر اوحى بها غاية
الغايات التى استهدفتها القوم . . . وقديما قر فى نفوس قريش على
بنى هاشم شىء ما زالت تجرص جاهدة على ان يثبت فى اخلادها
ثبوت الاطواد ، وان تظاهر غايتها منه بكل سلاح وان كان سلاح
الخيالات والظنون .

هذه مخاوف لا يحسبن امرؤ ان قد برئت منها نفوس الاكثرين
من اولئك الرهط فى ذلك الحين ، وهم عند الاعذار ليسوا على اى حال
بمعلومات . فكلهم رجل اعماه الحقد حتى ليتسمع دبيب النملة فى
الغاب الملىء بالمجيج والزئير ، او يتصيد الحبة ثم يبرزها قبة ليشبع
رغبته من التحوط والاحتراز . . . او رجل آخر غرير ليس بالنافذ
العين فى اغوار الناس قد استغلقت عليه نفس بنت ابنى طالب ونفس
زوجها ابن الخطاب . . . وكلا هذين الصنفين من الرجال سيطر على
اذهانهم نبأ قديم سرى بعيد وفاة رسول الله على الألسن ليسوا اليوم
يخشونه لذاته ، فقد جاءت وقائعه لهم بالخير ، وانما يخشون ان يعود
آخر مثله الى الظهور بعد حين ، مؤذنا بزوال غايتهم المرتجاة . .
فنتائج الاحداث تعرف بقياسها على السوابق من الاشياء .

قد كانت قريش جد آمنة على غايتها التى ٧ تعود دون الابتعاد
بسلطانها عن اليد الهاشمية لولا ان بدا ذلك النبأ القديم يحلق ثانية
فوق الرؤوس ، ويمد خطمه من الماضى صارخا بما تستطيع امرأة ان
تفعله فى تشكيل مصير امة وفى اقرار أداة حاكمة عليها دون أداة .
ولم يكن خافيا اذ ذاك مدى سلطان عائشة فى بيت محمد ولا قربها
من قلبه حتى ليزعم البعض - او يحمدون لها - انها فى فترة مرضه
الاخيرة بذلت وسعها ليمرض فى بيتها دون بيت ابنته ، ثم بذلت
وسعها لتسير الاحداث من بعد على النسق المأمول . فلقد كاد ان يغيب
عن المدينة ابو بكر فى طريقه مع جيش اسامة الى الشام لولا ان لحقهم
رسول بالجرف يحمل نبأ اشتداد وطأة المرض على محمد ، ولم تكن
عائشة وحدها صاحبة الامر بانفاذ ذلك الرسول ليستعيد شيخ بنى
تيم وصاحبه عمر ، وانما جرى الخبر بأن الرجل كان رسولا من لدن
نساء النبى بغير تحديد ، وهن على اى الحالات صورة مكررة للمرأة ! .
وبلغت الوعكة برسول الله بعد هذا غايتها ، فتلقت فيمن حضره

وقال :

« ابعثوا الى على فادعوه .. »

قالت عائشة :

« يا رسول الله ، لو بعثت الى ابي بكر .. »

وسمعت حفصة فسارعت هي الأخرى تقول :

« .. لو بعثت الى عمر .. »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه بعد قليل فأجال فيهم بصره ، ولم يلق اليهم بما عساه كان يريد الادلاء به الى واحد منهم دون صاحبيه وانما اشار لهم وقال :

« انصرفوا .. فان تك لي حاجة ابعث اليكم » .

وانتهى الأجل ..

ذاك كان النبأ الذى حلق فوق رؤوس قريش بعد أن بنى عمر ابن الخطاب بأم كلثوم ، وانه لنبا يحمل فى طياته ما تستوعبه عين عابرة وان انطوى على كثير من الخطر لدى الذين يشاءون التأويل . فلقد حالت كلمة امرأة دون غاية لعلها اوشكت ان تكون وانجبت غاية كانت بعيدة حتى ذلك اليوم عن الأخلاق والظنون . ولمن أبى أن يقر هذا المنحى من التفكير ان يرسم فى خياله صفحات التاريخ على نسقها المنتظر لولا رسول نساء النبى ثم لولا الحيلولة فى اللحظات الأخيرة بين محمد وبين على .

جرى هذا فى خاطر قريش حين دخلت ام كلثوم بيت عمر ، وتهيبوا أن تقع مثله عند ما يآزف الوقت ، ويدعو داعى الموت امير المؤمنين للاستخلاف . ولئن لم تستطع عائشة من قبل أن تعمل بطريقة فعالة على أن يخلف زوجها أبوها ، ووقف بها دورها عند حد معلوم ، ففتاة بنى هاشم اذن طريقها معبد الى الهدف الذى ظنوها ترجوه ، ليس يحده حد ما دمننا نعلم البون الشاسع بين شخصيتى الزوجين كليهما أمام امراته ، ونعلم لأولهما طبيعة بشرى يحوطها عن النزوات سياج من عند الله ، والثانى نفسا تميل مغ الهوى ما وقعت فى يد امرأة تحكم التدبير وتجيد التأثير .

ومع ذلك فان أولئك الذين تهيبوا الموقف كانوا حقا يسرون فى ركاب الخيال . فلم تكن ام كلثوم سوى طفلة غير ذات دهاء ولم يكن عمر سوى امرئ خشن لا تغلبه مراوغات النساء ، وفى حياته كلها كان أقرب الى البغيض اليهن منه الى العنيف المرهوب ، حتى

ليعد عليه انه فارق من تزوج بهن فى الجاهلية وطلق الكثيرات بعد الاسلام .. وكانت النسوة المسلمات - على الاطلاق - ان لم يكرهنه - يرهبنه ، والاثر بهذا بين ؛ حين دخل ذات يوم على رسول الله وعنده نسوة يلغظن بالحديث ، ففررن لدى دخوله وتركن له المكان .. وساءه منهن هذا الفرار فصاح :

« يا عدوات أنفسهن .. اتبهننى ولا تهبن رسول الله ؟ »
فلم يفت النسوة ان يتارن منه فجاءه على السنن الطويلة
الجواب خشنا بلا مواربة ولا اخفاء :

« نعم .. انت اغلظ وافظ ! .. »
واللائى عرفنه من النساء وطمع هو فى ان يسكن اليهن بالزواج ،
ابين عليه لم يشفع له لديهن سلطانه ولا ائتمار ائتى الرجال واقواهم
جاها وسطوة بأمره . وحسبك ان تطوف بمجلس عمر لتعرف كيف
كانت هيبة الرجل حتى فى قلوب من كانوا من قبل يبزونه نفوذا ،
وما زالوا يعلونه بالحسب العريض .. ولعلك ملاق هناك أبا سفيان
ابن حرب كبير قريش جالسا خافض الراس لا ينبس وابنه اللصيق
به زياد قد تحدث وهو بعد غلام ، فأحسن الكلام ، حتى ابدى على
اعجابه فقال :

« لله هذا الغلام ! .. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه .
ويتلفت أبو سفيان يحذر ، حتى اذا أمن عين عمر قال هامسا :
« أما والله يا أبا الحسن لو عرفت أباه لعرفت أنه من خير أهلك »
وكان نسب زياد مجهولا فى ذلك الحين فقال على :

« ومن أبوه ؟ »

« أنا .. وضعته والله فى رحم أمه ! »

« فما يملكك من استلحاقه ؟ »

فنظر الشيخ صوب عمر ، وقال بصوت لا تكاد تلتقطه اذن جاره :
« اخاف هذا العير الجالس ان يخرق على اهأبى ! .. »

.. فاعجب اذن لهذا السلطان المستطيل كيف لا يستهوى المرأة ..

وكيف - وقد حاد عن هواها أو حادت بهواها عنه - تعصيه
ولا تخشاه ، لأن لها على نفسها السلطان الذى لا يصل اليه سلطانه ،

ولاتها وزنته - بطبيعة المسلمة - حاكما فأكبرته ، فلما وزنته - بطبيعة المرأة - زوجها ، أبته وانكرته ..

ارسل ذات يوم من لدنه رسولا الى ام ابان بنت عتبة بن ربيعة يخطبها له ، فكرهت لنفسها المقام عنده زوجة وردت رسوله وهى تقول :

« كلا ! انه ليخلق بابيه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ويخرج

عابسا .. »

وكذلك فعلت ام كلثوم بنت أبى بكر حين خطبها وقالت :

« لا حاجة لى فيه .. »

قالت لها عائشة وهى تعجب :

« ترغبين عن امير المؤمنين ؟ »

« نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وان رجلا هذا نحوه لعصى على امرأة ان تقوده او تسدد خطوه الى هدف شاءته ، لان طبعه كفيل بأن يضع كثيرا من الحوائل بينه كرجل وبين امراته كزوجة .. ناهيك عن عراقيل السياسة ذات الدروب الملتوية التى تضل فيها النسوة الدهاة فضلا عن الفتاة .. ثم دعنا نسال - وان بلغ رضاء عمر على بنى هاشم وملاينته لهم الشاو والذروة خلال عهده - ان كان قد استطاع ان يخلع عنه قرشيته فلا يكون على سجية قريش ، ولنا بعد هذا ان نقرأ الجواب فى وصية ابن الخطاب .



عندما أقبل كعب الاحبار بلقى الى عمر بمكنون علمه ، لم يبد على اليهودى القديم الا كمسحة القموض على أسارير منبىء بالغيب ولم يبد على امير المؤمنين الا الريب ..

قال له كعب الاحبار :

« يا امير المؤمنين اعهد .. »

فبانت البقعة فى عيني عمر وبان الأتكار وهو يهتف بالرجل :

« اعهد .. »

« نعم فانك ميت بعد ثلاث » .

« وما يدريك ؟ »

« أجده في كتاب الله : التوراة » .

فضحك عمر ضحكة كشفت عن بهخره وريبه في نبوءة صاحبه
وفى علمه وقال بلا اكتراث :

« انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! »

« اللهم لا . ولكنى أجد صفتك وجليتك » .

ولم يلق الأمير بعد هذا بالا الى الحديث . ولم يعن في الحين بأن
يتثبت من صدق هذا اليهودي القديم ، وتأوله على السفر القديم
أو زعمه النطق بما جاء فيه . ومضى لشيأته من الفراغ لشيئون الدولة
وشيئون المسلمين ، قويا موفور الصحة كعهده ، لا يكاد أن يتوقع له
أحد قرب حينه .

ومع ذلك فقد كانت في الأفق سحابة لم تخف عن عين عمر ، وكان
جديرا به غب هذا الحديث أن يخشاها . . ولكنه كان رجلا قويم
الايمان ، شديد الوثوق في الله ، راسخ اليقين في أن المجهول الذي
سوف يصيبه لا بد سيصيبه ، فإذا بدا له من وراء هذه السحابة
الدكناء التي تظل رأسه وجه أبي لؤلؤة فيروز ، فقد أمن أذن الشر ،
ما دام عدله المشهور وسع كل الناس وأرضاهم وإن أسخط بالأمس
- في لحظة غضب وتذمر - هذا الغلام المجوسى المتبرم بما وضع عليه
من خراج .

على أن هناك أمرا كان أولى بالتطير وخوف انصير الفاجع لو أنه
سمع بنبوءة كعب الأحبار . ذلك كان عبد الرحمن بن أبي بكر وقد مر
ليلة اليوم الذي طعن فيه عمر بالهرمزان وفيروز وجفينة غلام سعد
ابن أبي وقاص حتى إذا قاربهم ، رأى خنجرا له رأسان نصابه في
وسطه ، يسقط منهم . ولم يكن الأمر إذ ذاك مما يثير ظنة إلا أن كان
في اجتماع ثلاثة نفر من الأعجام بمنحى ما يبعث الشكوك . ولكن
الليلة لم يطلع لها صباح حتى كان أمير المؤمنين موسدا بفراشه ،
بعد أن أصابته جراح قاتلة من خنجر نصابه في وسطه وله رأسان . .
لم يكن عبد الرحمن قد سمع بنبوءة كعب الأحبار حتى يتحوط
للحدث قبل وقوعه ، فلما دهم الرزء سار يشكه الى عبيد الله بن عمر ،
وقد كان حريا بعبيد الله أن بغضب لأبيه ، وأن يبلغ الشك عنده

يقينا ، وان ينقلب موجدة على أولئك النفر الذين حومت حولهم الشبهة . وزاد من لصوقها بهم - فى وهمه - انهم أمير فارسى سابق اعتنق الاسلام ورأسه تحت حد السيف ، ومملوك مجوسى نقم من عمر ابقاء خراجة باهظا ولم يرفعه ، و غلام آخر اجنبى يدين بالمسيحية جىء به أسيرا من الحيرة ، وكل الثلاثة لعل قلوبهم لم تخل من حقد على الرجل الذى داست جيوشه بلادهم واوطأتها العبودية .

ثم هلا كان أولى بأن يكون الأمر كله اقرب الى المكيدة المدبرة لو نظرنا بعين التشكك - كما نظر عمر - الى حديث كعب الاحبار المزعوم عن ورود نبا المصرع الوشيك فى التوراة ؟ . هذه ريب تميمية ان تلصق بالرجال الاربعة جميعا ثم قد تدع رابعهم عارفا بالحادث قبل وقوعه ، فمحاولا ان يلبس به ثوب العليم بالغيب النافذ البصيرة الى اطواء المجهول ، عسى ان يستطيع نفوذا الى بعض النفوذ ، ويكون له من ورائه عليها سلطان ! .

ولقد غالب عبيد الله بن عمر ما فى نفسه اياما ، فلما قضى ابوه ، مضى مشهور السيف يجذ الرقاب . . قتل ابنة فيروز بعد ان سبقه غيره الى صرع القاتل ، وقتل جفنة والهرمزان فكان هكذا موتورا ركب غاية الشطط فى الاخذ بشأه . لأن الظنة وحدها تدرا الحد ولا تدعو اليه ، ولأن البيئات على جرم أولئك النفر كانت معدومة .

اما كعب الاحبار فقد بقى معافي لم يمسه شر ، بل لقد بلغ مكان الصدارة فى مجلس الخليفة التالى او كاد ، لا ينساه فى مشورة . . واما ابن عمر فقد أمسك ليرى فيه أمير المؤمنين الجديد أمره ، ثم لم يعد قضاؤه فيه ان أطلقه ولم يأخذه بدم احد ضحاياه تلوما من قتله ظلما بعد مصرع أبيه مظلوما . . والذين يلتمسون المعاذير لصاحب هذا الحكم ، قد يأتون منها بالاحاد او بالعشرات ثم يعوزهم بعد هذا أن يروه قضى بسرعة الانصاف !

وهكذا بدا عثمان بن عفان عهده بالتحيز لان طيبة قلبه غلبت على الاعتصام بالعدل المفروض في الامام . . هذه الطيبة التى كانت دائما آفته وما زالت تستشرى كلما تقدمت به السن فتميل به رويدا عن جادة الحق حتى أوردته حتفه .

وحمل ابن الخطاب وهو ينزف من المسجد ولما يبدأ صلاته بالناس .
وكان واهن القوة لكثرة ما سال من جراحه الستة من دماء . ووسدوه
فرشه وهو ينوء وقد تجمعوا لديه ذاهلين . أما هو فقد استطاع ان
يجيل بصره فيهم آونة حتى يقع على خير بنيه فيقول له :

« يا عبد الله بن عمر .. اخرج فانظر من قتلنى » .

وكان الناس فى المسجد قد أسروا القاتل بعد أن أصاب منهم
قتلى واثخن الجراح ، وحملتهم ثورة غضبهم لخليفتهم وحرمة بيت الله
أن يقضوا سراحا على العبد الزنيم .
وعاد عبد الله يقول لأبيه :

« يا أمير المؤمنين .. قتلك أبو ثلوة غلام المغيرة بن شعبة » .
فرفع ابن الخطاب عينيه الى السماء وقال وقد لاحت على وجهه
علائم الرضا والاطمئنان :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة
واحدة » .

ذلك أنه كان يخشى أن يوسم باتيان ما قد يقتله به مسلم هداة
الاسلام فعرف حده وعرف حقه وحق ربه على أميره ، أما وقد علم
أن المصرع جاءه على يد أبى كافر فهنا الرضا عن نفسه ، والتسليم
بعده للموت قرير العين مرتاح الضمير ..

ولم يبق له غيب هذا الا ان يخنار الجوار الذى لا بد لائده به بعد
قليل ، وأن يطمئن على مثوى جسده بعد أن طابت نفسه بمصير
روحه الموكول برحمة الله : وكما كانت غايته إبان الحياة أن يلوذ بنسب
من الرسول الكريم يشرف قدره ، فكذلك كانت غايته وهو بهم أن
يستدير الدنيا ويستقبل نصيبه من التراب ، فليس أشهى اليه فى
كليهما ، ولا أحب الى قلبه من جوار رسول الله بالصهر وفى القبر ..
ونادى عمر ابنه ثانية :

« يا عبد الله .. »

« لبيك ! »

« اذهب الى عائشة فسلها أن تدفن مع رسول الله .. »

١٠

« لولا رأى أبى بكر فى عند مونه لاعاد امركم اليكم .. »
يا ترى قد ذكرها عمر اليوم وهو يحس الموت يزحف اليه من
خلال جراحه ؟ ..

ما كان حريا بالرجل ان ينساها لحظة واحدة ، وخاصة وقد وقف
الآن الموقف الذى يجب عليه فيه الاستخلاف . وما كان له ان ينساها
وقد سمعه من صاحبه قبله ، ثم اسمعها في ذات يوم ابن عباس .
وما كان له فوق هذا وذاك ان يغيب عن ذهنه قدر على وصفته ،
وقد بدا له - من بين صحبه المتجمعين حول فراش موته - وجهه
وسمته .. ذاك ان لم يجد فى قرابة ابن عم رسول الله موجبا للتقديم
بغير ما يوجب التقديم .

ولكنه سمع واسمع ، ثم رأى مع هذا ان يأتى بخلاف ما اقر به
من قبل ، وان يدع الظلم - الذى وسم به قريشا اذ نحت ابن أبى طالب
عن خلافة رسول الله - فى مكانه حيث كان ، لم يمحه ، ولم يبدل منه
لانه ظل حتى الموت قرشيا من غلاة القرشيين بعير كثير تبديل . ولم
اعتذر للرجل بأنه خشى - ان هو أوصى بعلى - ان تنتقض قريش
وتأباه ، فعنده اذن الجواب بأنها قبلت كارهة من أبى بكر ان يوصى
لعمر ، ولم تنقلب عليه ولها العذر الحاضر للانقلاب مرشدة ابن الخطاب ،
ومن بيته بين ييوتها اذا هى وزنته بميزان الاحساب ! ..
قيل له وهو مهيض :

« يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت » .

فتفكر مليا فى الامر ثم اجاب كأنما يشاور نفسه :

« ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وان اترك فقد

ترك من هو خير منه .. »

ثم التفت الى محدثه ، ولمن حضره من الصحاب . وقال بنبرة
الأسف :

« لو كان أبو عبدة حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى :

سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة .. ولو كان سالم مولى

ابى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول
ان سالما شديد الحب لله . . »

فهلا ذكر اذن - فى هذا المقام - قليلا من الكثير الذى قيل فى
ابن ابى طالب على لسان رسول الله ؟

انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ابن عباس ،
ثم ذكر الى هذا وذاك قدر على - لا كما جرت به سيرته على شفاه
محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذى يعطو به على الآخرين
ولكنه ايضا ذكر السياسة العليا التى استنتها لنفسها قريش ، وكان
اما مترسما لها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى
ترسمها فعدها - فى كلا الحالين - التوفيق ، ولم يلتزم النهج الاقوم .

وتقدم المغيرة بن شعبه اليه يهمس :

« اشير يا امير المؤمنين ؟ » .

« أسرع » .

« ول عبد الله بن عمر » .

فرمى اليه مسرعا بنظرة كالشهاب وصاح فيه :

« قاتلك الله ! والله ما الله اردت بهذا الامر . اتشير على برجل عجز

عن طلاق امرأته ؟ . . »

وتلفت الى الحضور يستاتف خطابه :

« لا ارب لعمر فى خلافتكم . ما حمدتها فارغب فيها لاحد من اهل

بيتى ، ان تك خيرا فقد اصبنا منه ، وان تك شرا يصرف عنا ، وحسب

آل عمر ان يحاسب منهم واحد ، لا ها الله ! . . »

وكان الجهد قد اصاب منه فوهن واغمض عينيه ، ولم ير الناس

بدا من التفرق عنه لساعة صحو - فتركوه .

الا منذ ايدرى كيف مرت بعد هذا به اللحظات ؟ ، لا ريب لم تطرف
عين خياله لحظة واحدة عن التجول خلال أمته ، وعن استكناه شأنها ،
وعن تصور الأحداث كلها التى مرت به حتى الخنجر . . وهو قد كان
جديرا بأن يستشعر الرضا عن اعماله وجهوده لرفع هامة الاسلام .

ولكنه الى ذلك كان جديرا بأن يرهب المستقبل على أمة محمد من بعده فاني لغيره أن يسوس الدولة الناشئة ويرعاها ، كأنما يمسك الناس فيها بزمام ؟...

طبيعى أن يمر كل هذا وكثير غيره بخاطر عمر ، وأن يراوده أبان الساعات القلائل التى فصلت بينه وبين حفرة . وأن يعاوده أمره مرات فى يقظته هما وفى غيبته حلما .. والمسؤول بنىء لا تنام عنه عينه ولا واعيته ، ويظل دواما عالقا به حتى يقضى . وكانت الفيرة العمرية على شأن أمة الاسلام أرهف الحواس عند ابن الخطاب ، وكانت هى رائده فيما صدر عنه من أعمال حتى تلك التى لم يجنبه شططا ، وأنتك لتستطيع دائما أن تجد عذره حاضرا أمامك لو أحصيت عليه أخطاءه القليلة ، لأنك أن رددتها الى أصولها يدت لك غيرته على مستقبل بلده من وراء كل أصل . ولبس موقفه من بنى هاشم حين تأمر أبى بكر ببعيد عن الأذهان .

ولقد ظلت هذه الفيرة - المحموده اذ تظاهر هدفا عاما - تنمو فى نفسه مع الأيام وتزيد شدة ، لا يهدىء من تأجج نارها تقدم سنه ، يل يرفع لهبا ويسمره قوة شعوره بواجبه ، وأنه كان مع نفسه عسير الحساب . وما من رجل يمكن أن يقال فيه قد فتر حماسه لتسويد أمته وهو القائل ، كما قال ابن الخطاب :

« والذي بعث محمدا بالحق . لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن أسأل عنه » .

رجل هذا منطقته : وهذه غيرته على الأنعام ليس بعجيب منه أن يقول فى شأن الدولة أنتى أظلمها حكمه :

« لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فاني اعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . أما عمالهم فلا يرفعونها الى ، وأما هم فلا يصلون الى .. » ولكنه لم يعش ليفعل ما أراد ويقسم العام سواسية بين أقطار الدولة ليرى شئونها بنفسه ، وحيل بمنيته دون أمنيته . وأنه اليوم وهو طعين مهيض تنزف الحياة من ثقب جراحه مع دمه المسفوك لأشد غيرة على الرعية من قبل لأنه أشد شعورا بمسئوليته أمام الله ، والقبر موشك أن يفغر فاه . وأحسبه أبدى وأعاد ثم أبدى وأعاد فى خاطره اسم الامام المرجو من بعده . وفى حياته كانت له عين فاحصة وبصيرة نفاذة علم بهما أى الأعواد أقوى وأشد صلابة من بين

اولئك الذين تركوه منذ قليل . ولكن نفسه فيما يبدو ، كانت نهبا ،
تتنازعها عواطف وعوامل شتى تعيب بها نفس سليم صحيح . تأرجحت
به الى يمين تارة ، ثم الى اليسار اخرى ، ثم تكرر الجذب مرارا بين
هذا وذاك ، وهو بينها كالقارب يتداوله اصطفاق الموج .
ودخل عليه الناس وقد عاوده الصحو .
وقيل له :

((لو عهدت يا امر المؤمنين ...))

فحضره ما كان بينه وبين نفسه فى وحدته ، وترث برهة ، ثم
رفع عينه الى القوم واصبعا الى على وقال :
« قد كنت اجمعت بعد مقالتي أن اولى امركم رجلا احراكم ان
يحملكم على الحق .. »

ولم يلبث أصبعه المشير الى على ان سقط ساكنا الى جواره ،
وصمت ، وأغض بصره . ولكنه ترك ابصار الناس تتحدث في صمت ،
والسنتهم تتحرك بلا صوت ، وقد اتجهت نظراتهم الى فتى بنى هاشم
الذى لم يخلج محياه .

وعاد عمر يتم حديثه وفي نبرانه وهن وتخاذل :
« ... ثم رهفتنى غشية ، فرايت رجلا دخل جنة فجعل يقطف
كل غضة ويأمنه فيضمها اليه ويصيرها تحته .. فخفت ان اتحملها
حيا وميتا ... »
واسلم نفسه ثانية للصمت .

فما أسعدها غشية رهقت عمر بعد اجماعه اثرأى على تولية ابن
أبى طالب ، وما أسعده حلما تنلج به صدور قريش ! ... ان الرجل
أول رؤياه - ان لم نقل على قدر عاطفته فعلى قدر معرفته . ولكنها
المعرفة بالتأويل دون البرهان والدليل . فليكن ابن أبى طالب كيفما
كان . وليبعد عن تولي مقاليد السلطان . وليأت من كرهوه بالأسباب
والمعاذير لا قصائمه عما أهله له خصائمه ، ثم لسوف يعجزهم أن
يجعلوا الاثرة التى الصقها به حلم ابن الخطاب أحد هذه الأسباب ! ..
ومع ذلك فمتى كانت الاحلام - وان أنبأت بالأحداث - تحدد
تاريخ وقوع هذه الاحداث ؟ وكيف غلب على ظن عمر أن رجل جنته
تلك هو على وليس آخر سواه ؟ .. ثم أين بعد هذا حلمه عنه من
علمه به ؟

ولكنها رؤيا اولها ابن الخطاب على قدر معرفته بالتأويل ، وحبس بها الحق عن صاحبه المجلى بين الناس ، والمؤيد بألف دليل . ولقد يستطيع من شاء أن يغفر لعمر تأويله فلا سلطان له على حلم سرى اليه ابان غشية ، ولكنه لن يستطيع ان ينفى عنه انه قرشى كأولئك القرشيين ، استبدت به عاطفته كمثلمهم ولو عن غير وعى . لاننا نعرف ان الرؤى والاحلام ليست سوى وسيلة للتنفيس عن المشاعر المختزنة في النفوس ! ..

١١

ضاع العلم في طوايا الحلم ! .. ففد أوصى عمر حسبما شاءت رؤيا وشاءت حافظته وان لم تشأ معرفته وتجربته . وذهب كل ما خبره في ابن ابي طالب بددا ..

ولم يكن الرجل - وان أوصى - قد اختار ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الأمر في ستة نفر من أصحابه لن تعدو الخلافة أحدهم بحال ، ثم ترك لهم وحدهم ان ينتخبوا امير الاسلام .

ومع ذلك فمتدا يستطيع ان يقول انه لم يحدد موقفه اذ ذاك من على غاية التحديد ؟ ولم يقطع - بالتلميح دون التصريح - عليه الطرق الى ولاية الناس ؟ ولم يدل بدلوه مع الدلاء التي أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود ؟ ان الرجل لم يناد صراحة باقصاء على عن الامارة . ولكن وضعه اياه مع أولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذي اختيروا له . وما أحسبه الا واضحا ما سوف تخسره قضية على بهذه المساواة ! ..

ثم دعنا نستعرض أسماء أولئك الأنداد ونعرف أين مكانهم من صفوف ذوى الأحقاد ... ما من ريب في أن ظلالة من الحسد قد لغتهم أو أسرهم أو قروعا منها . وليكن خيرهم لعلى - وقد أدخلنا الانساب في الحساب - ابن عمته الزبير ، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خيره له الا مشوبا بالغيرة منه . وموقفه في الماضي من على مذكور معروف . وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف ! ..

لقد الب عمر - عامدا او بغير تدبير - على سليل هاشم احقاد قريش . وكتب له - اذ اودع السورى اولئك الخمسة - مصيرا مآله الفشل* . ومن لعل برضا بنى تيم بعد أن نافس شيخها ابا بكر وغالبه غب وفاة الرسول على ولاية الأمر ، وهذا طلحة التيمى له رأى الآن فى الانتخاب قد يستغله فى الشار ؟ . . . ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بنى هاشم من قلوب اصحابها بعد أن ظلوا أجيالا يربون هذه الأحقاد فى قلوب الأبناء والأحفاد عسى أن يثار ذات يوم سليل لامية من سليل غريمتهم الهاشمية ؟ . . . قد كان يكفى أن تجمع شورى عمر بين على وبين التيمى طلحة والأموى عثمان ليبوء أول نلائتهم بالهزيمة والخسران ! . . .

ولكننا نرى عهد الخليفة الطعين باديا فى صورة من الامعان فى تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن ابي طالب . فلقد ضمت الشورى ايضا سعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ، ولكليهما نسب موصول ببنى امية اتى الأول من ناحية أمه . حمنة بنت ابي سفيان ، وأتى الثانى من ناحية زوجه أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان . فاذا علمنا هذا ، فماذا بقى بعده يدع لعل فرصة واحدة للفوز ؟ . . . واى بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته فى آن ؟ . . .

وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء الى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب ! . . .

وخرج اصحاب الشورى من لدن الشيخ الجريح بوجوه غير التى دخلوا بها عليه ، فى قلوبهم ألوان تباينت من المشاعر ، وفى نفوسهم أهواء شتى تصطبخب وتتلاطم وكل له هم سوى هم أخيه .

وكان الناس عند الباب فى جموع تنتظم الكبير والصغير ، قد تدافعوا ينظرون الرجل الذى ظنوا أن انعقد له اللواء . ولكن الأمر يدا كان لم ينضج ، وتعلقت آلاف العيون المتطلعة الى ذلك الربة الضخم وهو يسير اليهم كما ينحدر السيل . وبدا لهم وجهه الأسمر النبيل ، وقد انحسر ما كان من شعر يتوجه فى الماضى عن جهة يتحدث فى سعتها الدكاء . ونطقت عيناه ببسمة حنان تغشاها أسى وشاه الاستحياء . وهفت القلوب اليه ، ولكن هيئته أوحى لهم باصطناع السكون وكبت ما يضمرونه من حب مكنون . ولكنهم انطلقوا

نحوه مكشوفى العواطف تحت نقاب النظرات الرقيق ، فأولئك العامة كانت نفوسهم أصفى من أن تعرف المראה وأنقى من صفحة مرآة .. لم تفسدها الأغراض ولم تشبها ، بل كانت ان كرهت* فله ، وان أحبت فله ..

تكاثت عليه الجموع وكلها مستضعف وزاهد وفقير .. ولئن تباينوا بين عبد وحر الا أنهم فى الحرمان كانوا سواء : هذا لا يملك ما يملأ معدته ، وذلك لا يملك ان يفك رقبتة ، وانما الفت بين قلوبهم عاطفة الاكبار والاخلاص لابن عم الرجل الذى جعلهم ناموسه فى صف واحد مع أعلى الناس .

ولم تكن العاطفة وحدها هى انتى الفت بين قلوب الشعب على هذا الرجل الضخم الأصلع القصير ... لقد أحبوه حقاً بحبهم رسول الله ، وقربوه الى نفوسهم لقربه منه . ولكن سجايا له ظهرت هذه العاطفة فى قلوبهم ومكنت لها ، وخصالا رفعت فى أعينهم كما رفعت ابن عمه الكريم ولما يهبط عليه وحى من السماء . وان الكثيرين منهم ليدكرون عليا من مهده فلا يستطيعون الا اكباره فى كل مراحل حياته ، ويحصون المحامد فى الناس مجتمعين ، ولا يسعهم الا جمعها له منفردا ، ثم تبقى له بعد هذا صفة واحدة جديرة بأن توليه عطفهم الخالص ، هى أنه مظلوم بأنداده ، محروم من ترائه الذى كان له اهلا منذ أكثر من عشرة اعوام ، وكفى بهذا الحرمان صفة تؤلف حوله قلوب أولئك الذين ذاقوا فى حياتهم مر الحرمان .

ومضى على صامتا فى زحمة الناس وهم يتهيبونه فيه غضبة ليث مشى على عرينه غريب . وكان ألمه باديا نى عينيه ، وغضبه قد نم عنه هذا العرق الضخم الذى نفر فى جبهته يكاد أن ينبجس منه الدم . ثم لم يلبث الزحام أن تفرجت صفوفه ، وانشر عن شيخ اشيب مهيب يشق طريقه بين الناس ويوسعون له نهيبا لقدره ... حتى اذا أصبح من ابن أخيه قيد خطوة استطاع ان يسمعه يهمس :

« يا لله وللشورى !... »

فتوجس العباس . وهتف به يسأله :

« فما العهد يا أبا الحسن ؟ »

« جعلها فى جماعة زعم انى أحدهم ... »

وبان الألم فى عينيه .. ولم يفه العباس بحرف كائما قد بغته

ما سمع . ومضى الى جوار ابن اخيه يسمع منه نبا الشورى ولا يملك ان يميظ الدهشة عن نفسه . . قد كان هذا اليوم اولى الايام بعودة الحق الى صاحبه بعد ان عرف الاسلام طريقه الى النفوس ، واستقر فى القلوب اعواما كفيلة بأن تنسى الناس عصبية الجاهلية ، وتميت الاحقاد القديمة التى نوارثوها . ولكنه الآن علم انه احسن الظن بطبيعة البشر . . وتكررت للمرة الثالثة امام عينيه نفس الصورة التى بدت له عند وفاة الرسول . وظهرت قريش تماما كعهدها الاول ، حاقدة ناقمة على بنى بيته وبيت آبائه ، متربصة لهم تتحين السانحات . . . وليس اختيار دينكم الرجلين تباعا بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الاحقاد . .

وزفر على تبرما وهو يذكر ما فات ، ثم قال باستنكار :
« متى اعترض الرب فى مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر ! . . . »

اجل متى اعترض الرب فيه مع اول الخليفين ! . . الا قد كان جليا غاية الجلاء لكل مبصر ان ابن ابي طالب وشيخ بنى تيم لم يكونا على سواء ، وان الهاشمى الصغير كان اذ ذاك اولى بالامر من ابي بكر ، لولا تدافع الاحداث مرة ، والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات ! . . ولقد مرت بأول الرجلين فترة اراد فيها ان يستقيل الناس بيعتهم . ثم فترة اراد فيها ان يرد الامر مختارا الى ذويه ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة رأى رايًا فى رجل هو بدوره فى اللحظة الاخيرة رأى رؤيا . . فكان الذى كان ! . .

وهز العباس راسه هنيهة يتفكر ، ثم قال وفى صوته نبرة عزم :
« يا بن اخى . . لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم »

وصمت . وتفرس على فيه يرقبه ثم اطلق لذهنه العنان يعمل مسرعا على استيعاب فكرة شيخ بنى عبد المطلب الرشيد . . قد كان رايًا كفيلا حقا بأن يضعه موضعه الحق على راس اهل الشورى الذين يعلوهم هو ولا يعلونه ، ولن يكون متجنيا على الواقع لو جاهر بأنه يأبى أن يكون واياهم على سواء ، وأنه يتوقف عن الاشتراك فى الشورى ، لانها مظهر وضع من قدره اذ سوى بينه وبين غيره . . ولكن ماذا عساه سيفيد من وراء هذا التوقف ! . . وهل ان رفعه درجة فى عيون مريديه لن يثير عليه حفيظة نفوس اناس سيرون فى

توقفه تعاليا وصلفا ؟.. ومنذا يملك من كل هذا الشعب ان ينصره
ويؤمره بعد وصية ابن الخطاب وتحديده من لهم حق الانتخاب ؟..
ثم هلا كان توقفه ادعى الى اسنجلاب نقمة اهل الشورى عليه - وهم
الذين يملكون وحدهم ان يبرموا الامر دونه ويثأروا منه بتأمرهم
واحدا من بينهم سواء ؟..

لذلك حزم على أمره ، وقال برد فكرة العباس ، ويتوسل في
ابائها بأرفق جواب :

« انى يا عم اكره الخلاف .. »

فتلفت الشيخ نحوه مهموما ، وقال بحرارة :

« اذن ترى ما تكره !. »

ثم مضى عنه بهمه وألمه .

١٢

لم يغب مغزى كلمات العباس عن ذهن على ، بل ان هذه النبوءة
جرت في خاطره قبل ان تجرى كلاما على لسان الشيخ ، وعلم ما
حقه من الضياع منذ اللحظة التى كان الجريح يذكر فيها أسماء
الذين حصر فيهم الامر ...

كان هذا واضحا غاية الوضوح بلا حاجة الى اعتساف دليل
او سماع قول صريح يدلى به الخليفة الطمين . ولئن كان عمر قد
ذكر ابن ابي طالب بين أصحاب شورا فانه فعلا قد أقصاه ، وبحسب
المرء أن يتبين الأنساب ليعرف حقيقة الجواب !..

ولكن عليا أثر أن يتناول الامر بالرفق والتريث ، ولم يشأ أن تتولاه
بالعنف الذى اراده عمه مخافة ان يرميه خصومه بحب الخلاف والصلف
والاستعلاء ، او ان يتهموه - على احسن الفروض - بالعجلة والقفز
الى الخواتيم قبل ان يثين وقتها المفروض ... هذا لو كانت فى
نفوسهم حياله بقية لاحسان الظنون .

قر اذن فى فهمه ما سوف يكون وبان لبصيرته ما يرجون ..
لا خطرة من نفوسهم تغيب عنه ، ولا ظن يميل به عن الواقع الوشيك

الحدوث الى الوهم الذى يستحدثه الخيال . ولكنه الاستقراء الصحيح
وافراى الرجيج يسيران جنبا الى جنب مع المنتظر من اربعة من
المختارين - على التحقيق - كما تسير الأرقام فى العملية الحسابية
فتنم بلا كبير عناء عن الجواب المرقوب .

قد كان احدهم حقا غائبا عن المدينة لم يعد بعد . ولكن اجماع
الثلاثة الآخرين لا يعوزه تأييد من هذا الصاحب البعيد ، ولن ينقض
طلحة أمرا يبرمه هؤلاء ، ولن يكون من رأيهم الا كما يشاءون . بل لقد
بدا من علمهم بموقفه - وان غاب - ما كان من حديث سعد مع
ابن الخطاب .. قال عمر وهو يوصى الخمسة مجتمعين :

« .. وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فان قدم الى ثلاثة
ايام فأحضروه امركم ، والا فأرضوه .. ومن لى برضى طلحة ! » .
فأسرع سعد اليه بالجواب :

« انا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف .. »

ومع ذلك فدع هذا الغائب وطف بأولئك انباقيين ، وليحضرك
فى هذا الطوف ولاء الأعراب لنواميس الجاهلية وان ضمهم الاسلام ..
تلك النواميس التى تقدس عصبية الأسرة وتقدمها ، وتعيش فى
حاضرها بهم الانتصار الموروث من عاداتها ومن ثاراتها .
لقى على بعض بنى هاشم فحدثوه عن وصية عمر ، فقال لهم ،
وقد حضرته مواقف قریش من آله منذ أجيال ، وتواترت أمام بصيرته
سلاسل أحقادها ومواجدها :

« ان اطيع فيكم قومكم ، لم تؤمروا أبدا ! »

فلم يعد حقيقة الحال فى الماضى والاستقبال ، وقد كانت الطاعة
لقريش والاستجابة لسياستها العليا هى المظنون وقوعه من نهر
الشورى الذين يمثلون قريشا أصدق تمثيل .



... ثم طف بأولئك الباقيين فانظرهم - خلف الدين - عربا
وقرشيين .

وسر قدما بعد هذا الى الجواب المرقوب من العملية الحسابية
بلا كبير عناء ! ولتجدن الزبير نفسه ، ظهير على ، لن يصدر فى تأييده

اياه الا عن استجابة لقرايته وعصبيته ، ثم لترين الثلاثة الآخرين صفحا واحدا امام سليل الهاشميين .

لا ريب كانت هذه اللحظة فرصة فريش المواتية أعادها القدر نائية في يدها - بعد تأمير أبي بكر - لتعاود فوزها المرجو على بيت هاشم . . . وكان للقوم شغف بمجالدة البيت المحسود منذ أوقعت الأيام - من قديم - بينهم وبينه النزاع على النفوذ والجاه . . . وكانت أمية دائما اعتى القوم وأشدهم عليه موجدة ، وهى الآن ، برجلها عثمان - وشيكة أن تقتص لنفسها فتنتصر وتحقق مالم يسعها قبل اليوم تحقيقه من حلم الأجيال .

ولسنا نستطيع أن نرمى ابن عفان بالنهم - إذ ذاك - الى السلطان ، ولكننا لا نستطيع أيضا أن نطن له الزهد فيه . . . وإذا كانت طيبة قلبه وحياءه وعلو سنه كفيفة كلها بأن ترده عن طلب السطوة على الدولة ، فإن حق أسرته عليه ونداء الماضى ، وعوامل الوراثة التى جرت فى عروقه مع الدم كانت تحفزه جميعا على أن يطمح حيث لا حرج عليه من الطموح ، وعلى أن يتقدم ليفوز وقد هيا له قدره اسباب الفوز ووسائل الانتصار .

هيا له قدره هذه الوسائل والاسباب أم ترى هياتها له وصية ابن الخطاب ؟ لن يغبر من الأمر أن نتلمس المعاذير ، ونترفق فى التقدير ، فنحسب أن الخليفة أوصى وهو لا يميل الى ترجيح واحد من الستة على من عداه . . . ذلك لأن الحساب لا يجب البيان ، والظن وان نفته كياسة العقل فقد اثبتته الفعل . . . وما كان لامرئ من الناس الا أن يعلم مقدما بفوز عثمان بن عفان قبل فوزه وقبل أن يقر أصحاب الشورى على قرار وهو لا ريب عالم به مستيقنه من خلال أسماء الرجال الموكول اليهم الاختيار . . . وكفى بعثمان أن يكون له ظهيران فيهما عبد الرحمن ، ومكان عبد الرحمن من الشورى ليس يعلوه مكان . كذلك نرى عبد الله بن عباس ، لا يكاد أن يسمع بما كان من وصية عمر حتى يسرع دهشا ، جلل القلق والحيرة وجهه وخاطره ، فيقابل ابن عمه يستخبره الأمر :

« أقال لكم أمير المؤمنين : ان رضى ثلاثة منكم رجلا منهم ، ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ . »
« نعم . . »

فيهتف الفتى مستنكرا في ضيق :

« قد ذهب الأمر منا ! » .

ولم يكن هذا بالجديد على علم على لأنه استيقنه من البدء وقال فيه لعمه العباس :

« .. سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر

لعثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن .. »

ولكنه مع علمه هذا آثر الصبر لأنه كان يرمى الى امر ..

وقال هادئا يشرح الأمر لفتاه :

« انى اعلى يا عبد الله .. ولكنى ادخل فى الشورى معهم لأن عمر

قد اهلنى الآن للخلافة وكان من قبل يقول ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لا تجتمعان .. »

« جل فقد كان هذا رأى عمر ، او هكذا كان يقول فى الماضى ملتصبا بالحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق على ، وحرمانه ولاية الأمر بعد رسول الله .

وراح ابن أبى طالب يدلى برأيه لابن عباس :

« أردت أن أظهر أن روايته تناقض فعله .. »

وحقا نقض الفعل الرواية وان جاءا كلاهما بنفس الغابة ! ..

ومع ذلك فلم يرفع على نفسه عن الشورى ، ولم يمتنع عن مجلس

الستة بل آثر أن يسير معهم فى الطريق المرسوم وهو يعلم الى أين

سيفضى .. لا يخالجه الشك لحظة واحدة في أنه لا بد مقطوع ما بينه وبين

حقه ، مبتز ترائه ، مقضى عليه بالهزيمة فى ميدان جردوه فيه من

كل سلاح ..

١٣

غلب على عمر اجله ، ومضى الرجل عن فراشه بداره الى مثواه بجوار رسول الله ، محمولا على اعناق بضعة نفر من صحبه ، ولو ترجعت مشاعر النفوس الى فعال حملته رقاب من وسعتهم الدولة الاسلامية من نساء ورجال .. ولكنه ذهب عن الدنيا عازفا عنها ، مرجوا منها ، وقطع الموت ما بينه وبين دنياه من اقبالها ومن قلاه ..

وانكفا الناس عن القبر ياوصاب وآراب ، تجاوزت فى القلوب كسير الامل فى اعقاب المحنة . والحياة دائما تورث الفواجع ثم تورث على اثرها المنى السراطع .. انكفأوا عن طريح الثرى بالبرحاء وبالرجاء . فلما غابت عن عيونهم الحفرة التى طوت العلم ، استدبروا الهم الواصب فى اليوم الذاهب ، وتهيأوا ، مفتحي القلوب لاستقبال الغد المرقوب .. وما سنة البشر فى عيشها على هذه الأرض سوى ان تطرح همها لأمسها وتصل رجاءها بغدها .

وكذلك انطلق الناس من لدن القبر ، وكلهم قد علق بالغد القريب فكره ، يود لو استطاعت بصيرته نفوذا الى الغيب فرأى كيف تسير الأمور بعد العاهل الصريع .. وكيف توطىء الاحداث لخلفه ؟ . ومنذا فى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض سوف يكون أميرا على المؤمنين ؟

كانت الجموع كلها تأمل ، وتسير فى قلوبها - مع الامل - خشية المستقبل لا فرق فى هذا بين فريقى الاسلام اذ ذاك : قريش لها من فوزها بالامر دفعتين بعد وفاة محمد ، أمل عريض فى أن تفوز ثالثة ، وان بدت الحال الآن على غير ما كانت من قبل بعد تفتح الأذهان لما سبق من سطوها على السلطان وابتزاز الحق من ذويه ، ولكنها ما زالت تأمل فى الفوز على صاحب الحق كان تكرر انتصارها جعلها تشعر أنها جديرة بالنصر ، وان لم تكن صاحبة الامر ! .. واهل المدينة من الانتصار ومن نف لفهم من المهاجرين المنصفين لهم أمل معقود على وهوى ان يعود له ما سلبه اياه قومه طغيانا ومرجدة ، ولكن الامل المعقود

واللهوى المنشود القى عليهما شورى عمر ظللا قد لا تستطيع معها العقول ان تنفذ الى مصيرها المجهول ، أو تستطيع ، ثم لا تعود من نفوذها الا بغير المأمول !.

على ان الذى لا يحتمل الشك هو ان الكثرة الغالبة من الناس - وفيهم قريش - لم يكن يسعها الا الاقرار لاي ابي طالب بما يميزه ويرفعه درجات على بقية المختارين . وكان هذا واضحا لكل ذى نظرة عابرة بلا حاجة الى تكلف المقارنة أو محاولة التدليل . وما من احد من الناس الا لعله ألم بطرف من رأى عمر في نفر الستة ، ثم ما من احد الا قد أخذته الحيرة من مسلكه ازاء على حين جمعه الى خمسة رأى هو انهم لا يشبتون امامه عند الموازنة والتفضيل !.

قال عمر لصحبه وقد اجتمعوا لديه وهو طعين :

« .. ما اظن الا ان يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى على ففيه دعابة ، واحر به ان يحملهم على طريق الحق .. »

مع ذلك فلم يوص للرجل الحرى بحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، بل آثر ان يدعه وشأنه للنفر الآخرين يستخلص منهم حقه لو استطاع !.. وانى لهذا الهاشمى ان يستطيع وقد مثلت قريش كلها في انداده أو فى متاويله !.

ولكن هوى شعب المدينة كان مع على ، وما زالت قلوب افراده مقيمة على ودها القديم له ، وان احدى عشرة سنة ليست بالستار الكثيف الذى يحجب عن ابصارهم منظر فاطمة الزهراء ، اذ خرجت تطوف بمجالس الانصار تدعوهم ان يظاهروها لتسترد لزوجها تراث ايها . تلك ليلة جديرة بان تبقى على الزمن فى الاذهان ، وان يشر ذكراها قوية ، لها كلسع الجمر فى قلوبهم ، ما كان من قعودهم عن نصرتها وهم يرون تراث نبهم نهبا آل الى غير اهله . كم بدا طيف الزهراء فى هذه اللحظة كالشهاب الثاقب يشق ظلمة الأعوام !. انهم لبكادون يرونها الآن رأى العين ، تسير مرفوعة الرأس ، على جبينها يتألق شعاع ، قد نم محياها عن ملامح محمد أو كاد . ثم هذا الهواء المنشور حولهم يتحدث اليوم عنها ، وينطق بلسانها ، وقد مضت عليها فى قبرها أعوام حال فيها الموت بينها وبين الكلام . كأن الماضى انعكس ثانية على مرآة العيون والاسماع ، وكان الزمن آت بعد ذهاب ! وكان

ما ضمته النفوس من ذكرى مطوية قد نشر أحداثا حية تسير فيها فاطمة بين اهل المدينة وهى تدعوهم وتقول :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره .. ؟ »
تلك دعوة صحت اليوم من سبات ، ومشت فى قلوب الشعب كخفقها تشعر بالحياة .. وما كان الناس حين ترددوا عن الانتصار لآية رسول الله من خليفته الاول الا كالنائم على الشوك لا يلبث ان يحس وخزه ، وهم اليوم قد تفتحت عيونهم بعد طول رقاد ، وراوا الحق القديم حيث كان ، والعدوان عليه لا يغيره تغير الاشخاص ، ولا اختلاف الزمان ..

ولكنهم بهتوا وهم ينظرون ، وقصرت ايديهم عن ان تنال من قلعة عمر !.. ان الرجل ليبذو وقد بنى سياجا من الفولاذ حول « ولاية الامر » لا تستطيع مشيئتهم اجتيازه ، ولئن كان الاصل فى الشورى ان يكون للشعب حق اختيار واليه ، فعاذا ترك لهم عمر من حق الاختيار ؟.. واين شوره الشكليه من الشورى الصريحة الاسلامية ؟ وكيف جرى بخاطره ان راي رجال - قد لا يعدون الثلاثة - يعادل آراء كل افراد هذا الشعب او ينطق بالسنتهم اجمعين ؟

وفي الحق لقد كانت الشورى العمريه ضربا جديدا من العهود ، لا الى الشورى ولا الى الوصية ، ولم يكن لها مثيل قبلها فى الاسلام . وهى بنحوها هذا نوع من « الاختيار قبل الانتخاب » لولا انه سلب الشعب حق الانتخاب ونحله نفرا ستة ، مهما علت اقدارهم فليسوا يملكون الا ستة آراء !.. ولقد كانت لعمر - بلا ريب - مندوحة فى الشورى المثلى التى ينم عنها روح الدين وتدعو اليها شريعته التى سوت بين الناس . واذا كانت الأحداث لم تتح من قبل للمسلمين ان يأخذوا بأمثل نحو من انواع انتخاب الأمير ، فقد عالجوا غيب وفاة الرسول نحوا قريبا منه ، بأن اشترك فى اختيار أبى بكر كثير منهم ، لعلهم يمثلون بقية ذوى الآراء أو أغلبهم على أقل تقدير ، وهم اليوم ، بعد انتشار الاسلام وركوز تعاليمه فى النفوس كان أولى بهم ان يلتزموا الشورى الحقة التى دعت اليها هذه التعاليم .

ولكن اين الخطاب راي رايأ وأبرمه ، وانتهج بهذا نهج صاحبه أبى بكر ، فكلما الرجلين قد أثر أن يحول بين شعبه وبين مزاولته حق انتخاب واليه ، أبى إلا أن يفرض - منفردا - على الناس رأيه . ولئن

كانت هناك أسباب دعت الأول الى املاء مشيئته : او معاذير اضطر
الثاني حيالها الى الجنوح للاملاء ، فانها جميعا لن تحجب عن الالذهان
البون الساسع بين نظرة الخليفتين ونصرة غريمهما المغبون الى حقوق
الشعوب في اختيار الولاية . وبحسبك ان تعود قليلا الى الوراء لتسمع
كلمات على في هذا الشأن ، حين اراد العباس وابو سفيان ان يبايعاه
يوم وفاة رسول الله . . . لقد ابى عليهما ما اراداه لانه يعلم ان راي
الشعب لا يغنى منه راي رجلين او بضعة رجال . ورفض الاكف التي
احبت ان تقدم اليه السلطان ! وقال :

« لا والله !.. فاني احب ان اصحر بها .. »

ركانت كلماته هذه مركبه الى خسران قضيته في تلك الآونة من
الزمان ، ولكنها مركبه ايضا الى العظمة التي تتسهم القمة ، لانها - وان
جارت على حقه في الولاية - فقد اقامت الدعامة الثابتة لحق الشعوب
في تنصيب الولاية .

١٤

قصة الشورى جدرة بأن يتلأأ عندها برهة ذهن المتدبر لان فيها
- برسمها المعروف - شيات : فيها خروج على مبدأ الشورى الذي
املاه على النفس البشرية حب الحرية قبل ان يمليه دين او تسنه
قوانين . . . وفيها تحكم الفرد في الجماعة اذ يلزمها ان تترسم رايا رآه
في نفر اختارهم وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه . . . وفيها تعسف
التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة
واحدة في شرعة المساواة . . . وفيها تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد
القبلية وتجييشها صفا يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان . . ثم
فيها قبل هذا وذاك تكوص عن الراى الصائب الذي كانت تفرضه منذ
البدء مصلحة الشعب ، راي متمثر لم يكن قرين الصواب . . .

ما كان عمر بالرجل الذي يعمل عفوا دون أن يهدف الى غاية من
وراء عمله ، او بالفرير الذي يكل الأمور الى تصرّف القادير . ولكنه
كان موفور الحنكة ، بصيرا بمواقع خطاه . ولو انه حين اختار أولئك

السته كان طعينا يعانى من جراحه آلاما قد تحد من قدرته على احسان التفكير ، الا انه كان جلدا قويا على دائه الى حد لم يدع آلامه تعيب عقله .. وثمن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططا ، فان اختياره اهل الشورى لم يكن عن دفعة بل جاء عن تريض وروية ، ليس ادل عليهما من انه كاد فى بادىء الامر ان يوصى لعلى ثم عاد فنحاه عن فكره ونفض منه يده ..

ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يعمن التدبر ان يراها ماثلة وراء هذه بالشورى وحصره الخلافة فى ستة يختارون من بينهم اميرا .. وان عمر الذى تعودنا ان نرى له العذر ظاهرا فيما صدر عنه من أمور تحسب عليه لا نستطيع ها هنا ان نلتمس له عذرا . فاذا قيل انه توسم فى النفر المختارين خلاصة المسلمين ، وانهم الافراد الذين تلتقى عندهم مشيئة شعبه ، وان اختيارهم واحدا منهم يكون اقرارا من الباقين على كفايته ، وان هذا المختار سيكون له من الاقرار سند يلف حوله الناس ويجمع كلمتهم عليه فلا يشجر بينهم خلاف .. ان قيل هذا كله على انه الحكمة الماثلة وراء قصة الشورى ، والهدف الذى رمى اليه عمر اذ ذاك ، فان قائله اذن قد فاتهم الصواب فى التعليل ولم يحسنوا التأويل ! . وبصحبك ان تعلم ان عمر نفسه كان لا يرى هذا الراى حين انتهى به الامر الى أن عهد هذه ، بل قال لاصحاب الشورى وقد دعاهم اليه غداة الاعتداء عليه :

« انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الامر الا فيكم ؛ وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض .. انى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

هكذا كان الرجل يخشى ان يختلفوا عند جلوسهم لانتخاب احدهم وكان محقا فى خشيته ، له من ماضيهم ومنازعهم وتقاليدهم الموروثة نبراس يضيء امامه المستقبل القريب في اهم قد اجتمعوا لاتفاق وانفضوا على شقاق ! ..

اجل كان هذا ماثلا امام عينيه كانه صور مرسومة ، واضحة المعالم ، تفصح ولا تخفى وكان فى استطاعته ان يستعرضها جميعا فتبدو امامه كالمرآيا ينعكس على صقالها الخلاف الوشيك الوقوع . كان جديرا بأن يرى فى اولها طلحة متمردا على الخمسة الباقين،

لا يقر لأحدهم بالسبق عليه لأنه عاش قبل اليوم عشر سنوات يحلم
بتسليم الحكم وهو بعيد عنه ، فأحرى به أن ينتصر لنفسه وهو قريب
منه !.. ولئن غاب طلحة عن المدينة أبان أيام الشورى فلقد كان المظنون
فى البدء أن يحضر قبل الفراغ من الاستخلاف . فإى المواقف كان
لأمله واقفه لو استطاع الحضور ؟ ومن من بين 'الرهط الذين رضى
عنهم رسول الله كان سيخناز ؟. ان الصورة التى لا بد قد استعرضها
عمر كانت تبين الرجل فى أجلى بيان ، وتبديه طامعا فى الخلافة من
عهد ابن عمه أبى بكر ، متوقعا من يوم الى يوم أن يحين أجل الشيخ ،
وأن تقترب منه منيته قريبا لا يرى معه بدا من أن يرعى حق القرية
فيوصى لطلحة من بعده .. فأما وقد خالف أبو بكر ما كان مرجوا منه .
وأدلى بسلطانه الى عمر ، فقد غضب الحالم الطامع وثار باين عمه .
« ما أنت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه
النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

ثم لم تغب عنه أمنيته لحظة ، وظل التفكير فى الهدف المرموق ديدنه
حتى استطاع أن يتألف بعض الناس ويتخذهم حزبا يحلمون له !..
وكان لاجتماعه بهم سمات قد يظن معها التآمر والتدبير فى الخفاء
اذ حرصوا جميعا على التلاقى سرا والتحدث سرا ، ثم لا يتون كلما
شاهدوه أن يقولوا له :

« .. لو مات عمر لبايعناك » .

وفي الحق لا يسع المنصف أن يجزم بأن طلحة كان ميالا الى ابتزاز
سلطان عمر عنوة ، ولكن الجموع السياسية لا يمسكها دائما العقل ،
وهى أحيانا لا تعدم أن يكون فيها من لا يقر التريث وامهال الأيام حتى
تجئ له بهدفه ، بل يرى عليه حقا أن يتعجل ساعة تحقيق مآربه ..
واذا كانت هيبة الخليفة اذ ذاك قد جعلت هذا الحزب يقرن البيعة
لزعيمه بشرط وفاة عمر ، فانه شرط كفيلة به الأيام اذا فرغ العمر ؛
أو شرط كفيلة به دفعة شاب قد ينوء بالتريث !.. والأحزاب السياسية
عادة تتوسل بكافة الوسائل لنيل أغراضها ولن يعي فردا منها ان
أبطا بغريمه الموت أن يصطنع له نوعا منه !.

على ان عين عمر الساهرة النفاذة استطاعت أن تهتك ستر السر
وتكشف عما يدور فى الخفاء . فارتقى المنبر وراح يحذر الناس .
« .. قوما يقولون ان بيعة أبى بكر كانت فلتة . وانه لو مات

عمر لفعلنا وفعلنا .. الا قاي امرىء بايع امرا عن غير مشورة من المسلمين فانهما بغرة ان يقتلا !»

ومع ذلك فان عينه تلك شاعت ان تغلق اجفانها دون هذه الصورة ودون اخريات فيها سليل بيت النبوة ، وفيها حفيد امية وآخرون كانوا نتاج الاحقاد القرشية .. لكأن الرجل آثر ان يفضى عن هذا كله وتركه لأفراد شوراه يتمتعون فيه - اما وقد أوصى كما شاء فبغير اتفاق هذا الجميع على أصلحهم للأمر جاءت وصيته ان لم نقل سبقت نيته .. ولغير الصالح العام كان عهده المهود لأنه كان يعرف منذ البدء أى الستة كان أولى بأن يوكل اليه امر شعبه .. وعلى غير العدل المشهور عن عمر : الموسوم به طبعه قام اس الاستخلاف ، وما على المتدبر ، وقد أعياه أن يرى خلف الشورى حكمة تتفق والمظنون بصفاء ذهن الرجل ورجاحة عقله الا أن يطرح جانب قصة الشورى . وذهن الخيفة وعقله ، وآيات عدله الماثور عنه ، تم يبحث في طوايا النفس البشرية عن الحكمة الخفية : أجل فما عمر الا بشر له هواه ، وقد أرضاه فأرضى قريشا كلها من ورائه لأنه وطد سلطانها بشوراه !. هذه حقيقة ناصعة ليس للريب اليها سبيل ، ولقد كان عمر فيها رجلا من قبيله وقومه ، له مشاعرهم وان جنحت الى حيف ، وكانت وصيته وسيلة لتنفيذ السياسة التقليدية التى استنتها لنفسها قريش منذ وفاة الرسول ، ثم هى متممة للسياسة التى جرى عليها سلفه ، والتى جرى من قبلهما عليها قوسهما حيال بنى هاشم بضعة اجيال .. ولا ادل على انها كانت طابعا وسموا به ونهجا التزموه ، من قول على عنهم :

« انى لأعلم ما فى انفسهم .. ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها فتقول : ان ولى الامر بنو هاشم لم يخرج منهم ابدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش » .

١٥

كان طبيعيا أن تفشل الشورى من أول اجتماع ، وأن يحدث الجدل بين أصحابها مسعرا حسبما أوحى طبع كل منهم ، أو طمعه ، أو شعوره بحقه أن يطلب الأمر لنفسه . وما كان لخمسة اختلفت منازع أهوائهم أن يلتقوا عند رأى .

وكان أبى طلحة الأنصارى ، تنفيذا لمشيئة عمر ، واقفا قرب الدار يرقبهم وقد صف جندا على رأسه المقداد يمنع عنهم الناس . وكان الشعب ينتظر فى لهفة ما سوف يسفر عنه الاجتماع ، والفضول يأكل قلبه حتى ليوشك أن يقتحم البيت لولا هذا الحرس الشاكى السلاح . ولم تكن هناك بادرة تنبئ عن قرب الاتفاق ، بل كلما مر الوقت اتسعت رقعة الجدل وعاد أصحاب الشورى القهقرى الى حيثما بداوا الحديث والحوار . ومرارا تكأثرا أفراد من العامة على المكان عسى أن تلتقط آذانهم كلمة أو كلمات . . ومرة ازدلف عمرو بن العاص فجلس بالباب ثم تلاه المفيرة بن شعبة : ذاك الداهيتان أرادا أن يرفعا من منزلتهما فى عيون الشعب بهذا القرب بعد أن عداهما اختيار ابن الخطاب ! . . على أنهما مع هذا لم ينعما بالمكانة الموهومة طويلا لأن ابن أبى وقاص قام اليهما يقول بفضلة وهو يردهما عن الباب :

« تريدان أن تقولاً حضرننا وكنا فى أهل الشورى ! . . »

ولكن الفضول الذى حملهما ، وحمل الكثيرين من الأفراد ، على المكث قرب الدار ، لم يكن مرده الشوق وحده لمعرفة الخليفة الجديد ، بل كان هناك ما هو أولى باجتناب اهتمام الجماهير وقد قل فيهم من لم يعلم نبأ الأمر الذى القى به الخليفة الراحل الى المقداد وأبى طلحة حين قال :

« . . اذا وضعتونى فى حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقم على رؤوسهم ، فان اجتمع خمسـة ورضوا رجلا وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . وان اتفق أربعة فـرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . فان رضى ثلاثة رجلا

منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر .. فان لم يرضوا ،
فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين
ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

ما من احد من الذين تكأثروا حول الدار الا مرت بذهنه صورة
راس او رءوس توشك ان تطيح على حد سيف فجلس يترقب حلول
ساعة الجلاد !.. اجل ، فلهذا تربص ابو طلحة ، وتبصا المقداد وصف
جنده وبه رسم عمر الناحية التي تتم بعنفه في الموت ما كان من
عنفه المشهور في الحياة !..

ومع ذلك فالارهاب سلاح وقى ضعيف لا يلبث ان ينثلم حده ،
وهو ليس دائما سبيل الرضوخ والتسليم . بل لعله اولى به ان يزيد
من شكاسة النفوس حينما تلوح لها الفرصة لانه يجعلها تشعر حياله
يهوان تأباه . وقد أعبى القوة ان تملك حرا وان اصابت منه اذ هي
ضرب من اللغات غير مفهوم عند الأباة .. وانما منطق الاحرار الحق .

وكما بقى الجمهور خارج الدار نهبا بين القلق والفضول ، فقد بقى
الخمسة المجتمعون نهبا لآرائهم المتباينة لا يقررون على قرار . وطال
الحديث بينهم فيما لا طائل تحته ، كلما جاء احدهم برأى سمع تقيضه
من لسان غيره . ولو أنهم جنحوا جميعا الى الهدى ، وتخلوا عن
اغراضهم لحظة ، لتبينوا أيهم اجدرهم بامرة الناس ، ولأثروا صلاح
الامة على صلاح الأشخاص ، ولوسعهم بلا كبير عناء ان يصلوا الى الغاية
المرجوة برد الحق الى صاحبه الذي حرمه مرتين .. ولكنهم كانوا
بشرا قبل كل شيء ، يعيش فيهم حب الذات وتميل بهم الأهواء .
واذا كان الماضي قد ألفت آثاره - التي علقت بقلوبهم - بين عثمان
وسعد وعبد الرحمن ، فان عمر بن الخطاب اذ قرنهم في الشورى
بعلی ، قد ولد في نفوسهم نوعا من الشعور جعلها به ترتفع في أعينهم
الى ما فوق القدر الذي عرفوه لها من قبل ، وما كانوا اليوم بعد
شعورهم هذا ليقرأوا لابن أبي طالب بالتقدم والفضل !..

ان ها هنا - بلا ريب - اناسا غلبتهم على الحق الأهواء ، ومن القدم
كان الهوى آفة الحكم ، ولولا ما يعتور نظرة الانسان الى نفسه من تحيز
لبانت لهم أسباب تدعوهم الى التأخر عن صاحبهم وترك السبيل له ..
وليكن سعد محاربا فذا وجنديا أمثل اتسعت رقعة الدولة الى المدى
الذي وصله حد سيفه ، ولكنه ليس الرجل الذي يستطيع ان يسوس

أمة بعد أن عجز من قبل ومن بعد عن حكم جزء واحد من هذه الأمة ، حتى عزله مرة عمر ، وعزله ثانية خلفه .. وليكن طلحة كبيرا في قومه مسموع الكلمة ، قد حلفت به اطماعه الى السماك ، ولكن مطامع المرء لا تنبىء عن قدره ورفعته بل قد تنبىء عن ضعفه وآفته . وقدما قال فيه ابن عمه أبو بكر :

« .. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها !.. »

... ولتكن سابقة الزبير في الاسلام ، وصلته برسول الله اذ هو ابن عمته صفة بعض ميزته ، ولكنه في هذا المقام كان جديرا به ألا ينسى ما ينأى به عن حكم الناس وقد أجمله له عمر حين قال :

« .. أما أنت يا زبير فوعق تعس .. مؤمن الرضا كافر الفضب . ولعلها لو انضت اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير !. »

.. وليكن لابن عفان من كرمه ، وحلمه ، ووصله رحمه ما قد يؤهله لأن يسود أسرته ، ولكنها صفات تجنح به دائما عن حد الاعتدال الى التطرف والمغالاة حتى تنقلب غلطات ، وبها تعثر بعد أن انتهى الأمر اليه ، وعلى بعضها لقي مصرعه . واللين أحيانا سجاجة ولكنه فيه كان ضعفا معلوما غير خاف على أكثر صحبه ، وفيهم ابن الخطاب حتى خشى مغبته عليه فقال له :

« كائى بك قد قلدتك قریش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفقر ، فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا !.. »

.. وليكن ابن عوف صورة صادقة من كلمات عمر عنه :

« .. ولو وزن نصف ايمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به .. »

ولكن الايمان وحده لا يقدمه ما دام قد جمع اليه الضعف الذى يرتد به الى نهاية صفوف المستخلفين .. وهذا وصف ابن الخطاب قد جاء فيه بفصل الخطاب :

« ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك » .

لم يكن هذا كله خافيا على الرهط المجتمعين وقد جلسوا للحوار والنقاش ، وظلوا يبدئون ويعيدون ثم لا يصل بهم حديثهم الى الحل المنشود المرضى عنه اذا قيس بمقياس الحق . وما دامت النفوس منطوية على هوى فقد تجنبت الجادة وخرجت عن الهدف المحمود .

أما على فقد استوعب كل كوامن قلوب زملائه ، وعرف ما تضم
بلا حاجة الى كلمات تنمقها افواههم ويدعون بها للاتفاق . وما كان
بالذى يغره منطق اللسان وقد علم مشاعر الوجدان .. انهم الآن
يضعون أقدارهم فى الأخرى ، بل يزنونهم بعواطفهم ؛ وللعواطف فى
نهاية الأمر الرجحان !

ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يسير واياهم فى طريق الألفاظ ،
بل تركهم قبله يتحدثون مداورين ، يحومون حول القضية التى
اجتمعوا لها ولا يبدى احدهم حجة ترفع شأنه وتثب به الى مقعد
الأمانة .. انتهى حديثهم الى نهاية هى البداية ، ووقف هو يتحدث
بصراحته فى لب الموضوع .

قال لهم :

« الحمد لله الذى بعث محمد منا نبيا ، وبعثه الينا رسولا .. فنحن
بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ..
لنا حق - ان نعطه - نأخذه ، وان نمنعه نركب أعجاز الابل ولو طال
السرى .. لو عهد الينا رسول الله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا
لجادلنا عليه حتى نموت ، ولن يسرع احد قبلى الى دعوة حق وصلة
رحم » .

وكذلك بهذه الكلمات القصار رسم مزاياه ، ورسم خطة العمل
التى آلى أن ينتهج دربها ان منعه او اختاروه ، وقطع قبل هذا وذاك
الألسن اللاغطة التى قد تدعى على رسول الله وصية لابن عمه ، فكان
بهذا الجسم - الذى لا يدع مجالا لتأول ولا ادعاء - رجلا يؤثر الصدق
ولو جاء اليه الصمت - ولا نقول الكذب - بملك الأرض .. أما وقد
جاء منطقهم صورة صادقة لقدره ، ولأمانته المثلى عند رسم التاريخ ،
ولحرصه على وحدة أمة وان نزعوا حقه ، فقد بقى عليه اذن ان
يبصرهم بسوء مغبة ما يعلم انهم مقدمون عليه عسى يستطيع ان
يجنبهم التردى فى حماة ستدفعهم اليها الأهواء .. ما كان أنفذ
بصيرته وأصدق نظرته !. لكانما كان فى تلك اللحظة يتلو من كتاب
مفتوح سطور الفتن والمنازعات التى غرسوا بذرتها فى أبادم الشورى ،
لتجنى الأمة - بعد بضعة أعوام - ثمرتها المرة ..

قال لهم محذرا وقد رنت عيناه الى بعيد :

« اسمعوا كلامى .. وعوا منطقتى .. عسى ان تروا ١١٥ الأمر

من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم أئمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهالة .. »

ولو أنهم آمنوا اذ ذاك بقوله ووعوه لكان خيرا لهم وللأمة جمعاء وللإسلام ولكنهم أبوا أن ينصتوا لمنطقه حتى صدمهم الزمن بحقائقه وراوا أنفسهم أئمة أشيع جردوا الأسياف وظاهروا الخلاف !..

١٦

أشرف أبو طلحة الأنصارى على الجمع المتفرق الآراء ، وقال لهم وقد هاله ما ظلوا عليه من خلاف :

« قد كنت لأن تدفعوها اخوف منى لأن تنافسوها !.. »

وهز الرجل رأسه هزة الأسف وخيبة الرجاء .. ولكنه لم يدعهم حتى أوضح لهم عزمه على أن يلعب دوره لحرفه :

« ... لا والذي ذهب بنفس عمر !.. لا أزيدكم على الايام الثلاثة

التي أمرتم ... »

وأخذت فترة الزمن تضيق حلقتها ، والساعات تفر سريعا من أيديهم ونقاشهم عن الأمير المرجو حيث كان ، لا يتقدم خطوة . وراح الأجل الذى ضربه عمر للاختيار يتقلص عنهم .. وحبل الخلاف دائما طويل ممدود .

ثم جاء عبد الرحمن من لدنه بالحل الذى ظنه سيصل به وبأصحابه الى الغاية ويحسم النزاع .. قال لهم وقد أعياهم جميعا منطق الجدل .

« أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها ، على أن يوليها خيركم ؟ » .

فتطلعوا نحوه مبغوتين ، وعقدت الدهشة السنتهم آونة فلم يبادروه بجواب على سؤاله الغريب .. أفكان هذا حلا موقفا حق التوفيق ؟..

ما من رجل يعلو قدر نفسه على أقدار منافسيه يستطيع أن يأخذ نفسه بالموافقة على الراى المعروض : ذلك انه بخروجه من

الامر - سيهدد اولاً حقه ثم يدعه مباحاً لآخر ادنى مكانة راقلاً قدرة منه على الولاية . فاذا كان اميناً لواجبه ، ولحق أمته عليه ، فانه اذن قد نكل عن الواجب وخان الأمانة . وليس لعلى الى احدى النقيصتين سبيل ! ..

وكانما رأى صاحب الاقتراح فى صمتهم ما يكاد أن يهدد اقتراحه بالخذلان ، لأن موافقة احدهم عليه لن تكون الا على حساب كبريائه ان لم تكن على حساب حقه . وما كان بالخافى على عبد الرحمن ان يعلم ان اجدر اصحابه بالامر لن يخرج نفسه منه فيضيع طواعية حقه المعلوم وان الباقيين لابد استدعواهم عوامل نفسية واخرى زمنية الى التشبث بحق موهوم .

رأى هذا عبد الرحمن وابقنه وهو يعيد سؤاله ولا يسمع الرد عليه . وخشى ان يفشل حله الذى اوحى به ضيق الزمن ، فلم يجد بدا - لينقذ وينفذ اقتراحه - من أن يمشى على كبريائه هو عساه يستطيع ان يحملهم على القبول .

قال بعد قليل :

« انا انخلع منها . »

فما نطقها حتى هتف به عثمان :

« انا اول من رضى »

وتتابع بعده رضاء الباقيين .

ولكن علياً وحده ظل صامتاً لا يكشف عن قبول . وكيف ياترى يسعه وهو الخاسر بهذا الحل الجديد على التاكيد ؟ .. ان عثمان : الخصم الذى يؤبه له بين الجمع قد توطد الآن موطىء قدميه لأن مصيره - قبل الاقتراح - كان موكولاً الى خمسة قد يختلف بعضهم عليه ، فاذا به الآن موكولاً لفرد واحد معلوم ميله اليه . . .

ومع ذلك فدأب ابن ابي طالب الا يتنكر لمبادئه وان رأى استمساكه بها يجر عليه الوبال . . . وما دامت هناك كثرة اخذت باقتراح عبد الرحمن فقد وجب ان يرضخ لمشيئتها ويأخذ به ، ثم له - بعد هذا - أن يتحرز للعدالة المفروضة فى الرجل الذى قبلوا ان يكون حكماً يقضى بينهم بما يراه .

قال حينئذ يستوثق من صاحب القول الفصل :

« اعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ،

ولا تالوا الامة . . . »

فأجابه عبد الرحمن :
« على ميثاق الله »

ومضى عنهم يستشير الرؤوس والأشراف فى أمر رجلين اثنين
من أهل السورى ، قر فى باله انهما المتنافسان : هما على بن أبى طالب
وعثمان بن عفان .

أفكان هذا ميزانا عدلا ؟ .. وأين رأى جمهور الشعب والعامّة ،
وهم الكثرة الغالبة فى الأمة ؟ .. ومن يا ترى من رؤوس تيم كان
سيرضى بعلى منافس شيخ تيم ؟ .. ومن من أشياخ أمية كان سيقبل
سيادة غريمتهم الهاشمية ؟ ومن عسى من زهرة كان قمينا بأن ينكل
عن عثمان صهر رجلهم عبد الرحمن ؟ .. ثم من لعلى برضا ينى عدى ؟
.. من له وقد رأت شيخها عمر قد هم أن يوليه ثم عاد فنكص ،
كأنما ذكر - فى اللحظة الأخيرة - منقصة فيه توجب العدول عنه ؟ ..

... وطلعت الليلة التى تكمل بها المهلة ، وتأرجحت دقائقها
ثقيلة على النفوس المنتظرة فان هو الا صباح ... وكان ابن عوف
قد ارق واقض مضجعه الفكر فانطلق فى دروب المدينة الهاجمة
يسير ، حتى اذا بدا له فى نهاية المطاف باب ، ذهب يطرقة على
ساكنيه ...

واستجاب له بعد قليل ابن اخته المسور قد هب على الطرقات
من مرقده وما زالت جفونه يشقلها النوم .

« ... أراك نائما ولم اذق هذه الليلة كثير غمض ؟ »

« ائنى قائم معك ائنى شئت يا خال » .

« فانطلق فادع الزبير وسعدا ... »

وانفرد هو فى مؤخرة المسجد بصاحبيه - وقد لبيا دعوته -
يحدث واحدهما بعد الآخر ... قد رأى انه أجدى على غايته أن
يستطلع رأى كل منهما وحده ، فلما عرف ما اراد ، قال للاول :

« خل ابنى عبد مناف وهذا الامر »

ذلك انه ايقن أن القوم لا يعدلون بعلى أو بعثمان ، فلم يعد هناك
مجال لمنافسة يعقبا خلافا ينشب بين الباقيين . وكان هذا رأى

عمر قبله ، صرح به ولم يكتمه عن اصحاب الشورى ، ولكننا لا ندري
اكان عبد الرحمن قد آخر الاخذ به حتى يستوثق ، أم يا ترى لانه
ظن - فى البدء - نفسه حقيقا بالخلافة ثم عاد فخذله الظن الآن . . .

وقال له الزبير وقد حميت فى عروقه دماء القربى :

« نصيبى لعلى . . . »

فمضى الى سعد يشرح له غرضه فى اللقاء ، ويحضه ان يدع
التنافس مقصورا على ابنى عبد مناف . ثم قال له وهو يحاول ان
يختم الحديث :

« . . . انا وانت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار »

وكذلك وضح ان مقياس هذا الاختيار الخطير لم يكن قدرة
الشخص الجدير بأن يقع عليه الاختيار . . ولم تكن آراء ناخبيه فيه
توجهها مكانته او يوحىها فضله بقدر ما كانت قرابتهم منه او صلات
أرحام بعضهم ببعض قادرة على التوجيه . وبحسبك ان رايت الزبير
يمالىء عليا للقربى ، وعبد الرحمن يأخذ من سعد نصيبه فى الانتخابات
لانهما كلالة وإنا عم . . بحسبك هذا لتعرف ان الشورى لم تكن
ميزانا وزن فيه التفضيل والتقديم بالقسطاس المستقيم ! . .

وقال سعد يجيب ابن عمه :

« . . ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلى أحب

الى . . »

ولكنه على أى حال تفضيل لا يرجح كفة المقضى عليه بالخسران
ما دام يبقى بعده الراى الذى يخسرها ، وهو راى عبد الرحمن ! . .
ثم هو أيضا تفضيل موقوف بأجل لانه كان رهينا بعاطفة عابرة متوهجة
كلمعة البرق ثم خبت فى لحظات . ذلك أن سعدا ذكر فى مقامه هذا
أن عليا - وقد خشى منه الميل الى عثمان - جاءه من قليل وقال :

« . . اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم

رقيبا . . أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ، وبرحم عمى حمزة
منك الا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى أدلى بما لا يدلى
به عثمان » .

أجل كان سعد - فيما بدا - ما زال واقعا تحت التأثير العابر
الذى ولده فى نفسه هذا الحديث . ولكن الاثر لم يلبث حتى : ابله ولما

يزايل هو موقفه أمام عبد الرحمن ! .. وعاد قلبه ثانية سيرنه الاولى ،
لانه ما نطق بكلماته لابن عمه حتى سارع يردفها بهذا الاستدراك :

« .. ايها الرجل ، بايع لنفسك ، وارحنا ، وارفع رءوسنا ! »
فما اعجبه اذن من كلام يؤيد به عليا ثم يعدل عنه في آن ! ..
واجابه عبد الرحمن ولم يعد يوسعه أن يستجيب لتحريضه :
« انى قد خلعت نفسى منها على ان اختار ، ولو لم افعل وجعل
الخيار الى لم اردھا . »

وبهذه الكلمات كشف الرجل عن خبيء نفسه ، ودل على ضعف
ثقته ضعفا لا يستطيع معه تحمل تبعة حكم الناس .
وعاد بعد قليل يستأنف الحديث :

« .. يا ابا اسحق . انى رايت كروضة خضراء كثيرة العشب ،
فدخل فحل لم أر قط اكرم منه ، فمر كأنه سهم لا يلتفت الى شيء
مما في الروضة . ودخل بعير يتلوه فاتبع اثره حتى خرج من الروضة ..
ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ، يلتفت يمينا وسمالا ويمضى قصد
الأولين حتى خرج .. ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة - ولا والله
لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام أبى بكر وعمر احد .. »
فرمقه سعد بنظرة محذرة ، وقال له :
« انى اخاف أن يكون الضعف قد ادركك . »



وهكذا - مرة أخرى - تحدد الرؤى - والأحلام اتجاه الأشخاص
ومع ذلك فمنذا لا يقول انها ليست وحيا يوحى بقدر ما هى خلجات
المشاعر التى تملكهم ؟ .. انها بلا ريب الصدى لما فى النفوس والصورة
المنعكسة البادية من خباياها ، وليس لها - ها هنا - تأويل ظاهر
اقرب الى الصواب سوى أن عبد الرحمن بن عوف ، بعد اعمال فكر ،
تبين بوضوح صدق رأى عمر فيه فعلم الآن عن يقين انه حقا أضعف
من أن يسوس دولة ، ولم تعد له فى نفسه ثقة باقية تحمله على
الطموح الى خلافة سلفيه .. وكعذر عن تجنبه تحمل تبعة الامرة التى
آمن بأنها عبء يعييه ، اسعفته واعيته برؤياه ليراها تعين ايضا
كل امير سواه ! ..

١٧

مال عمرو بن العاص على أذن على ، وهمس له :
« يا أبا الحسن .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، ومتى أعطيته
المزيمة كان أزهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك .. »
وتفكر على مليا ثم ابتسم لنفسه فلم يأت الرجل بجديد .. على
نحو ما ، هذا رأى يتفق وميله لأن المبدأ الذى يستلزمه كان حرية
العقل وطلاقة التفكير . وعلى قدر جهد الرأى من حكيم بصير يأتى
الخير ، وليس على قدر اسلاس القياد جزافا لرأى الغير ..

ثم مضى ابن العاص الى عثمان بن عفان يناجيه :
« يا أبا عبد الله .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله
بمبايعك الا بالمزيمة ، فاقبل منه » .

كذلك راح الداهية بوجه وجاء بوجه . ونصح لثانى الرجلين أن
يستمسك بما نصح أولهما أن يقلع عنه ! ..

افكان عمرو ذكيا الى الحد الذى يستطيع معه أن يقرأ ما فى قلوب
الرجال الثلاثة . . .

كان قمينا ، بحق ، أن يعلم سلفا رأى عبد الرحمن في تروده
وضعفه وقلة ثقته بنفسه .. وأن يعرف أن الضعيف دائما هيب ،
لا يسلك السبيل الا اذا أمه سواه . واذا وثق بهذا فقد آمن أن
ابن عوف سيتخذ من يد غيره تكأة يستند اليها ليأمن العثار ، ويشق
بعونها سبيله .. وهذه اليد أسعفت بها رؤياه ..

نعم أسعفه حلمه وزوده بما لا يعجز بعده عن الاضطلاع بالمهمة التى
وكل أمرها اليه . وما عليه الا أن يغمض عينيه آونة يستعيد فيها
الرؤيا الى ذهنه ، ويلمح الروضة الخضراء ، ويلقى ببصره الى الفحل
الكريم حتى يقطعها ، ثم يستقبل من بعده البعير الاول ، فالثانى على
أثره يمشى قصد سايقيه .. حتى اذا اكتملت لديه الصورة بذلك
الذى رتع فى الروضة فأساء حيث أحسن الآخران . سارع ففتح
عينيه ليبعد منهما ظله .. وما دام هذان قد نهجا نهجا مباركا فليكونا

اذن مثلاً أعلى لما يمكن أن تقاس به كرام الأباغر !.. وليحفظ دائماً صورتها في مخيلته ، وليتوخ أن يكون على غرارهما ذاك التالى المرجو ويلزم نفسه بانتخابه خلفاً لهما يتأثر خط سيرهما خطوة خطوة !.. كان قمينا بعمر و ان يقرأ هذا فيما جبلت عليه طبيعة ابن عوف من تردد وضعف . وكان من الذكاء بحيث يجعل من هذه النفس ، التى تنقصها الثقة ، منظارا يرى من خلاله ما سوف يكون من تصريف ذينك الرجلين المتنافسين : على وعثمان ، حسبما يوحى لهما خلقهما ويدعوهما استعدادهما النفسى الى تناول الحياة .. اما عثمان وأمره ميسور لأنه لا يكاد ان يكون نسخة ثانية من ذلك الحكم الضعيف فأحرى به أن يتأثر خطاه .. وأما على فان اعتداده بنفسه ، وفكره الطليق ، وتكوينه الخلقى الذى صاغ شخصيته على أساس من القوة مبن - كلها نمت مقدما على أنه لن يلعب أمام سواه دور الظل !..

ولكن هذا ليس وحده دليل الذكاء فى ابن العاص ، ولن يكون عمرو ابناً لأمه لو خطفت أمام عينيه فرصة تبرق ولم ير على التماعها مصلحة يلتقطها ! وفى العام الماضى استطاع هذا الجزار القديم أن يحول أنفه دائماً ليستقبل مهب الريح ، ويتنسم ما فيها . وكان دائماً ككلب الصيد يشم الفريسة ثم يتحرك بعد هذا الى حيثما تسير .. وهو اليوم لم يعد طبعه ، ولم نتخل عنه سليقته ولا داب التاجر الذى يزن الأمور بميزان الذهب قبل أى ميزان .

أجل سائر عمرو طبعه . وألقى بنصحه للجهة التى أرشدته اليها الريح ! - القاه الى الرجلين ، المتنافسين اللذين ان يكون غير أحدهما بعد قليل خليفة المسلمين ويكون ابن العاص فى نظره المشير الأمين ! وهو بهذا قد ضمن المثوبة ممن يملكها ، وليس بفيده حنق المنقلب بالخسار ..

وكذلك راهن ابن النابغة على الجوادين فى آن ..



واوشكت الليلة الباقية من مهلة عمر على زوال . وامت لحظة الفصل أو هى تطرق الباب ، فانطلق عبد الرحمن الى ابن اخته ..
قال له :

« يا مسور .. اذهب فادع لى عليا وعثمان » .

« بأيهما أبدا يا خال ؟ » .

« بأيهما شئت » .

ولم يقب الرسول سوى قليل ، ثم عاد بالرجلين الى المسجد ، وكان عبد الرحمن قائما فى القبلة فترثوا به حتى أتم ، فلما لمحهم سارع منطلقا الى ناحية ابن أبى طالب لا يريم .

كاد لهذه اللفتة ان يفيض امل عثمان !. ولكنه لا يملك ان يحتج او يشور ولا يملك ان يدعوه ليبدأ به ، فليدع اذن ما بدأ من ميل عبد الرحمن - او ما ظنه هو ميلا - الى منافسه .. ليدع الرجلين يتساران .. وليمل هو الى آخر المسجد يقبع فيه مستحييا ، محاولا ان يخفى قدر وسعه ذلك اللون الباهت الذى رسمه على محياه شعوره بقرب الاخفاق .

وقال عبد الرحمن لعلى وهما بمنحى :

« .. انى قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم أجد الناس يعدلون

بكما » .

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث :

« يا أبا الحسن .. هل أنت مبايعى على كتاب الله ، وسنة رسوله ،

وفعل أبى بكر وعمر ؟ » .

فرمقه على بنظرة نفاذة ، وقال ولم يتردد :

« بل على كتاب الله وسنة رسوله ، واجتهاد راى » .

كان هذا هو الجواب الحاسم ، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق على واعتداده بنفسه ، ولن يضره ان يفقد صولة او ملكا بقدر ما كان يضره لو آثر ان يصل الى السلطان عن غير طريق حرية رايه وجهره بما يعلم انه حق ابلج لا تعتريه شبهة ، وما كان لامرئ ان ينكر على أبى الحسن علمه وحكمته ، ونضج آرائه وغيرها من سجاياه المثلى التى تؤلف من بينها اقوى دعامة يمكن ان يستند اليها حكم فاضل قويم ، ما كان لاحد ان ينكر عليه هذا او بضه وان كان أبى بكر ، او كان ابن الخطاب بعد ان خبرا فيه تواحيه واستعانانا دائما برأيه الصائب اثناء اقتصادهما اريكة الحكم ..

ومع ذلك فان عبد الرحمن شاء ان يبدو كمن ينكر عليه ما اقر به صاحبه وآثر ان يسبق الاختيار باختيار التزم فيه نهجا لم يرسمه له

عمر قبل موته ، ولم يدع الى الاخذ به منطق مقبول ، جاء من لدنه بشرط للبيعة كان اولى به أن يعفى عليها منه ، وان وجب ان يلزم به كافة الناس سواه ، ولكن هكذا شاء الحكم العدل لأنه جاء وفي خاطره بغير ان يحاول ان يجد على نحوهما ذاك الذى يجمل به أن يتأثرهما كما لم يرسم - وان أوحى - الحلم !.. شاء هذا عبد الرحمن ، ف ضرب به مثلاً عجباً لأصل يتبع فرعه ، وحسناء وخيالها ، هو يبررها نابضة بالحياة وليست هى التى تعكسه صورة صامتة على صقال مرآة !..



ماذا عسى كان ابن عوف يريد به بشرطه ؟. ليحذر السياسة العليا للدولة ؟ - ذاك مرده بلا جدال الى صاحب الأمر ، له طريقته وله خطة العمل التى براها كفيلة بأن تسير آلة الحكم بانتظام الى الامام ، وهو رهين ايها بالظروف والاقوات ، لكل زمن نهج تعالج به مشكلاته ، قد لا يستقيم به علاج مثيلاتها فى زمان سواه .. ولئن بدا لعبد الرحمن أن يثبت من الأسس التى يزعم على أن يقيم عليها حكمه افلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول ؟.. وأى دستور وضعى يستطيع ان يسمع ، من النظم التى تضىء العدل وتضىء القوة ، ما وسعه دستور السماء ؟.. وفيه اذن ولم الشرط بتأثر خطى ابي بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد أقر على نفسه بالتزام اوضح نهج واقوم تشريع ؟..

ولكن ابن عوف - فيما يبدو - لم يرضه هذا الاقرار بالتزام الاصول بقدر ما كان يرضيه ان يجمع اليه التزام التفاصيل ... وعجب أن تكون هكذا نظرتة ويكون شرطه ، هو العالم بأن الدستور الالهى فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين ايما غناء ؛ وأتتهما آدميان ، بلا قداسة ولا تنزيه ، قمينان بالاصابة وبالوقوع في الاخطاء . ولو أن الرجل تفكر قليلا لعلم استحالة قبول على شرطه .. وكان حرياً به حقاً أن يتفكر لو أنه قدر سياسة حكم الدولة حسبما اشارت عليه رؤياه . أغمض عينيه عن الواقع الملموس وعاش في اغفاء حلمه ! ونسى فى هذه الآونة .. التى نصبه القدر فيها صانعاً للحكام - أن

بعيريه الأمثلين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقة تمام التأثير ، بل خالف نهجه ، وخالف أيضا نهج رسول الله فى كثير من الأمور .. ولو كان عبد الرحمن قد محص رؤياه حق التمحيص لعلم أنها غررت به ولم نشر عليه بصواب .. على أى حال ، لا بد أن يكون قد عرف أن رجلا جاء ذات يوم الى عمر بن الخطاب يقول :

« يا امير المؤمنين .. عذبت امتك منك اربعا . ذكروا أنك حرمت العمرة فى اشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر ، وهى حلال .. وذكروا أنك حرمت متعة النساء وكانت رخصة من الله ، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث .. وذكروا أنك اعتقت الأمة - ان وضعت ذا بطنها - بغير عتاقة سيدها .. وشكوا منك نهر الرعية وعنف السياق » .

هذه أمور - على هوانها - تومىء الى ناحية من عمر اغفلتها رؤيا عبد الرحمن !.. ولكننا هنا لا نناقش الخطأ والصواب فيما رآه ابن الخطاب . بل نلمس الدليل الحاسم على انه رأى حقا لعقله عليه فتركه يعمل ويأتى بالنظرة المخالفة نظرة سلفه الى الأمور ما دعا الى هذا تغير الظروف واختلاف الأحوال . وحتى تلك النواحي التى لها خطرهما من السياسية العامة للدولة قد امتدت يده اليها بالتبديل والتعديل ، وتناول منها النظام المالى المعروف فهدمه وأقام آخر مغايرا على انقاضه ، لم يمنعه عن ذلك علمه برأى رسول الله وعمله ، أو عمل خلفه أبى بكر بذلك المبدأ القديم .

كان عمر فى هذا حاكما له سياسته التى آمن بصلاحياتها ، فلم يقف أمام سلفيه مكتوف اليدين أو معقود اللسان ، ولم يدع الماضى يحول بينه وبين غرضه . بل سار قدما الى شوطه ولما ينصرم من الوقت الا قليل على وفاة أول خلفاء رسول الله . وجاءت السنة الخامسة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقسيم الاعطاء على الناس ، لم ينحه محمد أو أبو بكر بعده ، فألقى عمر المساواة - أساس التقسيم - وفرض الاعطيات بدرجات .

فأى السياسات اذن أراد عبد الرحمن ان يلزم بها عليا قبل أن يدلى اليه بالبيعة ؟ وعلى أى الدساتير المستقاة من فعل الخليفين السابقين كان عليه أن يسير ؟ وبأى الشيخين كان يقتدى والأمر

لديهما تختلف منازلها هكذا وفق ما يوحى اليهما من اختلاف
النظرات والآراء ؟ ..

أما انها اذن لرؤيا حجبته كثيرا من الحقائق عن ذهن ابن عوف
حين اراد ان يلزم عليها شرطه ! .. ام هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل
شرطه ، فشرطه ! .. ؟

١٨

الافق البعيد كاد ان يبدو صافى الزرقة من وراء ستار رقيق شابه
سواد ، والانجم غاب عنها بريقها ، كهيون وسنى ، والسكون تحت
السماء اضجره النوم ...

وكانت رمال المدينة صديا ، يفيض فيها - كقطرات مياه -
ديبب الأقدام القليلات التى مشت على الدروب .. وبين آونات
كانت ترن فى الصمت من هنا ومن هناك جلاجل قافلة تمر بالبطاح ،
أو ترنيمة حاد يحث ابله ، أو رغاء وثغاء .. ولكن اللحظات أخذت
تترى ، وكاد الرمل ان يبلغ ربه حتى لم تعد له طاقة على ابتلاع
خطرات الأرجل ، قد سارت الآن فى ركاب الزمن علائم الحياة ..

ومن الظلمة الممدودة اخذت تلمح اطياف ضوء واهن وتنشق بها
اسجاف الليل . اذا رنت نحوها العين رأتها محيا رائقا خلف نقاب من
دقائق السحاب ، تكاد غرته أن تسفز وتهب الدنيا بشير النور . وفي
السماء كان اللألاء هو الدعوة الصامتة الى البشر لاستقبال الفجر ،
وعلى الأرض تردد النداء جليلا رافعا ، باسم الله ، للصلاة ..

ولكنه ليس فجرا كسواه يبدأ يوما كبقية الايام ، وليس نداء
ككل نداء . انه مستهل المجهول المأمول ، وبداية المرقوب المرهوب ..
كل أولئك الذين لبوا الدعوة جاشت بخواطهم الرهبة مع الرجاء ،
ومشت الأرجل تحتهم مضطربة كأنما تحاذر - جهدها - أن تنهال
تحتها الرمال ، وتسارعت دقات قلوبهم دراكا كأنما تطاردها خشية
واشفاق أو تحثها منى وآمال ..

« الصلاة جامعة ! »

حتى هذه الأحرف اعتورتها هزة !.. أمن خوف المستقبل رجفت شفتاه أم من شوق لعهد قابل تمناه - ذلك الداعى في أعقاب السحر ؟ . انه هو أيضا من قومه ، صورة لكل مجيب لدعوته ، قد عاشت فيه ذات العواطف التى ملأت جوانح من قدموا على ندائه ، فملأوا رحبات مسجد الرسول وفاضت بهم ، فى القضاء حوله . جموعا تزخر .. ولم تطل بهم الصلاة وان بدت بلا نهاية فى حساب الأفكار ، وكانت الأعين موكولة بالمنبر ترسل نظراتها اليه وتتعلق بكل من يخطر نحوه . ومضت اللحظات دانية فى تمهل ، والقوم سكون ينظرون حتى بدا عبد الرحمن بن عوف الى جوار قبلة الانظار ..

آن اذن وقت الفصل ، وجاء اوان اللحظة الحاسمة فى تاريخ هذه الفترة من الزمان .. واتسعت الأعين واشرابت الأعناق الى الرجل الذى بهم ان يرسم مصير امته بكلمات . كان يكاد ان يغمض عينيه ، ساهما لا تتعلق نظراته بشيء ، صامتا كصمت المكان . ولكن سمات القلق التى سرت فى أعضاء الجمهور لم تسر اليه ، وهممة الهمس التى تنقلت من افواه لأذان لم تصب بعدوى النطق شفتيه . ظل ساكنا فى موقفه هنيهة ، لا ينبس بكلام . وطال على النفوس المتلهفة اطرافه ، وطالت به حيرة الناس ، وظللت جبينه سحابة . وانعقد الوجوم على راسه حيناً . ثرثرت فيه السن كل من عداه .. اما هو فبقى ، فى حساباتهم ، كمن أصابه حصر - هو داعيهم لالقاء اذان وسماع بيان !..

ثم استطاع بعد جهد ان يرفع رأسه ، ويمد البصر الى الجمع الحاشد فى جنبات المسجد وحوله .. ووسعه أخيرا أن يقول بصوت خافت لم تتمكن أن تتلقفه كل الأسماع وان تمكنت لجج الهمسات ان تطويه :

« .. ان الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الامصار بامصارهم وقد عرفوا من أميرهم .. »
« انا نراك لها اهلا » .

هذه نبرات صوت جاءه من أسفل المنبر يقطع عليه الحديث . وبحركة هدب مالت بها نظرات عينيه . استطاع عبد الرحمن أن يلمع رجله - تصيره المهيب به ان يتقلد سيف السلطان !.. كان هذا نسيب بنى الخطاب : سعيد بن زيد ختن عمر على اخته فاطمة .

ولكن ابن عوف لم يعد فى مقدوره الآن ان يسجيب لاغراء الدعوة ،
بل تأبى وقال :

« بل أشيروا على بغير هذا .. »

ثم التفت ثانية يخاطب القوم :

« انى قد سألتكم ، سرا وجهرا ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين

الرجلين : اما على واما عثمان .. »

وكرة اخرى قطع عليه الخطاب ، ولكنه الآن بجرس داو رج

المسجد :

« ان أردت الا يختلف الناس فبايع عليا .. »

فاستدارت الوجوه الى حيث انطلق الصوت ، وانتهبت عيونهم

ذاك الآدم الأشهل . جاء حقا بدعوة حق ! .. وكالنار اذا علقت بهشيم

جاف ، سارت دعوته سراعا الى الشفاه والخلوق تتردد عنها حرفا

حرفا .. لكأنما كلمات عمار بن ياسر كانت المفتاح الذى فض اقفال

الافواه !. من كل ناحية أتت الصيحات داعية الى الأخذ برأيه ،

وتجاوبت فى أرجاء المسجد كأنها صدى ما نطق به عمار .. ومن بين

هذا الهتاف جاء صوت المقداد :

« صدق عمار .. وان بايعت عليا سمعنا واطعنا » .

وكاد ان ينتقض الصفاء على ابن عوف ، ويضطرب الأمر . وهمت

ان تخرج من يده سلطة اختيار الخليفة الجديد بأن تسلبه اياها

ارادة الجمهور . ولعله فى هذه اللحظة قد اشتبه عليه البرأى فلم يدر

لاى الرجلين يجدر به ان يلقي الأمانة التى لديه ، على اى الحالات

قد حلت به فترة - وهو قائم على منبر النبى - لم يكن هو فيها

سيد الموقف .

يا ترى هل كتبت على أمية ان تنخلل ثانية امام هاشم ؟. كان

حريرا أن تجرى الرياح بغير ما تشهى - فى قبره - ذاك القمىء

الدميم ، وبغير ما يشتهى الحاضرون من بنيه .. وكادت أن تبغتهم

قلوب الشعب التى اختلط بدمائها حب الهاشميين حين : بأبيهم

الذاهب صيته ومجده الى السماء رفعة ، وبابنهم رسول الله النبى

الكريم . فأى الخواطر جالت بأذهان سلالة عبد شمس وأميه اذ ذاك؟ .

وكيف استقبلوا ثورة العاصفة النفسية العاتية التى فاضت بها نفوس

الشعب . فكادت ان تطفىء نارهم ، وتكفىء قدورهم كما فعلت

بهم - وبقریش المتألمة معهم على محمد فى يوم الخندق - تلك العاصفة الجوية التى أرسلتها عليهم السماء ؟ .. أحسبهم أصابهم العى الى حين ، وتلفتوا ينظرون بعين المبهوت حتى حمل لواء الدماع عنهم دعى لصاحبهم ، ربطه وایاه ثدى امرأة ، فقام يصيح :

« يا عبد الرحمن ! .. ان اردت الا تخالف قریش فباع عثمان » . فكأنما وضعت هذه الصيحة شقا من الناس على اهبة الكفاح ! .. اكبروا بادىء الامر جراحة ابن أبى سرح أخى عثمان فى الرضاع وتقبلوا منه دفاعه حامدين .. ثم لم تلبث ان حميت فيهم دماء العصبية لكبير بينهم الذى وضعتة الاقدار ، ورجل بنى هاشم فى كفتى ميزان .

ولكن ابن یاسر لم يدع الصائح بلا جواب ، بل انبرى له يسأله فى تهكم مرير :

« ابن أبى سرح ! .. ومتى كنت تنصح الاسلام وأهله !؟ »

وانه لاستنكار جدير بأن يزوم الشفاه ويكلم الاقواء . أجل صمت داعية أمية وعقد الخزى لسانه ، فما زال كما كان فى نظر الناس ، قد تجمل عليه كل ثياب الا ثوب الناصح الأمين للاسلام . وان رجلا على شاكلته خان ثقة رسول الله فيه ، وعبث بالوحى الذى وكلت اليه كتابته لأولى به أن يبتعد عن الحياة العامة عسى الأيام ان تسدل على خيائنه ستر النسيان . ولكنه من ناحية أخرى أراد ان يجزى احسانا باحسان ، ويرد ثلید التى دفعت عن عنقه سيف الجلاد كفاء بعض فضلها عليه ، وما دام عثمان قد استأمن له محمدا عند فتح مكة وترضاه حتى قبل أن يبقى عليه ، فان اقل القليل منه اليوم أن يقف داعية ينتصر لعثمان ..

الجمه الخزى فاطاش جوابه وعوابه وقبع يجتر حنقه ، ولكنه كان قد استطاع بكلماته القصار ان يعيد الى اصحابه الحياة .. لم تعد القضية الآن بين على وعثمان ، ولا بين هاشم وأمیه وحده ، تشكلت بشكل جديد . انها كيان قریش كلها قبل كيان الافراد والأشخاص ، قریش التى كانت سياستها العليا دائما حسد بنى هاشم واقصاءهم قدر الطاقة عن مقعد الحكم ..

وقام منها رجل حفزه غضبه ينتصر لابن أبى سرح ويصيح بعمار :

« عدوت طورك يا بن سمیة ! .. وما أنت وتأمیر قریش لانفسها ! »

وكاد بعد هذا أن يفلت الزمام تماما من ابن عوف . علا الصخب
فى كل مكان ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، وأوشك أن يقع بين
الناس ما تخشى عقابه ..

واهاب سعد بن أبى وقاص بصاحبه يحته !

« يا عبد الرحمن .. افرغ قبل أن يفتن الناس » .

كانت السرعة حقا جذيرة بأن تحسم النزاع وتقف به عند حد
مأمون . ولكن الحكم العدل لم يغب تردده عنه وبقي كدأبه .. فى
حديثه منذ قليل مع على وعثمان حزم امره على أيهما يختار ، ودعا
لاجتماع الناس اليه لسمعهم قراره ، فلما جاءت لحظة الفصل التى
اعد لها عدته وشى به طبعه الضعيف وغلبه التردد .. وللمرة الثانية
دعا اليه عليا ودعا عثمان لسمع منهما الجواب المألوف على شرطه
المعروف ..

قال له أول الرجلين بثبات :

« بل على كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى » .

وقال الثانى وهو مسلسل القياد :

« نعم » ..

فصفق يكفه على يده وقال أ

« اللهم انى قد جعلت ما فى رقبتي من ذاك فى رقبة عثمان ! »

وكذلك - بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء - فاز سليل

أمية بالمجد الذى حلم به أجداده طويلا ، وتمت له امرة الناس

- لا بالناس - انما بمشيئة رجل فرد من قرش كان هو الآخر

يترجم فعله عن عاطفة قبيله . تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأناية

العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها فى غيرها من لحظات الاسلام

السوالف ، ولسوف تكون عنوانا على عهد تقدم فيه الشخصيات على

الجماعيات . ولئن لم يكن عثمان متهما اذ ذاك بحبه ذاته فلقد كانت

من ورائه اسرة تدفعه أمامها كما يدفع الريشة نوء ، وانى لها أن

تصمد له !..

اهذه حقيقة ماثلة . .

اولئك الذين فجأتهم كف عبد الرحمن اذاروا اعينهم فيما امامهم
كانما استيقظوا لتوهم من كابوس ! قد كان الرجل اسرع الى قطع
الامر وهم يقطعون الوقت بينهم وبين غرمائهم فى جدال ، وسبقت
كفه الى يد عثمان تشد عليها قبل ان يسبقوا بحجتهم حجة الحزب
الآخر ، فلما استطاعوا ان يعودوا الى الوعى وتبينوا الموقف راوا عثمان
قد اقتعد من منبر رسول الله الدرجة التى وقفت عليها قدما
عبد الرحمن واقبل الناس عليه يبايعون . .

اهو التسليم يا ترى ام هى الثورة ؟ . . قد كان فى مقدور الفئة
المغلوبة ان ترفع علم العصيان بل كان أولى بحالتها النفسية اد ذاك
ان تعلن التمرد ، وكان رجالها - لو فعلوا - من جند الحق . كلهم
ذو قدم فى الاسلام وذو يد عملت جاهدة لرفع صرح الدولة ، وما فيهم
- هم الذين حملوا ارواحهم على الاكف ابان اضطراع الشرك والايمان -
الا المشوق الى الموت فى سبيل مبدا ، الزاهد فى الحياة مع الطغيان .
وانهم لكتائب الله الاولى التى آذرت نبيه ، واندفعت معه من شعاب
مكة - افرادا - بقوة اليقين حتى غطت اقطار الارض ، لم تنحلها
النصر عدة السلاح بقدر ما قطفته يانعا من اشواك انكار الذات ،
ولو انهم اعوزتهم الاسنة لحاربوا العالم اجمع - فى سبيل قضيتهم -
وغلبوه بالظفر وبالناب . . ولكنهم اليوم ليسوا عزلا تماما . . وان
فى ايديهم لعدة تترجم عن ايمانهم باللغة التى يفهمها الغرماء ، وفى
عدادهم المقداد راس الجند الموكل اليهم حفظ النظام . .

ولكنهم جهدوا ، وجاهدوا انفسهم حتى ألزموا التريث .
وتعلقت ابصارهم برجلهم المحبوب المفلوب . . فى هذه الآونة لمحوا
عبد الرحمن يشير اليه بعين ويدعوه . فيم الدعوة هذه ؟ - من البين
لكى يبايع . وتلبثوا ينتظرون ، وحبسوا الانفاس وأرهقوا الاذان .
فى صوت خافت كانما يحدث نفسه ، قال عبد الرحمن :

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه . . »

ادعوة هذه يا ترى ام وعيد ؟

وجاءه الجواب من ابن أبى طالب صريحا واضحا كسجيته :

« حبوته حبو دهر ! »

والتفت صوب قریش الملتئمة الجمع حوله ، المتألبة الاحقاد عليه ، وقال بنبرة الممرور :

« .. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . »

ما كان له فى مثل هذا المقام الا ان يحكم الله فانه غالب على امره ، ان شاء عفا او شاء عاقب ، ولكن لا يستطيع مطلقا ان ينصب من نفسه خصما وحكما لعبد الرحمن في آن ، ولا يقره على ههنا طبعه .. وحتى ان احس الغضبة فى قلبه تشور لحق سلبوه اياه ، فان منطق العقل عنده كان يسبق دائما منطق عاطفته . ولو انه اراد لاشار فتبعه جموع وجموع ، ولكن الاسلام كان اكرم عليه من ان يثير الفرقة بين اهله من اجل حقه المغضوب . وقديما وقف هذا الموقف الضنك فآثر ان يبوء بالخسران وامته موحدة عزيزة الجانب .. ولم يملك عبد الرحمن امام هذا الاتهام الصريح الا ان يبرر تصرفه فيقول :

« ... انى قد نظرت ، وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . »

فقيم اذن كان عرضه الامر على ابن ابي طالب لو صح ما قال ؟ .. وقيم المساومة على امر نبين له وظهرت خواتيمه ؟ وهب عليا قبل منه شرطه افكان اذن جديرا بان يقلده الامر على غير رضا من الناس ؟ وجاءه الجواب قاطعا كالسيف :

« والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك .. »

نسرت المهمة فى انحاء المسجد . اما على فقد عاد ثانية يواجه الخصوم بشجاعة قلبه ، ويخاطبهم بمنطقه السليم عن المبدأ القويم الذى ألزم به نفسه ، قائلا :

« لقد علمتم انى احق الناس بها من غيرى .. والله لاسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا على خاصة ، التماسا لاجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه .. »

وشق طريقه فشد على يد عثمان ، ثم غادر المسجد وعلى شفقيه هذه الكلمات :

« سيبلغ الكتاب أجله ! »

اجل كل بدء الى نهاية ، وكل مستهل الى غاية ، ولن تكون العواقب
الا كما تنبىء البدايات ..

استقل الرجل هذه بخلاف وانهاه بخلاف . ومضت ايامه فى
التاريخ مثلا للفرقة التى مشت ديداها فافسدت جماعة كانت مثلا
للألفة ، وقضت على كيان صلد متين ... حقا لم تتمزق الدولة ابان
حكمه ، ولم يصبها الوهن ، ولكنها أضحت دولة كالأخر لا تمسك
اجزاءها الا القوة ، وكانت من قبل تشدها الى بعضها البعض الأخلاق
... والخلق دعامة ركينة تهب القوة ولا تحطمها قوى السلاح فى
ميدان صراع وكفاح ...

هذه خواطر جرت بأذهان بعض الحشد القائم فى المسجد يتأهب
لبیعة عثمان ، وكادت تتجسم امام ابصارهم وهم يرونها بعين البصرة
... اولئك أصحاب العقائد والمبادئ والمثل العليا . الذين وهبوا
حياتهم للحق وعاشوا به ، لا يخشون بطش السيف ولا حدة السلاح .
قام بينهم عمار بن ياسر ، وقد غلبت غضبته على أدمة وجهه
حتى كاد أن يتلون بحمرة الدم ، وصاح ينذر تلك القبيلة التى عدت
على حق صاحبه وسلبته اياه بالعصية لا بالجدارة :

« يا معشر قريش ! اما اذا صرفتم هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم ،
ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فما أنا بأمن أن ينزعه الله فيضعه فى
غيركم ، كما نزعتموه من اهلك ووضعتوه فى غير اهلك . »
وهتف من بعده المقداد :

« ما رأيت مثل ما أودى به اهل هذا البيت بعد نبيهم ... »
وكأنما خشى ابن عوف مغية هذه الثورة النفسية التى ما زالت
نارها تضطرم بين الجوانح فسارع يحول بينه وبين الاستمرار فى
حديثه ... حتى بكلماته تلك كشف « صانع الحكام » من غيرته على
المجد الذى طوق به جيد قبيلته ، ورفع القطاء عن عصبيته ... قال
بلهجة السادة المترفعين عن طبقات الناس :

« وما أنت وذاك يا مقداد »

فايتسم له « ابن الشعب » بسمة كالعبسة . وصاح به :
« انى والله لاحبهم بحب رسول الله ، وان الحق معهم وفيهم .
يا عبد الرحمن ... أعجب من قريش وانت تطولهم على الناس ! .. »

اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله بعده من ايديهم ... »

وعلا جرس صوته ، ورن داويا كالزئير وهو ينم كلامه :

« اما وايم الله ، يا عبد الرحمن ، لو اجد على قریش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر ! »

فأى استقبال حافل هذا الذى قابل به خير صحابة رسول الله عهد عثمان ؟ وبأى الاحاسيس ملأت احاديثهم المرة قلبه ؟ .. بدت وشاعره على وجهه سمات معلومة تقرأها الاعين المتطلعة ، حين وقف بعد قليل على المنبر ويقول اولى خطبه لشعبه ... كان حسن الصورة مليح الحيا رغم تقدم عمره ، ولكن لونه غلب عليه شحوب عابر أحاله باهتا كالفضة ، وحتى هذه النكتات التى خلفها الجدرى على خديه ، وكانت قمينة ان تظهر سمراء ، كادت تخفى عن عين الرائي . وكان وجهه مرآة الحزن ، طافت الكتابة بقسماته لكأنما استطلعت نفسه ضمير الغيب !.

وحتى كلماته ايضا ! ... لقد كانت تقطر بما يحسه ويعتمل بقلبه من هم واصب جره عليه شعوره الحزين ، وما كان لامرئ أن يصف بغير كآبة النفس من يقول مثل ما قال :

« ... انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ... »

ولكن هذا الشيخ المهموم ، المنقبض الصدر فى ساعة ظفره ، الذى زوده بالحزن شعور غامض ، اجتمع له سوء الطالع الى جوار همه ، وأبى النحس الذى حاله من بعد طوال عهده الا أن يسير فى ركابه مذ اللحظة التى دفع قدمه الى المنبر ليخطب الناس ... لم يكن هو ملقيا باله الى خطواته بل تقدم بلا وعى يعلو درجات المنبر حتى وقف على نفس الدرجة التى كانت تطوؤها اقدام الرسول . كان هذا جديرا بأن يثير عليه الاستنكار وغضب الناس وقد علموا أى مكان كان يقفه أبو بكر ويقفه عمر من درجات هذا المنبر . ما جال يوما بذهن السلفين أن يضعا اقدامهما وقدمى رسول الله على سواء كما يفعل هذا الخليفة الجديد . اهو الكبير والصلف والاستعلاء ... ؟

بل هو نحس نجمه وسوء طالعہ . ابيا عليه ٧١ أن يستفتح عهده
بالخلاف وهمس الاستهجان والانكار بدل الترحيب والتهاف ساعة
الانتصار ...

٢٠

الكتابة التي احس بها عثمان لم يكن لها صدى الا في قلبه . كان
خافض الرأس مهموما اذ يسير الى داره قبيل غروب يوم نصره .
لم يحس فرحا او راحة لاختياره سيدا للناس . ولكن الفرحة التي
لم يستشعرها فاضت بقلوب ذويه ... حفوا به من كل ناحية ولفوا
حوله كالسوار ، وانطلقوا معه ، خفافا يكادون أن يسيروا على الهواء .
هذا يوم خالد على الزمان ! ...

اجل انه هو اليوم الذي اطلع - في خواطرهم - امية من قبره ،
ونشره حيا في شوكة مجده : ذهب عنه خزي النفي الى الشام
وما ذاق من مرارة الهزيمة التي جرعه كأسها عمه هاشم ، واستطال
شرفا - هذا اليوم - على غالبه القديم ... اما ذلك الماضي وما كان له
من ذكرياته فقد غاب وتوارى وجهه ، وبقيت منه هنات توافه لا
تعلق بالنفس الا لتحفزها على التشبث بالغد المرقوب - ذلك الغد
الذي استخفت اشراقته بنى امية حتى انطلقوا حول عثمان خفافا
كانما يسرون على الهواء ! ...

وضمنتهم معه الدار . كل من فيها طافت به نشوة الظفر الا ذاك
الذي لبس تاجه ... ومن ناحية أقبل رجل مشتعل الرأس بالشيب
شوه الجدرى وجهه فزاد من قبحه ، وتغورت احدى عينيه فيدت
كالفجوة . وكان بدينا بادی القصر ، يتلمس طريقه في ظلام بصره -
ذاك أبو سفيان بن حرب قد شاخ وفقد ضياء ناظره ...

أقبل على بنى بيته ، منفرج القم عن بسمه سبقت فيها الشماتة
فرحته ... وقال يسأل :

« افیکم أحد من غیرکم ؟ »

« كلا »

فنصب قامته ، ورفع من احناء رأسه التى خفضها العمر .
لعل أحلام شبابه كلها حضرته فى هذه الآونة وهو يهيب بالحاضرين :
« يا بنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به
أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم . ولتصيرن الى صبيانكم وراثه !.. »
وانها لدعوة !.. وانها لحلم نفذ من الأجيال المتعاقبة خلال عبد
شمس وأميه وحرب ثم استقر الآن حقيقة ماثلة أمام أذهان أحفاده
الحالمين به !.. فما أسعدها اليوم حقيقة ! وما أجلها غاية اتى بها
الزمان !..

كادت الحناجر ان تدوى بالهتاف للشيخ ثناء عليه ، وتنطلق
داعية كما انطلقت نفوسهم - فى فراراتها - مؤيدة ملبية ... فهذا
المجد الجديد الذى اشتاقوه من قديم جدير بأن تهفو قلوبهم اليه ،
وتعش انيابهم عليه !

ولكن عثمان لم يكن صافى المزاج فى اثناء الدعوة فلم يتلقها
بقبول ، انه لم يسغ نلامرة طعما شهيا حتى يلح بها على ذوقه !..
ولم يكن فى الحق بالرجل الذى يملك حب الحكم عليه نفسه - لا عن
زهادة فى المنصب ، بل بعدا عما يعيبه الاضطلاع به . ولكن كان
طالعه قد نصبه على رأس امته ، فما أحسبه أحب ان تنزلق الامرة
من بعده الى أسرته .

على ان رغبته وحدها ليست بالثقل الذى يرجح الميزان . او
العامل الفعال ذى التأثير الأخير فى سير الأمور . فما من امرئ
يستطيع ان يعثر على اثر واضح للرجل فى شأن اتاه ابان حكمه
الا ولمح اصابع آخر . او آخرين من آله ، قد دفعته اليه .. لم يكن
عثمان صاحب مشيئته او سيد عزمه ، بل كان رخوا دائما فى اكف
أسرته .. او كان الثوب الذى استطاع ان يلبسه بنو أمية قبل ان
يحين لهم لبس أمثاله من ثياب ! ولا أحسبه منافيا لحقيقة الحال ان
يؤرخ لهذا الرجل كأول عاهل فى دولة الامويين ! ...

نهر عثمان أبا سفيان ، ولكن البذرة التى وضعها أمية جاء اوانها
لتثمر ، وبدأت مع الزمن تنبت من ارض الحقد . وكانت كلمات الشيخ
هى العهد الذى جدد به - أمام بنى بيته - طموح اسلافه . ولم يكن هناك

هاشم يفض من حولهم الناس بكرمه . ولم يعد هناك محمد أيضا ،
الذى قهرتهم شريعته ، وأيدته في كفاحه باطلهم يد الله ... ولكن الباقي
في المعسكر المناوئ لهم كان شابا أوفى على رجولته بحساب العمر
ونضج واكتمل نماؤه بمقياس الفكر ، ليس بذي جاه يجذب اليه من
استهواهم الجاه ، ولا بذي مال ، يشتري النفوس ويملكها سلعة ...
وانما كان صاحب حق في آونة كاد طابعها ان يكون استباحة الحقوق ...
ومع ذلك فقد انطوى على نفسه كما فعل من قبل وآثر ان يفض
البصر عن ترائه المسلوب ، وان يصبر ، ويركب اعجاز الابل وان طال
السرى وامتدت الشقة واجهدته المشقة .

هكذا كان الرجل الذي أقصاه عبد الرحمن وكانت سماحة طبعه :
لم يلتمس حقه مطلقا عن طريق عنف أو ثورة وكان بمقدوره ان يسترد
لو أراد . ولكنه كان من طينة أخرى غير التي جبل منها خصومه ،
لا ينقض وعده وان ضاع حقه بالوفاء . وكان ممدود النظر الى أبعد
الآفاق .. وبينما كان هو يتوخى دائما صلاح أمته على حساب نفسه
كانوا هم يحرسون على صلاح أنفسهم بدافع من العصبية وحب الأهل
أو حب الذات ... وكانوا دائما امامه يحملون لواء العداء تماما كما
ارتسمت لهم سنة الأسلاف لانهم كانوا يناجزون فيه هاشما قبل أي
إنسان .

هذه حقيقة وعنها نفوسهم وانطوت عليها وان حاولت جهدها ان
تنكرها الألسن ، لا فرق فيهم بين رفيع أو وضيع المقدار ، لانها كانت
جرثومة الحقد ، التي سرت في دماثلهم موروثه عن الأجيال المتعاقبة
من الال ...



وهل كان التاريخ الا صورة مكررة ؟

ذات يوم مضى ، شفى أبو سفيان من جسد غله .. وكان الجسد
على الأرض لقي شائها ، مست فيه سكين امراته التي فاقت ضراوتها
وحشية لباة الغاب ، وعبثت أصابعها بأحشائه بعد ان بقرت بطنه ،
ولاك فمها هنيهة كبده المرير ثم لفظته ، ومضت عنه .. وأقبل من
بعدها زوجها يشتفى .. أهذه صورة أخرى من هاشم على ثرى
أحد ؟ ..

ثم راحت السنون ، واستبدل الرجل بشره الاسلام . فالى اى مدى يا ترى خفف الدين الجديد من غلوائه والان قلبه ؟ .. انه ليسعى الآن امام العين كمثّل سعيه الاول ، على ذات الارض ، بسفح احد .. ولكنه اليوم قد وهن قوى ، ودب بخطو مضطرب ، يكاد به ان يتعثر فيما يصادف قدميه لولا غلام الى جانبه يقوده . كان عائدا لتوه من دار عثمان ، فى قلبه قد اصطخب الفرح ونشوة النصر ، يتمايل عن تيه وخيلاء . وكانت المدينة قاعدة امير المؤمنين الجديد وراء ظهره ، ومكة بلدة البيت قبلة خطوه .. فلم تكن به حاجة الى التزام هذه الناحية من الطريق ، ولكن هاتفا بقلبه دعاه ان يفعل فراح يسير بين القبور ..

اهى روح عزيز لديه دعتة ان يمر بمشواه ؟ . بدا هذا ، فقد مال على اذن الغلام وهمس له ، وتقدم يحث خطاه . امشوق ؟ اهاجت بقلبه ذكريات ايام حلوة قضاه فى شبابه وصاحب المقبرة ؟ مشوق حقا لانه يكاد ان يشب وثوبا رغم عماه .

وتوقف بعد قليل .. ها هنا حمزة الشهيد - عم رسول الله ، مسجى تحت الحصى والرمال . وقف امامه ابو سفيان يتطلع ببصره الجاف .. عسى الرجل اراد ان يكفر عما فات من قسوته ، وتمثيله بعد امراته - ايام كفره - بهذا الجسد الطاهر ، اشنع تمثيل ! .. لعل اسلامه قد الان قلبه ! .. لعل نازعته صلات القربى فجاء يترحم على هذا الثاوى فى طوايا التراب ! ..

وتقدم ثانية خطوة او اخرى ، والقى ببصره المتغور على القبر ، ثم حرك شفّتيه بالكلام .. فآى كلام ؟ انفرج فمه الادرد القبيح عن اقصى بسمة تستطيع ان تصوغها شفاه لتعبر بها عن الحقد والشماتة ، ثم خرج من جوفه حديث كأنه فحيح أفعى ، وقال :

« يا ابا عمارة ! .. ان الامر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امسى فى يد غلماننا يتلعّبون به ! »
وركل برجله القبر ، ثم مضى مثلوج الصدر اذ اصاب ثاره ! ..

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤١٠